قراءة في عوالم ثمانية شعراء عراقيين



منشورات الجمل

كريم مروة

قراءة في عوالم
ثمانية شعراء عراقيين

منشورات الجمل

كريم مروة: **قراءة في عوالم ثمانية شعراء عراقيين**، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

مدخل

قد يبدو غريباً، كما يخيّل إليّ، بالنسبة إلى القارئ الذي يعرف سيرتي كصاحب تجربة سياسية طويلة ومديدة باسم الاشتراكية وباسم الأفكار الماركسية التي تستند إليها، قد يبدو غريباً أن أقحم نفسي من موقعي هذا في هذه القراءة في عوالم الشعر والشعراء. إذ أن المتعارف عليه في بلدانا، وربما في العالم أيضاً، أن يتحدث عن الشعر والشعراء حصراً الشعراء أنفسهم والنقاد من شتى الاتجاهات والمدارس. لكن ما لا يعرفه القراء، باستثناءات قليلة منهم، أنني، منذ شبابي الباكر، قارئ للشعر ومتابع لسير الشعراء العرب بدءاً من العصور العربية الأولى حتى العصر الحديث، وأنني قارئ للشعر الأجنبي ومتابع لسير الشعراء الأجانب، من غوته ورامبو وبودلير إلى بول إلوار ولويس أراغون وفردريكو غارسيا لوركا وبابلو نيرودا وبرتولد برخت ويانيس ريتسوس وناظم حكمت. وأنا، في الآن ذاته، أواكب منذ شبابي الباكر الحركة الثقافية في بلدانا وفي العالم، من إبداعات المثقفين في الأجناس الأدبية والفنية على اختلافها وفي الحركة الفكرية في اتجاهاتها المتعددة.

وأود هنا أن أؤكد، باهتماماتي المبكرة والمتواصلة بالشأن الثقافي، على مسألة أساس تتصل بتعريفي للسياسي ولدوره وللسياسة

ولوظيفتها في حياة الأوطان. فالسياسي، في نظري، إذا لم يكن صاحب فكر وصاحب علم ومعرفة وصاحب رؤيا وصاحب اهتمام بكلّ ما يتصل بالثقافة في بلده على وجه الخصوص، يفقد صفته كصاحب رأي وصاحب دور في عملية بناء الأوطان وفي العمل المتواصل لتحقيق التقدم لها وتحقيق السعادة لشعوبها.

وبعد، فقد اخترت هؤلاء الثمانية من كبار شعراء العراق على امتداد القرن العشرين، الكلاسيكيين منهم والحداثيين، لأنني أعرف ستة منهم معرفة شخصية منذ مطالع شبابي عندما كنت أقيم في العراق في أواخر أربعينات القرن الماضي لمتابعة دراستي في معاهده، ثمّ في زيارات متكررة له بعد عودتي منه في عام ١٩٤٩. فقد مكّنتني تلك الظروف من معرفة هؤلاء الشعراء الستة ومعرفتي الدقيقة بشعرهم وبسيرهم. أما الشاعران الآخران جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي فقد قرأت في تلك الفترة بالذات من وجودي في العراق الكثير من أشعارهما وتابعت بعد ذلك التاريخ اهتمامي بسيرتيهما وبمواقفهما الأدبية والسياسية والفكرية. وكنت أود أن أضيف إلى هؤلاء الشعراء الثمانية الكبار أربعة آخرين هم عبد الله كوران وحسين مردان ومصطفى جمال الدين وشركو بيكس. لكنني اكتشفت أن عليّ أن أضيف إليهم شعراء آخرين ممن جاءوا قبلهم ومعهم، أخص منهم بالذكر محمد سعيد الحبوبي وعلي الشرقي ومحمد رضا الشبيبي وجعفر الخليلي ولميعة عباس عمارة. الأمر الذي كان سيتطلب مني جهداً كبيراً وزمناً قد يطول. فاخترت أن أكرّس هذا الكتاب لهؤلاء الثمانية في الوقت الحاضر وأرجئ إعداد كتاب آخر عن الشعراء الآخرين الآنفي الذكر لزمن آخر.

وأعترف أمام القارئ بأنني لا أمارس عبر هذه القراءة في عوالم

هؤلاء الشعراء مهنة النقد الأدبي. فلست أنتمي إلى سلك النقاد بمدارسهم واتجاهاتهم المختلفة الذين أحترم قراءاتهم النقدية للشعر وللرواية ولسائر أجناس الأدب والفن. لذلك فإن ما يهمني من هذه القراءة في هذا الكتاب بالذات هو المتعة التي قدمتها لي أشعارهم وسيرهم بالتباساتها، كما قدمتها لي مواقفهم في شؤون الحياة وقدمتها لي طرائق انتماءاتهم إلى السياسة والتواءاتها.

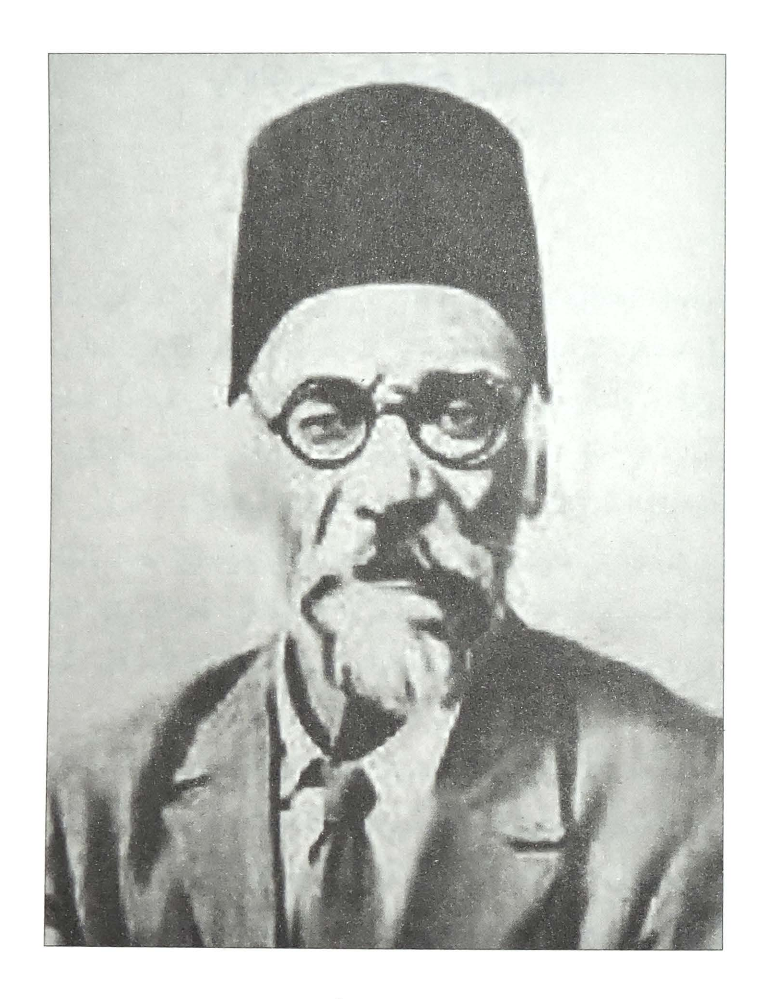
وأود أن أعترف، في الآن ذاته أن عراق الثقافة وعراق النضال السياسي وعراق الفكر وعراق التاريخ قديمه وحديثه، قد علّمني كثيراً وأسهم في تكوين شخصيتي منذ بدايات شبابي. وكان لهؤلاء الشعراء الثمانية بالذات ولعدد من المثقفين والسياسيين الآخرين من العراق دور كبير في تكوين شخصيتي هذه التي ستظلّ تنهل من أحداث التاريخ وتغتني.

غير أنني أود أن أشير إلى أن اختياري للنماذج الشعرية لكلّ من هؤلاء الشعراء الثمانية جاء من دون تواريخ ومن دون تنسيق دقيق. وهو خلل أعترف به وأعتذر من الشعراء ومن القراء.

لقد قلت في الكتاب ما كنت أود قوله. وخرجت من الكتاب. وخرج الكتاب مني. وصار ملكاً عاماً للقراء.

تلك هي كلمتي التي أحببت أن يبدأ القارئ بها قبل أن يدخل في متن الكتاب.

كريم مروة



جميل صدقي الزهاوي

جميل صدقي الزهاوي

١٨٦٣ - ١٩٣٦

يحار الكاتب من أين يدخل في عالم الشاعر العراقي الكبير جميل صدقي الزهاوي. فهو قبل أن يصبح شاعراً كان عالماً وكان فيلسوفاً. وكان رجل دولة تسلم مناصب مختلفة في مراحل مختلفة من حياته في ظل السلطنة العثمانية، ثمّ في ظل الحكم الوطني في العراق بقرار من السلطات كلها، دخولاً وخروجاً متواصلين. وإذ أصبح شاعراً في فترة لاحقة من شبابه، دخل بقوة في مجال الشعر، وصار بالتدريج واحداً من كبار شعراء عصره في العراق وفي العالم العربي. وكانت قصائده تتصدر صحف ومجلات العراق ولبنان ومصر.

وأعترف أنني حين بدأت البحث في المراجع عن شاعرنا الكبير فوجئت بأن كل الذين اقتحموا ميدان الكتابة عنه واجههم السؤال ذاته الذي واجهني، فالسؤال هو: من أي باب يمكن للكاتب أن يدخل في عوالم هذا العبقري المتعددة عوالمه. لكنني صممت أن أدخل في عالم الشعر على وجه الخصوص، وأن أترك له هو أن يتحدث عن عوالمه كلها بما فيها عالمه الشعري. واخترت أن أتركه يتحدث بنفسه عن سيرته التي كتب ملخصاً عنها بقلمه تسهيلاً للباحثين عن مفاصل هذه السيرة وتشعباتها. وكان السبب في اختياري هذا، هو الدقة في

تحديد مسار حياته، حتى لا يقع أي خطأ أو أي التباس. واستناداً إلى هذه السيرة ذاتها وانطلاقاً منها يصبح الحديث عن شعره أقرب إلى فهم العوامل والعناصر التي حكمت قراره في كتابة الشعر كصيغة نهائية للقسم الأعظم من حياته حتى الرمق الأخير. وهذا بالضبط ما كنت قد لجأت إليه في سرد سيرة الشاعر أحمد الصافي النجفي. إذ اخترت سيرته التي كتبها بقلمه.

لنبدأ إذن بالنص الذي يقدم فيه الزهاوي ملخصاً لترجمة حياته:

«ولدت في بغداد من أبوين كرديين في يوم الأربعاء ١٨ حزيران سنة ١٨٦٣. أما أبي فهو مفتي العراق محمد فيضي الزهاوي الكبير. ويرجع نسبه إلى أمراء السليمانية (البابان). وهؤلاء ينتمون في نسبهم إلى خالد بن الوليد. وشهرة والدي الزهاوي هي لأن أباه (جدي) أحمد بك هاجر إلى زهاو (بلدة ملحقة في يومنا هذا بإيران) وسكنها سنين وتزوج فيها سيدة زهاوية فولدت له أبي. فلما رجع إلى السليمانية مع نجله (أبي) اشتهر أبي بالزهاوي. وأما أمي فاسمها بيروز. وهي سيد عصبية المزاج من أسرة كردية وجيهة (ولعلي ورثت العصبية منها). وكنت في صباي أدعى بالمجنون لحركاتي غير المألوفة وفي شبابي الطائش لخفتي وإيغالي في اللهو، وفي كهولتي بالجريء لمقاومتي الاستبداد، وفي شيخوختي بالزنديق لمجاهرتي بآرائي الحرة الفلسفية المخالفة لآراء الجمهور. تعلمت كثيراً من علوم الأولين فلم يشبع عقلي، وكثيراً من علوم الغربيين فيما ترجم إلى التركية والعربية على أساتذة خصوصيين فولعت بها ودأبت على المطالعة وتوسعت فيها. وكان أول نظمي بالفارسية ثم بالعربية، ونشرت لي المجلات والصحف في مصر وبيروت والشام وبغداد مقالات كثيرة وقصائد ثائرة. وأنا أول من دافع عن المرأة في

العراق، وأول من قاوم الاستبداد في عهد السلطان عبد الحميد، وأول من نظم القصائد القصصية، وأول من تمرد على القديم وعن الجديد وقاوم التعصب.

ولم أتعلم لسوء الحظ لغة غربية. وقد تزوجت في سن الثلاثين بالآنسة زكية هانم وعمرها يومئذ ١٦ سنة. وهي من بيت كردي شريف. ولم يولد لنا ولد. وقد خدمتني في شيخوختي بإخلاص وأمانة.

عينتني الحكومة التركية في أول شبابي عضواً في مجلس المعارف ببغداد ثم مديراً لمطبعة الولاية ومحرراً للقسم العربي من جريدتها الرسمية «الزوراء»، ثم عضواً في محكمة الاستئناف. وسافرت بعد سنوات إلى مصر فمكثت فيها أسبوعاً ثم أبحرت إلى إسلامبول عاصمة البلاد العثمانية يومئذ.

بعد سنة أرسلتني الحكومة بإرادة سلطانية إلى اليمن واعظاً عاماً وعضواً في الجمعية الإصلاحية وبقيت فيها ٩ أشهر. ثم رجعت إلى العاصمة بإرادة سنية. واجتمعت في هذه المرة بالترك الأحرار وجاهرت بالسخط على نظام الحكم. ونظمت في ذلك عدة قصائد نشرت في جرائد مصر بتوقيع مستعار. وأصبحت معقباً بالجواسيس. وكانت النهاية أن أبعدني السلطان إلى بلادي براتب شهري قدره ١٥ جنيه.

وأكثر شعري الذي كنت نظمته قبل الدستور العثماني نشر في ديواني الاول «الكلم المنظوم». ولما أعلن الدستور العثماني عدت إلى العاصمة فعينتني الحكومة الدستورية أستاذاً للفلسفة الإسلامية وأستاذاً للآداب العربية في جامعتها. وقد نشرت دروسي التي كنت ألقيها في الفلسفة بمجموعة دار الفنون باللغة التركية. ثم اشتد بي

المرض فألجأني إلى الرجوع إلى بغداد أستاذاً للقانون المدني في كلية الحقوق.

وفي ولاية ناظم باشا كانت جريدة «المؤيد» في مصر قد نشرت لي مقالة أدافع فيها عن حقوق المرأة فقامت حول هذه المقالة ضجة كبيرة وأخذ المتعصبون يرغون ويزبدون ويقذفونني بالسب واللعن. والمهذبون من الكتاب في مصر وسوريا ناصروني. ولكن التعصب في بغداد كان يومئذ ذا صولة فلم يسع الوالي غير عزلي من وظيفتي إرضاء للرأي العام. ثم جاء جمال باشا والياً عوضاً عن ناظم باشا فأرجعني إلى وظيفتي.

ثم انتخبت نائباً عن لواء المنتفق في البرلمان العثماني فحضرت جلساته في إسلامبول ثم انفسخ المجلس فعدت إلى بغداد. وانتخبت في بغداد نائباً عنها. فذهبت إليها ثانية وألقيت الخطب أدافع عن حقوق العراق. وقامت حولي الضجات فلم أبال. ثم بعد سنتين أو ثلاثة وقعت الواقعة وأعلنت الحرب العظمى واحتلت الجنود الإنكليزية بغداد وأرادت أن تأخذني إلى الهند أسيراً. ولكنني أبرزت ورقة فيها صراحة بأن مكاتب جريدة المقطم المصرية (وكانت هذه الجريدة موالية للإنكليز) فأفرجوا عني.

وعينت في عهد الاحتلال عضواً في اللجنة التي تدير أمور المعارف ثم رئيساً للجنة تعريب القوانين التركية. فعرّبت ١٧ قانوناً بين صغير وكبير. ثم ألغيت اللجنة وجاء جلالة الملك فيصل الأول المعظم وتوج ملكاً في العراق واحتفل به في بغداد احتفالات باهرة كنت المغرد فيها.

ثم هاجرت إلى سوريا فمصر. وأقيمت لي في الشام وبيروت ومصر عدة حفلات. ونشرت لي في الشام وبيروت ست قصائد وفي

مصر أكثر من ثلاثين قصيدة. وبعد أن أعلن الدستور في العراق رجعت إليه فعينني جلالة الملك عضواً في مجلس الشيوخ، ثم بعد ٤ سنوات خرجت من المجلس بالاقتراع الذي كان قد نص عليه الدستور العراقي. ثم في «السياسة الأسبوعية» (مجلة كانت تنشر في مصر) كل أسبوع قصيدة فعطلتها حكومة مصر. وقد بلغت السبعين من عمري وبان علي الهرم وشلت أصابع قدمي اليسرى منذ أكثر من عشرين سنة وما زالت الأوجاع العصبية تنتابني وتبرح بي.

وأما مؤلفاتي فأولها رسالة باسم «الكائنات» في الفلسفة أبديت فيها آرائي الحرة في المكان الزمان والقوة والمادة والحياة والجاذبية وقد طبعت في مطبعة المقتطف بمصر ونفذت نسخها. والثاني رسالة في سباق الخيل أودعتها تجاربي الخاصة في ركوب الخيل وقد طبعت في مجلة الهلال بمصر. والثالث رسالة في «الخط الجديد» نشرها «المقتطف» بمصر ثم في شكل رسالة وقد نفذت نسخها. وهذا الخط لا يشبه الخط العربي ولا الحروف اللاتينية، ويقدر أن يتعلمه التلميذ في أسبوع. وهو جميل ويكتب متصلاً من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين ويطبع مقطعاً، وفيه تسهيل للطباعة. فإن كل حرف منه إذا قلب كان حرفاً آخر من الحروف الأبجدية. فقام كل حرف بوظيفة حرفين. وتعلم ما في ذلك من الاقتصاد، ويمكن لهذا الخط أن يتخذ خطاً عاماً لجميع اللغات. والرابع هو دروسي الفلسفية التي كنت ألقيها على تلاميذي في جامعة الأستانة. والخامس ديواني «الكلم المظلوم» وقد نشر في بيروت بأول سنة للدستور العثماني ونفذت نسخه. والسادس هو «الفجر الصادق» في الرد على الوهابية. وقد طبع في مصر قبل الدستور العثماني ونفذت نسخه. والسابع رسالة «الجاذبية وتعليلها». وقد طبعت في بغداد بعد

رجوعي إليها أستاذاً في كلية الحقوق. والثامن هو ديواني الذي طبع بمصر باسم «ديوان الزهاوي». والتاسع هو «المجمل مما أرى» رسائل فلسفية أودعتها آرائي التي خالفت فيها علماء عصري. وبسطت فيها الناموس الدوري العام وعللت الجاذبية العامة بالدفع العام للأثير الجاري إلى المادة طلباً للموازنة، وقد طبعت بمصر قبل ثماني سنوات. والعاشر رسائل في لعبة الداما تحتوي على ١٥٩٩ لعبة، ٥٠٠ منها لأصحابها و ١٠٠٠ من مستنبطاتي. وهذه لم تطبع بعد. والحادي عشر ديوان رباعياتي. وقد طبع في بيروت قبل ثماني سنوات طبعاً رديئاً ومغلوطاً. والثاني عشر ديواني الذي طبع ببغداد قبل ٤ سنوات باسم «اللباب» وأضفت إليه ١٨٠٠ رباعية من رباعياتي منقحة صحيحة، والكثير من قصائدي المنشورة في «ديوان الزهاوي» منقحة، وما نظمته من القصائد بعده. والثالث عشر «ترجمة رباعيات الخيام» وقد ترجمتها رأساً من الفارسية نثراً ونظماً بعد إثبات الأصل الفارسي في الصدر، وهي ١٣٠ رباعية. والرابع عشر رواية تمثيلية باسم «ليلى وسمير» طبعت في بغداد قبل سنتين ونفذت نسخها. والخامس عشر رسالة في تسهيل القواعد العربية لم تنشر بعد. والسادس عشر هو ما نظمته بعد قصائد «اللباب» باسم «الأوشال». وقد نشرت قصائده في مجلات مصر وصحفها والشام وبيروت وبغداد. ولم تنشر بعد في شكل ديوان. والسابع عشر هو ديوان «نزعات الشيطان». وقصائد هذا الديوان لم تنشر بعد في المجلات والجرائد. وسوف تنشر بعد موتي لأنها تصادم آراء المتعصبين وتثيرهم إثارة لا يحمد عقباها. والثامن عشر هي قصيدتي «ثورة في الجحيم» وعدد أبياتها ٤٣٣ وقد نشرت في العام الماضي في مجلة «الدهور». وكانت يومئذ تصدر في بيروت. وقد قامت حولها ضجة

كبيرة. وقد سبّني بسببها بعض المتعصبين على المنابر في خطبة صلاة الجمعة. ونفذت بعد قليل من الزمن نسخها».

يقدم هذا النص بقلم الزهاوي إجابات واضحة على كل ما يمكن أن يرد في ذهن الكاتب والقارئ من أسئلة حول سيرة شاعرنا بتفاصيلها، ومن ضمنها ما يتصل بعالم شعره والصيغ التي اختارها له. ويبقى على الباحث عن شعره أن يقرأ دواوينه. إلا أنني لن أغامر في البحث الذي هو من اختصاص النقاد. وحتى في هذا الموضوع بالذات وفر عليّ الزهاوي تلك المغامرة في النص الذي وضعه تحديداً لمفهومه للشعر، وتحديداً للطريقة التي اختارها لنظم الشعر. وقد عثرت على هذا النص في كتاب ضخم وضع له مقدمة عميقة ومطولة عبد الرزاق الهلالي. كما وضع الزهاوي ذاته مقدمة بعنوان «نزعتي في الشعر» أقدمها هنا بنصها الكامل بدلاً من مغامرتي في البحث حول شعره الذي هو من اختصاص النقاد. يقول الزهاوي:

الشعر هو ما ينظمه الشاعر من إحساس يجيش في نفسه بأوزان موسيقية فيهز به السامع:

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه فليس خليقاً أن يقال له شعر

ولا أرى للشعر قواعد. بل هو فوق القواعد حرّ لا يتقيد بالسلاسل والأغلال. وهو أشبه بالأحياء في اتباعه سنة النشوء والارتقاء، يتجدد -وأحرى به أن يتجدد- بحسب الزمان، ويرتقي من الأدنى إلى الأعلى ومن البسيط إلى المركب. وأنزع أن أمشي بشعري في سبيل الحياة الطبيعية متجنباً المبالغات وكل ما ليس حقيقياً، وما أخلق الشاعر بأن يخرق التقاليد التي ورثها الأبناء من الآباء. فيقول ما يشعربه هو، ولا يشعر به آباؤه. فكلما رجعت إلى نفسي أحيد به

عن الطريق الذي يمشي عليه غيري معتقداً أن الطبيعة أولى بالتقليد:

وما زلت في جوّ من الفكر طائراً

ومن عادتي أن لا أطير مع السرب

وقد جردته ما استطعت من الصناعات اللفظية والخيالات الباطلة. وحرصت على أن يكون منطبقاً على الواقع، خلواً من الإغراق، ماشياً مع العصر. فحسبي أن توحي الطبيعة إليّ فأقول ما أقول:

حبذا الشعر إذا كا ن مثيراً للشعور

وإذا كان نزيهاً كأغاريد الزهور

ولا أرى مانعاً من تغيير القافية بعد كل بضعة أبيات من القصيدة عند الانتقال من فصل إلى آخر كما فعلت في عدة قصائد، لا دافعاً لملل السامع من سماع القافية الواحدة في كل بيت كما يدعي بعضهم، - فتلك حجة من يعجز عن إجادتها، وإلا لملّ الناظر وجوه الناس لوجود أنف بارز في وسط كل وجه- بل راحة للشاعر من كد الذهن لوجدانها، فإن الاتيان بها متمكنة ليس في قدرة كل شاعر، قال عويف القوافي:

سأكذب من قد كان يزعم أنني

إذا قلت قولاً لا أجيد القوافيا

وأجيز للشاعر أن ينظم على أي وزن شاء سواء كان من أوزان الخليل أو غيرها.

والشعر الحر شجاع لا يهاب في الصدق لومة اللائمين، إلا إذا أحسّ بالمهلكة فعندئذ يسكت أو يكذب، قال شيخ المعرة:

أصدق إلى أن تظن الصدق مهلكة

وعـنـد ذلـك فـاقـعـد كـاذبـاً وقـم

ونزّاع إلى التجدد، يثور على النظام ويتمرد عل السلطان الكاذب، يريد كل يوم أن يمرق عن العادات ويمزق أطمارها البالية كالفراشة التي تخلع شرنقتها لتبرز في ثوب أجمل محبر بألوان السماء.

الجديد الجديد هو أحسن ما تنزع إليه النفس الوثابة، ولو لم يتجدد الليل والنهار لملهما الناظر:

سئـمـت كـل قـديـم عـرفـتـه فـي حـيـاتـي

إن كـان عـنـدك شـيء مـن الـجـديـد فـهـات

ولا أريد بالتجدد أن يقلد الشاعر العربي شعراء الغرب في شعورهم، فإن لكل أمة شعوراً خاصاً بها لا تحسّ به أمة أخرى كالموسيقى. ألم تر أن كلاً من الشعر العربي والشعر الغربي إذا ترجم إلى الآخر فقد كثيراً من روعته، اللهم إلا إذا تصرف فيه المترجم فقربه من شعور قومه أو كان الشعور الذي يترجمه مشتركاً بين الأمتين.

ولا أقول بأن يجمد الشاعر العربي على ما هو عليه الشعر اليوم، بل الأحجى أن يترقى شعر كل أمة في سبيله، ومن المستحيل أن يصدح العندليب صدح الحمامة أو تغرد الحمامة تغريد العندليب.

ولا يسوغ للشاعر العربي مخالفة قواعد اللغة، فإن الإعراب دليل المعاني، كما لا يخالف الشاعر الغربي قواعد لغته. وللشاعر الفحل أن يولد في اللغة إذا مست الحاجة كلمات لم يأت بها من جاء قبله، فتغني بذلك اللغة. واللغة التي لا يتولد فيها كل سنة عدد من الكلمات، ولا يموت كذلك عدد، هي ميتة.

ولقد وجدت الذين يمارون الأدب ثلاثة أقسام: الاول وهو الأكثر عدداً من لا يستحسن من الشعر إلا ما ألفه من القديم وانتقل إليه بالوراثة من العصور الماضية فلا يستحب فيه إلا المبالغات والخروج عن حدود الطبيعة، وإذا خلا الشعر من استعارة أو مجاز فلا يعده شعراً، والشعراء المسايرون للجمهور هم شعراء هذا القسم ينالون منه حظوة منهم. والثاني هو تشرب مخه من الأدب الغربي لا ينزع إلى الشعر العربي إلا إذا كان على نسق ما يقوله شعراء الغرب، جاهلاً أن الشعور يختلف باختلاف الأمم وأن ما تحسّ به أمة لا تحس به أخرى كما تقدم، فمثل هذا قد خرج من نفسية قومه واندمج في غيرهم. والثالث هو الأقل عدداً يسير مع رقي العلم جنباً إلى جنب، ويستحب الشعر خلواً من المبالغات منطبقاً على الطبيعة، مع المحافظة على الشعور العربي الذي هو قوام شخصيته، وأمثال هذا أصواتهم تضيع في ضوضاء القسم الأول الذي وقف، ولم يتبع خطوات العلم، محافظاً على القديم البالي.

وأكثر الناس لا يحكم بجود الشعر أو رداءته إلا بما يتلقن من غيره، فهو إذا سمع تحسيناً له استحسنه أو تقبيحاً استقبحه. وإلأخلق أن لا ينتظر الذي له نزعة إلى التجدد أن يكبر شعره الجمهور من جيله، إذا كان ذلك الجمهور منحطاً قد تعود القديم فهو في كل وقت محافظ عليه ساخط على ما يأتي به الخارقون للقواعد المقررة، الناكبون عن الطريق الذي مشى عليه الأسلاف، الكافرون بالأوثان التي عبدها هو وآباؤه الأولون، والزمان وحده الحكم في تعيين درجته.

والشاعر الذي يساير شعور الناس فيما ينظم متوخياً إقبالهم على شعره ينال ما يتوخاه ما بقي الشعب جامداً في مكانه لا يتزحزح عنه.

أما إذا تقدم فإن شعره يموت ويأخذ مكانه ال شاعر الذي يتجدد مع جيله، ويبقى هذا مسايراً له إلى أن يتقدم الجيل فيموت شعره كالأول ويقوم مقامه غيره.

أما شاعر الأجيال فهذا لا يموت شعره لأنه يبنيه على الحقائق الخالدة ومثل هذا قليل، وهو في الغالب يسبق جيله، ولا أراه مستفيداً من المستقبل الذي يجمع أهله على إكباره، لأنه يكون يومئذ تحت أطباق الثرى ميتاً لا يسمع هتاف الهاتفين له.

والنقد إن لم يكن عن علم وإخلاص فهو حقد. أما الذين ينقدون الشعر من حيث عدم انطباقه على الواقع أو قلة روعته فهم في الغالب على هدى. أما الذين ينقدونه من حيث أنه مسبوق إليه فهم في أكثر المرات في ضلال، لأن الشاعر إذا وصف الحالة أو روى قصة فلا مندوحة له من ذكر أشياء قد يكون غيره سبقه إلى بعضها في مثل موقفه.

وكثير من المعاني مشترك لا يختص به شاعر دون آخر، فمن أجاد في نظمه فهو أحق به من غيره. وهناك حقائق علمية ونواميس طبيعية قد اكتشفها أفراد من العلماء، فإذا بنى شاعر شعره على بعض هذه الحقائق فمن الحيف أن يوصم بالأخذ، وأي ترتيب على من يبني القول على ما قرره العلم، وهل التقدم إلا اتباع العلم في خطواته.

وقد يعلق بذهن الشاعر شطر من بيت سمعه لمتقدم فيأتي به بعد سنين في تضاعيف قصيدة له لاقتضاء المقام ذلك وهو ناسٍ أنه يقول، فتقوم عليه القيامة ويرمى بالسرقة. ولا مثل الحياة التي يقضيها الشاعر بين الجاهلين يروم الحاقد منهم أن يشفي غليله بالتحامل عليه أو يكسب شهرة من وراء نقده مستفيداً من جهل

القوم، وجزاء هؤلاء نقدهم السخيف الذي يسجلون به العار على أنفسهم وهم لا يدرون.

هناك في بغداد على ضفة دجلة سماء صافية زرقاء تلمع في ليلها النجوم فرادى وأزواجاً وركاماً، وأرض أخضر أديمها هي منبت جسدي وعقلي، وأصحاب يوالون، وأعداء يناوئون، وجهاد مستمر، وآمال بيض، ويأس أسود، وفساد في النظام، وعادات سيئة تضر بالمجتمع، ونفس لي حرة لا تقيم على الضيم، كل ذلك قد أنطقني شعراً هو شعور كان يجيش في نفسي قبل أن أنطق به.

غنّيت لأبناء وطني أريد أيقاظهم، فلما فتحوا عيونهم شتموني، ثم غنيت، فأخذوا ينظرون إليّ شزراً، ثم غنيت فابتسموا لي، ثم هتفوا وبقي فيهم من يشتم، وغنيت وسأغني إلى أن يسكتني الموت. وسوف تبقى بعدي كلماتي معربة عن شعوري وما كابدته في حياتي من شقاء واضطهاد، فهي دموع ذرفتها براءتي على الطرس ناطقة بآلامي، وهي خليقة بأن تذرف من عيون قارئها دمعة هي كل جزائي من نظمها.

وما المنشور في هذا الديوان كل ما نظمته من القريض، بل هو أكثر من الثلث وأقل من النصف. ولا هو أحسن ما قلته، بل هناك قسم ليس دونه أجلت نشره إلى أن تسمح الظروف، منه «النزعات» و«الرباعيات». وقد بوشر طبع قسم كبير من الأخيرة في بيروت بسعي بعض أنصار الأدب.

وقد يتكرر عندي المعنى الواحد في بيتين أو أكثر، ذلك لقلة حفظي ما قلته أو حباً بالمعنى وحرصاً على طلب الإجادة في نظمه، ولا ضير من ذلك على الأدب فإن الروض ينبت زهراً مختلف اللون والرائحة وزهراً متشابهاً.

وربما عرف المطالع من قصيدي حالة بلادي السياسية ودرجتها من الرقي في السنين التي عشت فيها وعرف عن حياتي ما لم يعرفه من التراجم المطولة.

وما أنا مادح لشعري، غير أني أعتقد أنه إذا صادف قلباً ذا شجون مدفونة فهو يثيرها. ولا أدعي أنني أجدت بل غاية ما هنالك أني قلت فحسب. وإذا ألفى أحد فيها ما يمس شعوره أو معتقده فلا يغضبن عليّ فإني لم أتعمد إيلامه وطالما سمعت ما يخالف رأيي ولم أتذمر ولم أحقد على كاتبه.

وقد نظمت قصائدي في ظروف مختلفة وأوقات مختلفة وأحوال نفسية مختلفة، فلا غرو إذا اختلفت في الشعور والمرتبة. وما أردت أن أكسب به مالاً أو أتزلف إلى أحد، فما رثيت إلا من كان صديقي، مستثنياً شيخ الأدب اسماعيل باشا صبري فأنا أسفت لوفاته فرثيته على غير معرفة لي به. ولا حمد إلا من ظننت فيه خيراً للبلاد، وربما خاب ظني في بعضهم فكففت:

قد مدحت الذين لم يستحقوا مدائحي

أحسبوها على ضرورتها من قبائحي

وقبل أن أدخل في تقديم بعض النماذج من شعره التي استقيتها من ذلك الكتاب الضخم الآنف ذكره، ومن بعض المقالات التي كتبت عنه، أود أن أقدم بعض المقاطع من مقال نشره أحمد حسن الزيات مؤسس مجلة «الرسالة المصرية» نشره في الرسالة مسلسلاً في ثلاثة أعداد، في صيغة تأبين له بعد رحيله. يقول الزيات في هذا النص: «**كان الزهاوي كشوقي حريصاً على متابعة العصر ومسايرة التطور. ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد وحس**

مرهف يأنف التخلف. ويزيد الزهاوي أن الفخر يزهو به والتيه يذهب به، فيحب الثناء ويبغض النقد. فهو لفَرَقه من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد. ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأي إلى التطرف. ولطمعه في نباهة الذكر يجاري ميول الخاصة ويعارض هوى العامة. ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم، وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة. والزهاوي بعد هذا وفوق هذا كان رسولاً من رسل الفكرة الإنسانية، وبطلاً من أبطال النهضة العربية. كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة فتتردد أصداؤها الموقظة على ربوات بردى، وخمائل النيل، وسواحل المغرب. وأدب الزهاوي وأمثاله هو الذي وصل القلوب العربية في مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة، حتى استطاعت اليوم أن تتعارف وتتآلف وتتحالف، ثم تسعى لتعود أمة كما كانت وتقوى لتصبح دولة كما يجب أن تكون».

مختارات من شعره

لا روض ولا ريحان

كم موقف للحب فيه تكلمت بعيونها الفتيات والفتيان
فتن الجميع الحسن في ريعانه والحسن في ريعانه فتّان

ومنها

يا منزلاً فيه تعاطينا الهوى لا أنت أنت ولا الزمان زمان
جاء الخريف مبكراً فتجرّدت في الدوح من أوراقها الأغصان
قد كان ريحان وكانت روضة واليوم لا روض ولا ريحان
يبني الهزار على الغصون لنفسه عشاً فتهدم عشه الغربان

الحقيقة والخيال

إني أرى شبحاً حيالي بين الحقيقة والخيال
يخفى كسرٍّ ثم يظهر شاحباً مثل الهلال
فإذا بدا فكأنه أمل لرين اليأس جال
وإذا اختفى فكأنه روح تلفع الظلال
شبح توشح حين طوّ ف بالوضاءة والجمال
أترى سعاد أتت تفي بالوعد من بعد المطال
أم كان ما عيني تشا هد من خيالات الليالي

طيف الحبيبة قد أتى	في الليل يسمح بالوصال
إن لم يكن هو شخصها	فمثالها فيما بدا لي
يا طيف أنت اليوم أقـ	رب من سعاد إلى النوال
وأبر منها في	مواصلة المحب بكل حال
يا طيف أنت عليّ يا	طيف الحبيبة أنت غالي

لبنان

لقد طاب لبنان وطاب هواؤه
وطاب به أهل وطاب ربوع
إذا كان في بيروت صيف هجيره
يعاف فان الفعل فيه ربيع
عيون وجنات قد التف جوحها
وعانق منهن الفروع فروع
وطير على الأغصان تشدو بلحنها
وزهر على حسن الرواء يضوع
وتحسب أن النرجس الغض أعين
من الطل في أجفانهن دموع
كأن نسيم الصبح أذهب وامق
له بأفانين الاراك ولوع
وبين غدير الماء والروض هضبة
يلاحظ منها الأفق وهو وسيع
وفي الجانب الغربي من سرواتها
اشم يكل الطرف منه رفيع

وفيه غياض أن ولجت بها ولم
يدلك دار بالطريق تضيع
وللناس في لبنان عزم وفطنة
ومشي لادراك الرقي سريع
بنوا للمعالي كل صرح ممرد
وان بناء المقدمين منيع
وكم في قرى لبنان من فتية زهوا
ومن فتيات حسنهن بديع
يسرن زرافات إلى مسرح الهوى
كما سار للمرعى الخصيب قطيع
ويرمين بالألحاظ من يبتدرنه
وإن الذي يرمينه لصريع

* * *

لقد صدحت تشكو بليل حمامة
على فنن من ذي الاراك سجوع
تنوح على إلفٍ ترامت به النوى
وفي القلب من ذاك النواح صدوع
تنوح على ما ضيعتْ من سعادة
وقد مرّ من ليل الشقاء هزيع
فقلت لها كفي حمامة واهدئي
وان كان أدنى ما عراك يروع
دعتني من لبنان «لبنى» لخفرها
وإني للبنى ما حييت مطيع

فقلت لها لبيك لبيك إنني
لأمر له تدعينني لسميع
ولكن دون الخفر لو أستطيعه
جموعاً ومن خلف الجموع جموع

ومنها

لئن أخذت شمس السعادة تختفي
فللشمس من بعد الغروب طلوع
وللأرض من بعد الخراب عمارة
وللراحلين المبعدين رجوع
ذكرت زماناً فيه لبنان جنة
وشمل بني لبنان فيه جميع

استنهاض

لهف نفسي على خلال لقومي | أفلتْ بعد نشرها الأنوارا
لست أدري أتلك بيض سجايا | أم نجوم عن مقلتي تتوارى
إن يكن أهلها الكرام تولوا | فلقد خلّفوا لنا آثارا
خير قوم تبوأوا خير أرض | لا يذم النزيل فيهم جوارا
سل عن القوم دارسات طلول | تركوها تخبّر الأخبارا
ترك الدهر والحوادث منها | «عبرا للعيون واستعبارا»

ومنها

إن من كان ذا حجى ونشاط | طلب الفوز يمتطي الأخطارا
مشيه للأمام غير مبال | أسهولاً يجوب أم أوعارا

والذي كان عاجز الرأي فدماً فهو إن خاب عاتب الأقدارا
دجلـةُ إن درى بنو دجلةٍ أن يستفيدوا منها تفيض نضارا

ومنها

إن أعمالكم لعمريَ ساءت يعرباً في ضريحه ونزارا
أيها الشعب طال يومك أيقظ للمساعي فالليل صار نهارا

ومنها

أنا أبْدي للشعب خالص نصحي وعلى الشعب بعد أن يختارا
أيها الناس إنما الناس في الغرب قد جنوا من رقيهم أثمارا
واستفادوا من الطبيعة حتى استخدموا كهرباءها والبخارا
ثم أنتم من البعيد إليهم أيها الناس تنظرون حيارى

كلمة في الشعر

لا يبعث الشعر أفراحا ولا ألما
ما لم يكن عن شعور المرء قد نظما
ومن معايب في ألفاظه سلما
لم يقرض الشعر يوماً في حقيقته
إلا الالى نظموه مثلما شعروا
الناس تذعن للألفاظ تسمعها
والأبله الغرّ للإذعان أسرعها
موكل بفيافي الظن يذرعها
أما يقيني فآت عن مشاهدة
وفي الشهادة علم دونه الخبر

الشعب يدرك أن الشعر يرفعه

الشعب يؤمن أن الشعر ينفعه

وأنه في شتات الأمر يجمعه

الشعر يفقه أن الشعر فيه هدى

وأنه سبب للمجد مقتدر

الشعر للروح مثل القوت للبدن

وأنه زينة الأقوام والمدن

والدافع الأكبر النهّاض بالوطن

نالت من الشعر ما عزّت به أمم

غير الذي هي منه اليوم تنتظر

هي الحقيقة

هي الحقيقة أرضاها وإن غضبوا
وأدعيها وإن صاحوا وإن جلبوا

أقولها غير هيّاب وإن حنقوا
وإن أهانوا وإن سبّوا وإن ثلبوا

إن يقتلوني فكم من شاعر قتلوا
أو ينكبوني فكم من عالم نكبوا

ولست أول من أبدى نصيحته
لقومه فأتاه منهم العطب

لهفي على أمة ما زلت أرشدها
إلى سبيل هداها وهي تجتنب

نصحت للقوم في شعري وفي خطبي
فما أفادهمُ شعري ولا الخطب
طلبت أصلاحهم في كل ما كتبتْ
لهم بناني ولمّا ينجح الطلب
جاءوا إليّ غضاباً يسرعون ضحى
فما رأيتهمُ إلا قد اقتربوا
هذا يسير على مهل ويشتمني
وذاك يحبو وذا يعدو وذا يثب
يخاصمون صديقاً لا يخاصمهم
والجهل منهم إذا استنطقته السبب

المرأة والرجل

لقد أضاعت عنده — من الحياة حقها
فهل تزوجت به — أم ملكته رقها
يسومها الخسف فإن — تذمرت طلقها
ذلك ما أخشنه — وتلك ما أرقّها
وأنها الروح التي — بعسفه أزهقها
يجبرها أن تأتيَ — الكذب متى أنطقها
إن صدقت كذبها — أو كذبت صدقها

في العراق مقامي

لما تنغص في العراق مقامي — وليت مني الوجه شطر الشام
بغداد ليس اليوم دار سلامة — كلا ولا هي منزل لوئام

أما السعادة لي بها وقد انقضت ... فكأنها حلم من الأحلام
الناس فيها لي على قرض لهم ... حرّ القريض مناوئ ومحامِ
شاهدت قوماً يخطبون مودتي ... ورأيت قوماً يطلبون خصامي
قلت الهمام سيبتني مجداً بها ... فإذا الهمام هناك غير همام
قلت الحمام إذا ألمّ يريحني ... وقد انتظرت فما ألمّ حمامي
الحق فيها للتعاسة ضائع ... والصدق معدود من الآثام
قد كنت أخشى السيل عند ممره ... فأتيت ملتجئاً إلى الآكام
أرجو صباحاً يستبين لليلتي ... فأرى بعينيّ النور بعد ظلام
ما إن وجدت على التماس واحداً ... في القوم قد أشكو له آلامي
إلا شباباً ناهضين إلى العلى ... يتطلبون المجد غير نيام
وأرى مخايل في الصغار جميلة ... فكأنها الأزهار في الأكمام
لك يا عراق فلا تكن مستيئساً ... بعد المنى مستقبل الأيام

* * *

قضت السياسة أن أعيش بشقوة ... في جنب دجلة شاكياً لأوامي
ولقد أرى شبح المنون بأعيني ... يمشي ورائي تارة وأمامي
ومن السعادة لي على برح النوى ... أنّي رحلت مشيّعاً بسلام
ماذا مقامك يا جميل ببقعة ... فيها الحقيقة هزأة الأوهام
إن رمت في الأمر اعتصاماً في الحجى ... فامسكْ بحبل منه غير رمام

* * *

أما دمشق فإنها عربية ... رفعت لواء السلم والاسلام
العلم فيها باسط أحكامه ... والشعب منبسط من الأحكام
قوم بأخلاق لهم موروثة ... فيهم قد امتازوا وبالأفهام

قوم لهم بالعلم في تاريخهم والمجد أعلى رتبة ومقام

****

سافرت من بغداد في سيارة نفثت لظى وتحركت بضرام

حتى وصلت إلى دمشق وإنها بلد كريم حافل بكرام

سفري إليها كله قد تمّ في يوم وآخر لم يكن بتمام

تالله تلك مسافة شعَّت على من كان يمشيها على الأقدام

النار قرّبت البعيد فجبْته نهباً وبين البلدتين موامي

****

حسبي دمشق فإنها بلد الرضى والحب للغرباء والاكرام

فلقد رأيت حفاوة من أهلها عجزت لهم عن شكرها أقلامي

الشعر أهديه إلى أبنائها هو كلّ ما عندي من الأنغام

الشعر نظَّمه شعوري بالأسى والشعر ذكرى صبوتي وغرامي

الشعر صوت الروح يشكو بثه وأنين مجروح من الآلام

يومي وليلي

حلمت بأن الدهر لي يتبسّم
ورب شقي بالسعادة يحلمُ

فلما انقضى ليلي وعدت ليقظتي
رأيت نهاري عابساً يتجهم

يغم فؤادي اليوم ما فيه سلوة
ويقبض نفسي الليل ما فيه أنجم

كأن نهاري صنو ليل يجنني
وليلي قبر ضيّق الجوف مظلم

فسيان ليلي والنهار كلاهما
عليه ظلام من همومي مخيِّم
فليليَ حتى يأتيَ اليوم أليلٌ
ويوميَ حتى يأتي الليل ايَوم
وللحر آلام كثار وإنما
على قدر الاحساس يأتي التألم

* * *

لقد عاب أقوام عليَّ تبرمي
وأي امرئ يشقى ولا يتبرم
وليس على ضيم يقيم سوى الذي
إذا ناله ضيم فلا يتألم
ويغسل أدران السياسة كلها
من الأرض كل الأرض شيء هو
الدم
عظيم من استولى على الناس كلهم
ولكن من استغنى عن الناس أعظم
هنالك مغرور يظن بأنه
سيبقى بما في حوزه يتنعَّم
ويعتز بالصرح الذي شرفاته
حوتْه كأن الصرح لا يتهدم

هواجس ثكلى

حملته بين أحشائي بلا برَم | أغذوه فيها إلى وضعي له بدمي
وكان إما نهاري جاء من فكَري | وكان إما بليلي نمتُ من حلمي
وضعته بعد آلامي مؤمِّلة | وفي المؤمل تخفيف من الألم
وبعد وضعي له ساقيت نبعته | حولين بالبر من ثديي بلا سأم
وطالما قمت في ليلي أراقبه | وطالما نام في حضني ولم أنم
وكنت أنظر ساعات إليه فلا | أرى هنالك إلا وجه مبتسم
وشبّ ينمو كخوط البان مزدهراً | حتى تناسق من فرع إلى قدم
وفاق كلّ قرين في ثقافته | فكان أشهر من نار على علم
حتى إذا قلت إن الدهر من مقة | مسالم لي وأن السعد ملتزمي
أصابني في وحيدي غير مكترث | لما بقلبيَ من حب ومن ضَرم
فرام بي حين جاء الموت يخطفه | تشبثاً ثم لما اقتيد لم يُرم
أجل تحفّز يبغي الموت غيلته | فنال منه كذئب القرة النهم
سطا عليه بجنْح الليل مختطفاً | واغتاله قبل وجه الصبح من أمم

هتاف العراق

هتف العراق مرحِّباً | بأئمة الأدب الصميم
بالرافعي علم الهدى | في جو جامعة العلوم
بالعبقرية، بالهدى، | بممثلي مصر الرؤوم
بالنور يهدي المشرقين إلى الصراط المستقيم
مصر تبث كواكباً | أكبرْ بمصرٍ من سديم
ما مصر إلا مصدر الأنوار حتى في القديم

* * *

إن العراق شقيق مصر على نزوح في التخوم
فيبثها آلامه بث الكليم إلى الكليم
في الشرق أشجى مشهد عطف الهضيم على الهضيم
ربُّ السماء وقاهما من كل شيطان رجيم
النيل زار الرافدين يريهما عطف الحميم
أكرم بوفد كلهم طاو على قلب سليم
جمعتهم الأيام في بغداد كالعقد النظيم
بلقائهم فرَّجت ما في غور نفسي من هموم
إني على كبري أخف إلى اللقاء من النسيم

عبرة على قبر

البحر يغلي كأن البحر بركان
تثيره تحت فيض الماء نيران
والليل داج سوى مصباح هادية
له على ظلمات الليل سلطان
تمزق البحر من هوجاء عاصفة
كقلب ثكلى لها في الليل أرنان
وراعت العين أمواج قد اصطخبت
كأنهن عفاريت وجنّان
في شكل مرتفع منها ومنخفض
كأنما هي كثبان ووهدان
وكان في الساحل الدأماء منتصباً
شخص تبيّن في عينيه أشجان

يرنو ملياً إلى فلك تقاذفه
في اللج أمواجه والفلك هيمان
وبعد ما حالت الأمواج بينهما
كأنما تلكم الأمواج جدران
سمعته قائلاً ويلي ومديداً
كما يشير إلى الأخطار لهفان
قد مزقته سيوف الموج مرهفة
حتى هوى فطواه اللج يختان
وكان قبل تواريه يصارعه
ثم اختفى وذويه ثم ما بانوا
الفلْك يحوي عزيزاً لي فوا حزني
إن بتّ حبل رجائي فيه فقدان
لا ينبغي أن يكون البحر قاتله
إن كان للبحر ذي الأمواج وجدان
إن كان ما كنت منه قبلُ في وجل
فسوف تنهش مني القلبَ أحزان

الفجيعة

فقدت مصر فهي شكر المآقي كوكباً في سمائها ذا ائتلاق
كوكباً كان يرسل الشعر نوراً ثم يرمي به على الآفاق
خرّ من جوّه الرفيع صريعاً لا السنى يحميه ولا الشعر واق
أيها الكوكب إنطفأت بليلٍ بغتة بعد ذلك الإشراق

أيـهـا الـلـيـل هـل وراءك صبـح — مـؤذن بـعـد ريْـثـه بـانـفـلاق

* * *

فجعت مصر بابنها البر شوقي — فـهـي ثـكـلـى كـثـيـرة الـتـشـهـاق
صبّ يشوي على العراق شواظاً — رزء مصر ومصر أخت العراق
كـان روض وكـان زهـر وصـدّا — ح فـمـا مـنـهـا شـيء بـاقٍ
أيـهـا الـروض إنـك الـيـوم أورا — ق تـهـاوى سـفـعـاً عـلـى أوراق
يوم صاح النعيُّ قلت له تبّاً — فـمـا هـذا مـنـك غـيـر اخـتـلاق
ثـمّ لـم أدلّ أطـرقـت حـتـى — ملّ شمس النهار من إطراقي
فـلـقـد كـنـا شـاعـريـن عـلـى مـا — بـيـنـنـا مـن تـفـاوت الأذواق

مصرع شوقي

١

يا مصر فيك الشعر مات أميره — وانـقـض يـصـرخ تـاجـه وسـريـره
في الصدر منه لاعج صعب علي — غـيـر الـدمـوع ذريـفـة تـصـويـره
لا يستخف بما يعالج من أسى — إلا الذي قد مات منه ضميره
يا مصر حزنك سوف يبقى لاذعاً — حتى يجيء إليك منك نظيره
قد كنت يا شوقي لمصر كوكباً — يـهـدي بـنـيـهـا لـلـسـلامـة نـوره
وإذا تباطأ عن طِلاب حقوقه — شعب فإنك أنت كنت تثيره
وإذا تكبّل لم يعزّ عليك في — وقت بمالك من يد تحريره
ما لي أراك قد انطفأت لغير ما — سـبـب بـلـيـل مـطـبـق ديـجـوره
وإذا أراد الـلـه أمـراً لـم يـكـن — في وسع عبد عاجز تأخيره
والمرء حين يروم نقض قضائه — لا عـقـلـه كـافٍ ولا تـدبـيـره

٢

للناس من شعر تركت جمال   تشدو به من بعدك الأجيال

سيقام تمثال لشخصك رائع   فيكون شعراً ذلك التمثال

بالأمس كنت لعارفيك حقيقة   ملموسة واليوم أنت خيال

ولأنت مبْق في زوالك عندهم   لك ذكريات ما لهن زوال

لو كانت الأوقات ذات ضمائر   لبكى الغدوُّ عليك والآصال

بقيت من الآداب أوشال لنا   فوددت أن لا تذهب الأوشال

إن الحياة لمشكلاتٌ كلها   أما المنون فوحده الحلال

بعد المنية وهي غير بعيدة   لا مشكل يبقى ولا إشكال

لا ويل للميت الذي انفسحت له   من كل قلب روضة محلال

الويل كل الويل للحي الذي   في نفسه قد ماتت الآمال

مع نفسي

هل لمن يرقدون في الألحاد   يقظة بعد كل هذا الرقاد

ما لهم لازمين للترب لا يحْفزهم للحراك صوت منادي

ألهم عودة كما يعد الدين أم القوم ما لهم من معاد

وكأن الموتى على القرب منا   في قصيّ عنا من الأبعاد

وافترقنا وعلنا من جديد   نلتقي في غياهب الآباد

لا تفيد الأكفان بيضاً عليهم   ولعل البياض مثل السواد

سيَّرتك الحياة وهي لعمري   ليس إلا تطوراً في الجماد

إنها في الصميم منه وان لم   يك فيه ظهورها ذا اطّراد

إنها سيرة التقدم فيه   إنها فيه قوة للجهاد

إنهـا الـكـهـربـاء تـبـنـي الـذي يـبـنـى عـلـى وحـدة مـن الأضـداد

إنها تأتي الأرض محمولة فوق شعاع الكوكب الوقاد

إنها لا تموت بل تختفي الجمر في كومة لها من رماد

ما على أنها خبتْ بدليل حاسم كون رقْدها غير باد

تخذ النوع في الورى للتعالي سلّماً من جماجم الأفراد

ما حياة الأبناء في الأرض إلا من حياة الآباء والأجداد

فلقد شاءت الحياة قديماً أن يعيش الآباء في الأولاد

الذكرى الألفية

١

أحمدٌ كان مثل بحر رحيب موجه فوق لجه كالكثيب

شغل الناس منذ كان بشعْر قاله معجزاً لكل أديب

إن يكن أحمد تنبَّأ في القوم فما إن عليه من تثريب

فلقد كان الشعر يوحى إليه سوراً للاصلاح والتهذيب

إنما معجزاته في معانيه وفي لفظه وفي الاسلوب

كم له من معنى تراه قريبا وهو في نفس الأمر غير قريب

ومن اللفظ ما يكاد من الرقة يجري إلى صميم القلوب

٢

أحمد كان شاعراً وحكيما وبأسرار النفس كان عليما

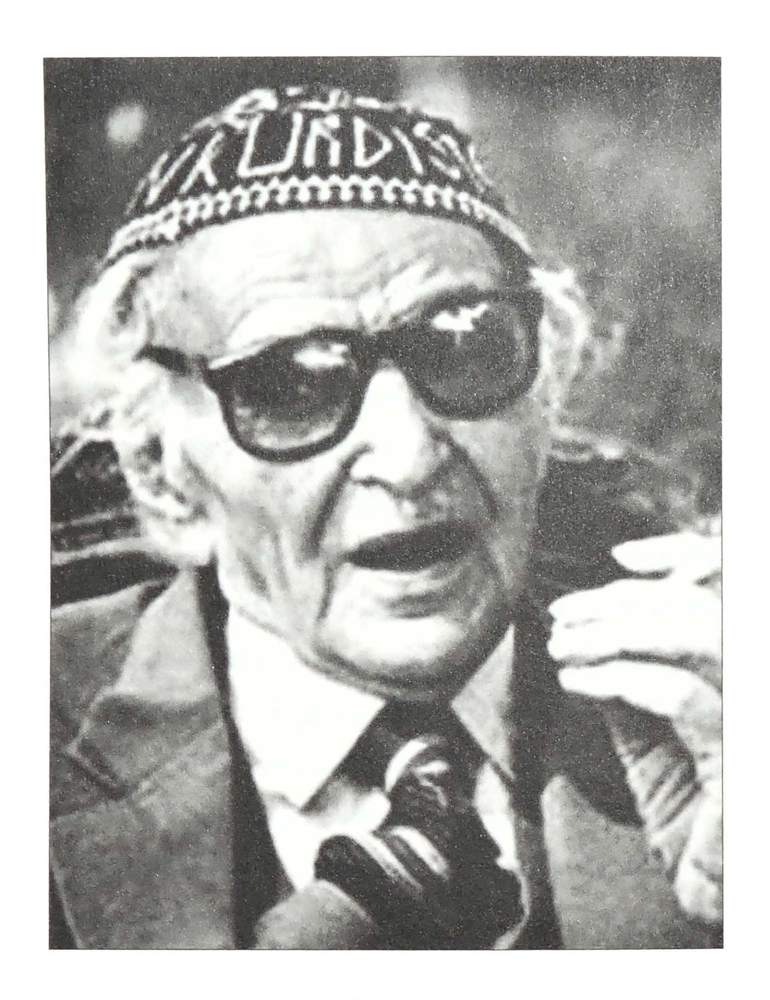
أحمد لا يفنى وإن كان في قبر عفته الأيام عظماً رميما

أحمد كان في الزعامة للشعر وفي العلم بالحياة عظيما

قد أراد الحساد للحر هضماً فأبى الحر أن يكون هضيما
جعل الشعر كالنهار مضيئاً بعد أن كان الشعر ليلاً بهيما
وكأن الديوان في جمعه ما قاله كان للنجوم سديما
قتلوا الشاعر العظيم اغتيالاً وفشا قتله فكان أليما

أسمع إجهاشاً

أنا من جوف الأرض أسمع إجها شاً فمن ذا الباكي بجوف التراب
وأنيناً يجيء تلو أنين بعد جنح لليل داجي الأهاب
يعتلي في شجو قليلاً قليلاً ثم ينحط مثل همس الرباب
ممّ يبكي الدفين في القبر هذا أمن الوجد أم من الأوصاب
إن هذا البكاء لو صح ظني هو آت من ميت مرتاب
مضه ضرباً منكر ونكير بعد أن بان عجزه في الجواب
كلما سرت في المقابر ليلاً نابني خوف لم يكن في الحساب



محمد مهدي الجواهري

محمد مهدي الجواهري

١٨٩٧ - ١٩٩٧

عاش الشاعر محمد مهدي الجواهري قرناً بكامله. ولد في عام ١٨٩٧ وتوفي في عام ١٩٩٧. كان يرغب بقوة في أن يمتد به العمر لكي يدخل في القرن الحادي والعشرين. فيكون بذلك قد شكل صلة وصل غير مسبوقة بين ثلاثة قرون مختلفة اختلافاً كاملاً في شروطها الواحد منها عن الآخر. ويكون بذلك قد أكد، بشخصه وبعمره المديد وبسيرته الشعرية والسياسية، طموحاً عريقاً عنده في أن يرى عراقه قد تحرر من حكم الطغيان، وسلك طريقه إلى الحرية والديمقراطية والتقدم. واني لأتصوره، فيما لو كان امتد به العمر إلى اللحظة التاريخية الراهنة، فرحاً وحزيناً في آن. فرحاً بسقوط الطاغية صدام حسين، وحزيناً لأن هذا السقوط جاء على يد القوات الأجنبية، التي احتلت العراق وأدخلته فيما هو فيه من أزمة ومن صراعات طائفية وإثنية ما تزال تحول دون عودته إلى دوره المشهود في التاريخ القديم والحديث. وكان سيرى أن الطريق إلى التحرر من الاحتلال الأجنبي أيسر وأسرع من التحرر من الاستبداد، ومن الطغيان، ومن الصراع الطائفي والإثني. عاش الجواهري ثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني من بداياتها إلى الوضعية التي انتهت إليها بتنصيب الملك فيصل الأول ملكاً على البلاد. وكتب عن تلك

الثورة، ونظم فيها القصائد منذ بداياتها، ثم في الاحتفالات التي كانت تقام في ذكرى حدوثها. وكان سيرى، لو عاش إلى اللحظة الراهنة، المدى الحقيقي للتواصل الطبيعي والتجاوز في شروط مختلفة لأحداث التاريخ في مراحله المتعددة. غير انه غادر الحياة قبل ثلاثة أعوام فقط من دخول العالم في القرن الجديد. وترك لنا تراثاً كبيراً وغنياً من شعره ومن سيرته الشخصية والسياسية الكثيرة الالتباسات. وتشير سيرته بجوانبها المختلفة إلى أن عالمه هو عالم كبير وشاسع. من هنا صعوبة الكتابة عنه، وعن عالمه الواسع الشاسع المتعدد هذا. ذلك أن شعره لا ينفصل عن حياته وعن أحداث قرن بكامله، هو القرن العشرون الذي عاش فيه من أوله إلى آخره. وصار بكل المعاني شاهداً كبيراً على القرن وعلى أحداثه وعلى التحولات الكبرى في اتجاهاتها المتناقضة التي جرت فيه.

كان الجواهري، على امتداد حياته، في حالة دائمة من التمرد والثورة على ذاته وعلى الآخرين، والتمرد على المظالم حيثما وجدت. كان يخوض المعارك في كل الاتجاهات، شجاعاً في الاقتحام وشجاعاً في التراجع والانهزام إلى حدود القبول من دون حرج في «السقوط» في الموقع النقيض.

إن عالم الجواهري الكبير الشاسع هذا هو ملحمة حقيقية، ملحمة حياة الشاعر الثائر المتمرد وملحمة العصر الذي عاش فيه.

محور ما أريد قوله عن الجواهري هنا في هذه التداعيات من ذكرياتي عنه ومعه، إنما ينطلق ويتحدد من دون ادعاء، من علاقة نشأت بيني وبينه في بغداد منذ اواخر الأربعينات من القرن الماضي واستمرت من دون انقطاع طوال تلك الاعوام الخمسين. وانتهت في عام ١٩٩٧، عام وفاته. صلة الوصل الأولى في هذه العلاقة بدأت

في شهر كانون الأول من عام ١٩٤٧ من خلال البريد، عندما أرسلت إلى جريدة «الرأي العام» التي كان يصدرها الجواهري مقالاً بعنوان «لا بد من ثورة» نشره في صدر الصفحة الأولى من الجريدة. وهو مقال كتبته احتجاجاً على هزال الموقف العربي الرسمي والشعبي في مواجهة للواقع الذي كان قائماً في البلدان العربية بأنظمتها الفاسدة وبسياسات حكوماتها المعادية للحرية والممالئة للاستعمار، ونقداً لأحزاب المعارضة ولسياساتها ولخططها ولمشاريعها العاجزة عن الاضطلاع بمهمة التغيير.

لقد فوجئت، منذ الأيام الأولى لوصولي إلى مدينة الكاظمية حيث كان يقيم حسين مروة ابن عم والدي الشيخ أحمد الذي أرسلني لمتابعة دراستي في مدارس بغداد، فوجئت بذلك القدر من الاهتمام بالجواهري الشاعر في كل الأوساط السياسية والشعبية. كانت قصائده تتردد في كل مكان محفوظة بأكملها عن ظهر قلب برغم صعوبتها وبلاغتها وبرغم طولها. وهي ظاهرة تؤكد في ما يشبه القطع بأن الشعر العظيم، أسوة بالنماذج العظيمة من فروع و أجناس الأدب والفن، لا يحتاج إلى وسائط للدخول إلى وعي الجمهور ووجدانه. هكذا أصبح الجواهري، بالنسبة إليَّ، مركز اهتمامي الأول كشاعر من الدرجة الأولى. ذلك أنني كنت منذ سن مبكرة مولعاً بالشعر العربي وقارئاً مثابراً لرواده الكبار في العصور القديمة وفي العصر الحديث. كما كنت مهموماً بالثقافة بوجه عام. ثم أصبح الجواهري مركز اهتمامي كثائر، لأن الثورة التي كنت أحملها معي من لبنان ضد الأنظمة العربية الفاسدة وضد حكوماتها كان شعر الجواهري يتناغم معها ويدغدغ مشاعري وأحلامي ومشاعر وأحلام جيلي فيها.

ما أن توطدت العلاقة وكثرت اللقاءات بيني وبين الجواهري،

إلى الحد الذي صارت جزءاً من غذائي الروحي اليومي، حتى اندلعت الثورة الشعبية في العراق ضد معاهدة «بورتسموث» وضد رئيس الوزراء صالح جبر الذي كان قد وقع مع الحكومة البريطانية المعاهدة التي اتخذت اسم المدينة التي وقعت فيها. اذ اعتبرت تلك المعاهدة من قبل القوى الوطنية العراقية من مختلف التيارات تأكيداً للهيمنة البريطانية على العراق وعلى مصائره وانتهاكاً لسيادته ولاستقلاله. بدأت الثورة في أواخر شهر كانون الثاني من عام ١٩٤٨. وأطلق العراقيون على تلك الثورة الشعبية اسم «الوثبة». كان الجواهري في ذلك الحين نائباً عن مدينة كربلاء في البرلمان. ورغم أن شكوكاً كثيرة كانت تدور حول الشروط التي رافقت عملية وصوله إلى ذلك الموقع فإنه لم يفقد صلته بالناس ولا فقد الناس ثقتهم به. واستمر يدعو، من موقعه ذاك، الجماهير إلى الثورة. لذلك فإن «الوثبة» كانت، بالنسبة اليه، تحقيقاً لأمل وطموح صارخين عنده، وتلبية لدعوة كرس الكثير من قصائده لإطلاقها، هي الدعوة إلى الثورة والتمرد. وكان من أوائل النواب الذين أعلنوا استقالتهم من البرلمان احتجاجاً على المعاهدة المشار إليها. وهكذا وجدتني منذ اللحظة الأولى وجهاً لوجه أمام تناقضات شخصية الجواهري في السلوك وفي المواقف العامة والخاصة التي كان ميدان تجليها شعره بالذات ومجمل تفاصيل حياته. وتحضرني في هذا السياق حادثة صغيرة. إذ فاجأنا حسين مروة (أبو نزار) ذات يوم، أم نزار ونزار وأنا، غداة بدء علاقتي المباشرة مع الجواهري برواية خبر صغير عن موقف لا يتصف بالصدقية اتخذه الجواهري إزاء صديقه التاريخي حسين مروة. أزعجني ذلك كثيراً فسألت أبا نزار بدهشة ساذجة: كيف تفسر ذلك؟ وكيف تريدنا أن نفهم ذلك التصرف وأن نتعامل

معه؟ وأرفقت السؤالين بقولي : لكن الجواهري برغم ذلك يظل شاعراً كبيراً. فأجاب أبو نزار بشيء من الحزن وبكثير من الحزم : خذوا هذا الذي رويته لكم في الاعتبار كوجه من وجوه التناقض في شخصية الرجل، ولا تتوقفوا عنده في تعاملكم مع الجواهري كشاعر كبير. وأردف قائلاً بأن الأساس في الموقف من الجواهري إنما ينطلق من كونه شاعراً كبيراً. أما التفاصيل في حياته وفي سلوكه الشخصي والسياسي وفي تناقضاته وتقلباته ومزاجيته ونرجسيته فينبغي وضعها في المكان الذي يعود لها، من دون زيادة ولا نقصان. وأضاف بأنه يجب ألا يغيب عن ذهننا أن الجواهري الشاعر المتمرد الثائر هو في الوقت عينه حمّال أخطاء وسقطات، وأن كل الأخطاء والسقطات هي عند الجواهري مما يمكن تجاوزه بوعي من دون ارتكاب فعل التعسف والاعتباط، أو الممالأة والتملق. وقد كان ذلك التنبيه الذي أطلقه حسين مروة محصنا لي، فيما بعد، ضد التعسف في الموقف من الجواهري الشاعر ومن سائر الشعراء. وفي الواقع فقد كنت مقتنعاً، من خلال معرفتي بالجواهري ومن خلال قراءتي لكل ما تضمنته دواوينه من قصائده المتعددة المواضيع والمناسبات، بأن هذا الشاعر الكبير هو شاعر كبير في الدرجة الأولى، وأن شعره هو سجل لحقبة طويلة من تاريخ العراق ومن تاريخ العالم العربي امتدت إلى ثلاثة أرباع القرن العشرين. وشعره في مراحله المختلفة هو في الوقت عينه سجل لحياة شخصية متمردة فذة في كل انفعالاتها وفي كل تناقضاتها، هي بالتحديد شخصية الجواهري الشاعر.

وإني لأذكر من قصائد تلك الفترة المبكرة من تعرفي على الجواهري وعلى شعره وعلى الدور الذي كان يمارسه شعره في

الأوساط الشعبية وفي الأوساط السياسية، بعضاً مما كان يتردد على الألسنة في كل المحافل. **القصيدة الأولى** هي قصيدة «طرطراً». وهي ـ كما يقول الجواهري ـ من النمط الساخر ومن الوزن المعروف في القصيدة «الدبدبية» المشهورة التي قيلت في العهد العباسي، ومطلعها: «أي دبدبا تدبدبي أنا علي المغربي». وقصيدة طرطرا هي، كما يقول الجواهري، من وحي الظروف التي نشأت خلال تطبيق مرسوم صيانة الأمن العام وسلامة الدولة رقم ٥٦ من عام ١٩٤١. وقد طبق ذلك المرسوم على جريدة «الرأي العام» التي كان يصدرها الجواهري في اليوم الأول من شهر آب من عام ١٩٤٥. إذ عطلت بموجبه الجريدة قرابة شهرين.

يقول الجواهري في هذه القصيدة:

أي طرطرا تطرطري   تقدمي تأخري
تشيعي تسنني   تهوَّدي تنصَّري
تكردي تعربي   تهاتري بالعنصر
تقلَّي تقلُّب الدهر بشتى الغير
تصرّفي كما تشائين ولا تعتذري
ولمن للناس وهم حثالة في سقر
ان أخا طرطر من كل المقاييس بري!

القصيدة الثانية هي قصيدة «الى المناضلين»، أنشدها الشاعر، كما يشير إلى ذلك في ديوانه، في المؤتمر الأول لحزب «الاتحاد الوطني» الذي كان هو أحد مؤسسيه وكان عضواً في لجنته المركزية. وقد نشرت القصيدة في جريدة «الرأي العام » في ٣٠ أيار من عام ١٩٤٦.

يقول في هذه القصيدة:

أطلُّوا كما اتقد الكوكب ينوِّر ما خبط الغيهب
وسيروا وإن بعدت غاية وشقوا الطريق ولا تتعبوا
ومدوا سواعدكم إنها معين من الجهد لا ينضب

القصيدة الثالثة هي التي تحمل اسم «المقصورة». وهي من أطول قصائد الجواهري وأكثرها تعبيراً عن مشاعره وعن مواقفه. وقد نظمها الشاعر في اواسط عام ١٩٤٧ عشية انفجار الانتفاضة ضد معاهدة «بورتسموث». أختار منها هنا بعض الأبيات المتفرقة:

متى ترعوي أمة بالعراق تساق إلى حتفها بالعصا
تذري على الغيم ذرو الهشيم ويعرقها الذل عرق اللحا[١]
يقولون إن يداً في الغيوب تدير على الارض حكم السما
ولما يزل مثلَ سائر على الناس يجري بأيدي سبا
وتحريق «لوط» بذنب أتى وأخذ «ثمود» بسقب رغا[٢]
فما بال كف القضاء تدور على بلد ظل حتى اختزى

هذه القصائد الثلاث، التي كتبها الجواهري في ظروف تلك المرحلة الحبلى بالأحداث هي التي عرفتني من دون كبير جهد إلى الجواهري الشاعر والثائر، وأدخلتني منذ بدء تعرفي إليه في عالمه الكبير الشاسع.

لقد شكلت «الوثبة» في حياة الجوهري وفي حياة العراق حدثاً كبيراً تؤرخ به مرحلة عاصفة من نضالات الشعب العراقي ومن آلامه

---

(١) عرق معناها أزال، واللحا معناها قشر الشجرة.
(٢) السقب ولد الناقة، والرغاء صوت البعير.

وعذاباته، ومن مرارات الهزائم والنكسات التي واجهته. وقد سجلت في تلك الوثبة بطولات كثيرة من النوع الذي قدم فيه المناضلون العراقيون للعالم نماذج فذة نادرة. وسالت دماء كثيرة. وسقط شهداء عديدون. وأصيب الجواهري بفقد شقيقه جعفر، الذي استشهد في معركة الجسر الشهيرة التي وقعت في اليوم الأول للمظاهرات. كان جرح الجواهري بليغاً، مثلما كان عليه جرح الشعب العراقي. ورغم ان المظاهرات الأولى كانت كافية، كما يقول الجواهري، لدفع الوصي على عرش العراق الأمير عبد الإله، إلى حل المجلس النيابي الذي كان الجواهري عضواً فيه واستقال منه قبل حله، وإقالة الحكومة التي وقعت المعاهدة التي شكل توقيتها شرارة الثورة، فإن تلك المظاهرات استمرت بعنف أكبر، واستمر سيل الدماء فيها غزيراً. ويتساءل الجواهري في الجزء الثاني من كتابه «ذكرياتي»عن السبب الذي حال دون الاستفادة من ذلك الموقف، حقناً للدماء وسعياً للحصول على مكاسب ديمقراطية في اللحظة التاريخية الملائمة. ولست أدري إذا كان تساؤل الجواهري ذاك يعود إلى ذلك التاريخ بالذات، كما يقول هو، أم أنه جاء وليد اللحظة التي كان يكتب فيها ذكرياته عن تلك المرحلة العاصفة من تاريخ العراق. إلا أن مصدر التساؤل عند الجواهري هو ما اتصفت به الأحداث التي أعقبت الوثبة في مرحلتيها : **المرحلة الأولى** التي ساد فيها نوع من الحرية لم يكن قد شهد العراق مثيلا له في تاريخه، في ظل الحكومة التي كان رئيسها رجل الدين محمد الصدر الخالية من الرموز المعروفة بولائها للبلاط الملكي من أمثال نوري السيد وفاضل الجمالي وسواهما. وقد كانت تلك المرحلة أقرب إلى الفوضى منها إلى الحرية. فهي كانت مرحلة مليئة بالصراعات بين التيار الشيوعي

والتيار القومي والتيار الديمقراطي الليبرالي، الصراعات التي قادت الانتفاضة إلى الفشل والانتكاس بعد ستة أشهر من الفوضى التي عمت البلاد وشلت الحياة فيها. أما **المرحلة الثانية** فهي التي ساد فيها العنف من جديد، على أنقاض المرحلة السابقة التي سادت فيها الحرية والفوضى والصراعات. واتخذ ذلك العنف أكثر أشكاله بشاعة. فقد غصت السجون بالمناضلين من قادة الأحزاب ومن المثقفين. وعلقت المشانق لقادة الحزب الشيوعي، الأمين العام فهد ورفاقه في القيادة حسين محمد الشبيبي وزكي بسيم ويهودا صديق.

لم تستطع الحركة الوطنية بسبب تعدد وتناقض اتجاهاتها، وربما بفعل الأوهام التي راودت الكثيرين من قياداتها بحلم الوصول إلى السلطة أو إلى جزء منها، أن تستفيد من الفرصة التاريخية النادرة ولو بالحدود الدنيا التي كانت قد ولدتها الوثبة. وهذا ما يشير إليه الجواهري في ذكرياته. إذ لم تكد تمضي بضعة أشهر على هذه الانتفاضة حتى استعاد البلاط الملكي وأنصاره المبادرة واستحضر كل إمكاناته. وهي كانت كثيرة وكبيرة. وشكل الوصي على العرش عبد الإله حكومة جديدة من نوع ما كان سائداً قبل الوثبة. وبدأ العد العكسي. ولست هنا في معرض التأريخ لتلك المرحلة من حياة العراق والتأريخ لحركته الوطنية. لكنني أردت فقط ان أسجل بعض ذكريات ذات صلة بمرحلة من حياة الجواهري، كنت فيها شاهداً ملء السمع والبصر والوجدان.

في المأتم الكبير الذي أقيم في جامع «الحيدر خانه» لجعفر الجواهري شقيق الشاعر بدأت صفحة جديدة من حياة الجواهري ومرحلة جديدة من شعره. كنت إلى جانب الجواهري في ذلك الاحتفال برفقة حسين مروة ومحمد شرارة وأصدقاء آخرين. كنا

نعرف أنه سيلقي قصيدة مدوية. وكان العراقيون ينتظرون ذلك منه. لذلك جاءوا إلى منطقة «الحيدر خانه» في شكل تجمع هائل العدد. كنا داخل القبو الذي منه أطل الجواهري على الجموع المحتشدة منشداً رائعته المعروفة في رثاء شقيقة. وما يزال صوت الشاعر الرخيم يرن في مسمعي كما لو أنه ماثل أمامي الآن بقامته الفارعة:

أتعلم أم أنت لا تعلمُ بأن جراح الضحايا فمُ
فم ليس كالمدعي قولة وليس كآخر يسترحم
يصيح على المدقعين الجياع أريقوا دماءكمُ تطعموا
ويهتف بالنفر المهطعين أهينوا لئامكم تكرموا

إلا أن القصيدة كانت البداية في مرحلة جديدة من حياة وشعر الجواهري. لكنها لم تكن الشكل الوحيد الذي كان الجواهري يعبر بواسطته عن أفكاره وعن مشاعره وعن الثورة المتفجرة في وجدانه. فقد كانت افتتاحياته في جريدة «الرأي العام» قطعاً فنية حملها الشاعر كل مشاعره، وبث فيها دعوته إلى الثورة والى العقل في آن. كان الجواهري مهموماً بالمستقبل مثل العديد من مثقفي تلك الحقبة من تاريخ العراق. كان قلقاً من الحاضر في ما يشبه اليأس من إمكانية الإصلاح، مترقباً حدوث أمر خطير كان جزء منه يعد في الخفاء. لذلك فهو، حين يشير في كتاب «ذكرياتي» الى أنه رفض عرضاً قدمه له الوصي على العرش يحفظ له مكانه في المجلس النيابي كنائب عن كربلاء عندما ذهب ليشكره على مؤاساته له بشقيقه جعفر، إنما كان يعبر عن تلك الحالة التي كان يراها بعين الشاعر الحساسة الناقدة الساهرة على الحاضر والمستقبل. كان الجواهري يريد للثورة أن تستمر في شكل مختلف عن السابق وبقيادة مختلفة. لكنه لم يكن في

الموقع الذي يؤهله للإسهام في صياغة تلك الخطة، وفي اختيار القيادة القادرة على تحمل المسؤوليات التاريخية فيها. ورغم أنه كان قريباً من الحزب الشيوعي ومن معظم قيادييه، لا سيما «فهد» قبل أن يدخل السجن، وكان متفقاً معه في أمور أساسية، إلا أنه لم يكن يرى في الحزب الشيوعي منفرداً ما يمكنه القيام بتلك المهمة. ولم يكن يرى في القوى الأخرى المناهضة والمنافسة للحزب الشيوعي ولا من القوى الديمقراطية الأخرى اية قدرة على القيام بتلك المهمة. لكنه بانتظار ولادة تلك القوى المؤهلة لتلك المهمة، ظل صديقاً للحزب الشيوعي. ولعل واحدة من أكثر قصائده تأكيدا لعلاقته بالحزب الشيوعي بخصوصيتها هي تلك التي يحيي فيها عيد الحزب الشيوعي العراقي بعنوان: «سلاماً عيد النضال» التي يقول فيها:

حماة النضال وجيل يغور — على محور من شموس يدور

يسير ويعرف أين المصير — له ألف نجم بنجم يغور

سيملي إرادته إذ يثور — وتجتث يوم يثور الجذور

في تلك الفترة بالذات (١٩٤٨) توسط لي حسين مروة للعمل في جريدة «الرأي العام» كصحافي. عملت في البدء كمندوب برلماني قبل أن يجري حل البرلمان. ثم عملت كمصحح في الجريدة بعد ذلك. لكنني توقفت عن العمل خلال الأحداث. وانتقلت إلى جريدة «الأهالي» التي كان يصدرها الحزب الوطني الديمقراطي برئاسة الشخصية الديمقراطية المرموقة كامل الجادرجي. ولم أبق في العمل فيها إلا لمدة قصيرة. ثم انصرفت بعد ذلك إلى الدراسة. وكان يرأس تحرير جريدة «الرأي العام» مسؤول شيوعي اسمه رشيد بكتاش. وكان يعمل فيها كصحافي متجول شاب اسمه صالح، فهمت من

علاقتي معه أنه قريب من الحزب الشيوعي. وقد قاسى ذلك الشاب الكثير من الاضطهاد بسبب كونه يهودياً على يد منضد المطبعة القومي الشوفيني. وكثيراً ما كنت أتدخل للدفاع عن صالح عندما كان يتعرض لاحتمال الضرب، أو حتى للضرب في بعض الأحيان من قبل ذلك الرجل. فقد ساعدني عملي في «الرأي العام» خلال تلك الفترة القصيرة على التعرف عن كثب على الجواهري الذي كان يعاملني كولد من أولاده. ومن خلال ذلك الموقع، ومن خلال علاقتي بكلّ من الجواهري وحسين مروة وبعدد من المثقفين العراقيين واللبنانيين أذكر منهم على وجه الخصوص محمد شرارة وجعفر الخليلي وحسن الأمين ومحمد حسن الصوري وناجي جواد الساعاتي وعزيز أبو التمن، تمكنت من الدخول بعمق في نسيج الحياة العراقية السياسية والاجتماعية والثقافية. وبمقدار ما كانت تلك المعرفة تزيدني تعلقاً بالعراق وبأهله وبمثقفيه من أمثال الجواهري. كنت أزداد شعوراً بالحاجة إلى ثورة تطيح بأنظمة الحكم كلها في البلدان العربية، وتقلب أوضاع مجتمعاتنا رأساً على عقب، لعل ذلك يفتح آفاقاً جديدة تتيح لتلك الطاقات المخزونة والمهدورة في شعوبنا أن تشق الطريق إلى حرية بلداننا وتقدمها. وتأكد لي بالمشاهدة الحية، ومن خلال ما سمعته من الجواهري وحسين مروه، وما عرفته من خلال الأصدقاء الكثر، لا سيما من ضباط الإحتياط الذين شاركوا في الحرب وأجبروا على الهزيمة، كم كان حجم تلك الهزيمة في حرب أيار من عام ١٩٤٨ لـ«تحرير فلسطين» كبيراً. كانت الخيانة، في ذلك الزمن الرديء، تجري أمام عينيَّ وأمام أعين الجميع من أبناء جيلي، وكانت تراكم الغضب في داخلنا. وكانت كتابات الجواهري، وكل الكتابات التي غصّت بها صفحات جريدة «الرأي العام»، وجريدة

«الأهالي»، ومجلة «الحضارة» لصاحبها محمد حسن الصوري، وجريدة «الأحرار» لصاحبها سعد صالح، وجريدة «الشعب» لسان حزب الشعب والصحف التي كان يصدرها الحزب الشيوعي، وتلك التي كان يصدرها الديمقراطيون العراقيون المستقلون في ظل حكومة السيد محمد الصدر الانتقالية، ثم في ظل الحكومة التي حلت محلها بعد الانتكاسة، كانت جميعها تشير بوضوح إلى تلك الخيانة للقضية الوطنية والقومية وتشير إلى الخونة بأسمائهم. ولعل ذلك الحجم من الاستنكار لفعل الخيانة هو الذي سرع في الانتكاسة التي أطاحت بكلّ ما كان قد تحقق، وكل ما كان يتوهم الكثيرون أنه سيتحقق في مستقبل قريب، لجهة الإصلاح في الأوضاع السائدة ولجهة تغيير النهج ولجهة ترسيخ الديمقراطية! وكان أول ما واجهته الحكومة الجديدة التي شكلها الوصي على العرش عبد الإله، بديلاً من حكومة «الوثبة» الانتقالية، التغطية بكل الوسائل على الخيانة المرتكبة في فلسطين، وتحويل التهمة إلى الحزب الشيوعي وإلى القوى الديمقراطية الأخرى. وكان عقاب الحزب الشيوعي إعدام قادته الذين كانوا يرسفون في السجن. أما الآخرون من الديمقراطيين فقد غصت السجون بقياداتهم.

وفي الوقت الذي كان الشيوعيون يتعرضون لتلك الحملة الهوجاء القاسية، كانت تنظم حملة موازية ضد اليهود، استناداً إلى ما أشيع في حينه عن مؤامرة تجسس على العراق لصالح إسرائيل كان يقودها رجل أعمال يهودي اسمه «عدس»، أحيل إلى المحاكمة وصدر حكم بإعدامه ونفذ فيه حكم الإعدام شنقاً. وانتهت تلك الحملة المنظمة ضد اليهود بغزوة همجية اتخذت طابعاً «شعبياً» ضد أحيائهم السكنية وضد محلاتهم التجارية وضد مصالحهم الاقتصادية. ويقال إن

الحركة الصهيونية كانت تشجع بعض تلك الهجمات بهدف تسهيل هجرة اليهود إلى إسرائيل. وقد نظمت عملية تهجير اليهود بالكامل بكل كفاءاتهم وطاقاتهم إلى إسرائيل، التي كانت في مرحلة تأسيسها بحاجة ماسة إليهم وإلى أمثالهم. جرى تهجير اليهود من دون أي تمييز بين من هو صهيوني عميل لإسرائيل، وبين من هو تقدمي مرتبط بوطنه العراق. وكان بين المهجرين أدباء وشعراء وموسيقيون وعلماء. وكان عدد من أولئك ديمقراطيين ويساريين وشيوعيين معروفين. ويذكر الجواهري في كتابه «ذكرياتي» تفاصيل مذهلة حول تلك المؤامرة. ويشير إلى أن عدد اليهود الذين هجِّروا بلغ المائة وخمسين ألفاً. وفعلت الأمر نفسه في ذلك الحين معظم الحكومات العربية. وكان ذلك العمل في وعيي لتلك الفترة وفي وعيي الحالي استكمالاً لفعل الخيانة التي ارتكبها الحكام العرب في حق القضية الفلسطينية، ومدخلاً لمزيد من فعل الخيانة أو ما يشابهها على امتداد نصف قرن.

لماذا كل هذا الاسترسال في الحديث عن أوضاع العراق في تلك الفترة الحرجة من تاريخه في معرض الكتابة عن الجواهري الشاعر؟ وجوابي عن هذا التساؤل هو أن الجواهري، الذي كان في شعره وفي جريدته «الرأي العام» وفي مجمل مواقفه السياسية جزءاً من تلك الأحداث والوقائع، تستحيل الكتابة عنه بمعزل عن الإشارة إلى تلك الأحداث والوقائع.

كان عام ١٩٤٨ في مرحلتيه اللتين أشرت إليهما آنفاً مرحلة النهوض في أعقاب «الوثبة» ومرحلة الانتكاسة التي ساد فيها القمع، عاماً حافلاً بالأحداث الثقافية. إذ كثر فيه الإبداع، وازداد عدد المبدعين في مجالات الأدب والفن في أجناسهما المختلفة. وازدهر

النشاط الثقافي في المنتديات وفي دور السكن وفي المقاهي العامة. وازدهر إصدار الكتب وتعميمها. وكان الجواهري كعادته أكثر نجوم تلك النشاطات تألقاً. فهو لم يغادر، حتى في أكثر اللحظات صعوبة ودقة، أياً من انفعالاته الشعرية والوجدانية وأياً من اهتماماته في شتى مجالات النشاط الإنساني، العام منها والخاص. ظل صوته مرتفعاً ومدوياً. وظل جمهوره يكبر ويتسع من دون حدود. وكنت مرافقاً له في الكثير من تلك النشاطات مع عدد من أصدقائه وأصدقائي من المثقفين اليساريين. والجدير بالذكر أن الجواهري الشاعر الثائر المتمرد على الظلم والطغيان في كل مظاهرهما، وفي كل مكان برزا فيه، بقي، في كل الظروف، شاعر الحب والغزل وشاعر الجمال في آن. فهو فنان في حياته وفي إبداعه، وفردي وذاتي ونرجسي إلى الحدود القصوى في سلوكه العام. تميز شعره، كما تميزت مواقفه العامة والخاصة، بالجرأة ومناقضة ومعاكسة السائد من التقاليد والأحكام. أليس هو القائل في أحد نصوص شعره الحر الماجن:

نهداك والصدر ثالوثٌ أقدسه

لو كان يجمع تثليث وتوحيدُ

وتجتمع في وجدان الجواهري في اللحظة ذاتها أهواؤه الشخصية والفنية مع حالات تمرده وثورته ضد الحاكمين، وضد المظالم، وضد الخنوع وضد التردد وضد الهزائم.

ويصعب تعداد القصائد التي دون فيها وقائع وأحداث عام الوثبة (١٩٤٨) الصعب، وانفعالاته وهمومه وهواجسه وقلقه وأحلامه المتكسرة.

ففي قصيدته «يوم الشهيد»، التي نظمها بمناسبة أربعينية شقيقه

جعفر يعيد التذكير بأحداث ذلك اليوم وبالوعد الذي يبشر به دم الشهيد. يقول الجواهري في مطلع هذه القصيدة:

يوم الشهيد تحية وسلام ... بك والنضال تؤرخ الأعوام
بك والضحايا الغر يزهر شامخاً علم الحساب وتفخر الأرقام
بك يبعث الجيل المحتم بعثه ... وبك القيامة للطغاة تقام
وبك العتاة سيحشرون، وجوههم سود، وحشو أنوفهم إرغام

ويتابع في قصيدة «الشهيد قيس»، الحداء نفسه في مناجاة الشهداء. والشهيد قيس الآلوسي هو واحد من شهداء معركة الجسر التي استشهد فيها شقيق الجواهري جعفر. ويريد الجواهري في كل ما نظمه من قصائد حول الشهداء ألا يكون حزنه على استشهاد شقيقه حزن شقيق على شقيقه وحسب، بل حزن مناضل على استشهاد مناضل، وأن يكون النشيد الذي يتوجه به إلى الشهداء نشيد الحرية للشعب.

في صيف العام ١٩٤٨ يبدأ العد العكسي في الوضع السياسي، ويبدأ الجواهري توجيه النذير إلى الشعب العراقي على طريقته الساخرة مستعيداً نفس قصيدته السابقة «طرطرا». ويكتب قصيدة «يا ثمر العار» التي يقول فيها:

أي جربا تجربي تكتَّلي تحزَّبي
كإبرة البحار في عاصفة تذبذبي
وكالطيور في السماء حرة تقلبي
أي جربا ويحك ما أصلف وجهك الغبي
أي جربا يا بهلوان الملعب المجرب
يا ضحكة جاد بها الدهر على مكتئب

يا فرحة لمعدمين فرحة عن كثب

يا ثمر العار ويا جريمة التسيب

يا أمة مغلوبة لا جذم مغلب

يا بومة خائفة من خائف مرتقب

من مارق متهم وخائن مرتكب

ثم تتوالد القصائد تعبيراً عن اليأس والإحباط مرفقة دائما بالدعوة إلى الثورة من جديد.

وكانت أولى قصائده في هذا الاتجاه قصيدة «أطبق دجى»، التي كان قد نظمها في أوائل عام ١٩٤١، وأعيد إحياءها في ظل أجواء القمع التي سادت إثر الانتكاسة التي أعقبت «الوثبة». وتعكس هذه القصيدة أجواء تلك المرحلة السوداء من حياة العراق. يقول الجواهري في تلك القصيدة:

أطْبق دجى أطبق ضبابْ ... أطبق جهاماً يا سحابْ

أطبق دخانُ من الضمير ... محرقاً أطبق عذاب

أطبق دمارُ على حماة ... دمارهم، أطبق تباب

أطبق جزاءُ على بناة ... قبورهم أطبق عقاب

أطبق نعيبُ يجب صداك ... البوم، أطبق يا خراب

أطبق على متبلدين ... شكا خمولهم الذباب

لم يعرفوا لون السماء ... لفرط ما انحنت الرقاب

ولفرط ما ديست رؤوسهمُ ... كما ديس التراب

القصيدة الثانية التي نظمها الجواهري في هذا الاتجاه من الإحساس باليأس هي قصيدة «ترنيمة الجياع» (١٩٥١)، وفيها تأكيد

على استمرار سيادة الظلام، وفيها نقد للشعب الذي لا يستفيق من سباته. يقول الجواهري في هذه القصيدة:

نامي جياع الشعب نامي   حرستك آلهة الطعام
نامي فإن لم تشبعي   من يقظة، فمن المنام
نامي جياع الشعب نامي   الفجر آذن بانصرام
والشمس لن تؤذيك بعد   بما توهد من ضرام
والنور لن «يعمي» جفوناً   قد جبلْن على ظلام
نامي كعهدك بالكرى   وبلطفه من عهد «حامِ»

أما القصيدة الثالثة في الاتجاه ذاته فهي التي نظمها الجواهري في العام السابق على الانتفاضة الجديدة (١٩٥٢). وهي القصيدة التي ألقاها الجواهري في مؤتمر المحامين والتي يحث فيها على الثورة والتمرد. يقول الجواهري في هذه القصيدة:

سلام على حاقد ثائر   على لاحبٍ من دم سائر(٣)
يخب ويعلم أن الطريـ   ـق لا بد مفض إلى آخر
كأن بقايا دم السابقيـ   ـن ماض يمهد للحاضر
كأن رميمهم أنجم   تسدد من زلل العاثر
سلام على مثقل بالحديد   ويشمخ كالقائد الظافر
مفاتيح للقيود على معصميه   مفاتيح مستقبل زاهر

في عام ١٩٤٩ سافر الجواهري إلى باريس في عداد وفد من الصحفيين. وحين يعود إلى عراق ذلك الزمن الحرج فإنه يحمل معه أجواء باريس وما أوحاه به له تاريخها الثوري وتقاليدها الثقافية،

---

(٣) اللاحب: الطريق الواضح.

وكل ما فيها من جمال. وتتمخض مشاعره في ثورة عارمة من القصائد المتتالية، عن «باريس أم النضال»، وعن «انيتا» الصبية الفرنسية التي عشقها ونظم فيها ملحمة بكاملها هي من أروع ما نظمه. وفي قصيدة «باريس» وفي ملحمة «أنيتا»، يدخل الجواهري على طريقته وبأسلوبه باب الحداثة في الشعر، حين يتلاعب بالقافية وبالموسيقى وبالتفعيلة وحين يعطي للقصيدة وحدتها المتكاملة في الموضوع وفي الفكرة وفي الصورة وفي كل ما يتصل بها جميعها من أنساق شعرية.

يقول الجواهري في قصيدة «باريس»:

تعاليت «باريس»... أم النضال
وأم الجمال... وأم النغم
تذوّب فوق الشفاه الألم
وسال الفؤاد... على كل فم
تعاليت «باريس» ان السنين
بما تعلمين... وما تجهلين
وما تستلذين اذ تحملين
بوقع الشكاة... ورجع الأنين
ونشر الزهور على الفاتحين
وثل العروش... وضرب الوتين
وما سن «روسو»... و«لامارتين»

أما ملحمة «أنيتا» فهي تجربة في الحياة وتجربة في الشعر جديدة في نوعها بالنسبة إلى الجواهري. وهو لا ينظمها في زمن واحد، بل في عدة أزمنة. ويصعب الاستشهاد بمقاطع منها لأن اقتطاع أبيات أو

مقاطع منها سيكون متعسفاً. لذلك أكتفي بالإشارة إليها من دون الدخول في تفاصيل أحداثها أو تقديم مقتطفات منها.

تحوّل العراق في النصف الأول من عام ١٩٤٩ إلى معتقل كبير بأشكال مختلفة. وذهبت أدراج الرياح تضحيات المناضلين، وتبخرت تلك النسمة من الحرية التي عاشها العراقيون لأول مرة في تاريخهم، تاريخ الانتداب وتاريخ الاستقلال. وعاد الذين خرجوا من مخابئهم الثورية تحت الأرض بعيداً عن ضوء الشمس، عادوا إلى حيث كانوا يقبعون، يقودون من وراء الستار معارك الحرية والتقدم على صعيدي الفكر والسياسة. وعاد اسم بهجت عطية رئيس التحقيقات الجنائية (المخابرات) إلى «بهجته» السابقة! وعاد نوري السعيد وأرشد العمري وفاضل الجمالي والزمرة كلها تحت خيمة الوصي الأمير عبد الإله على عرش العراق، باسم الملك الصغير فيصل الثاني الذي كان لا يزال في سن الطفولة. عادوا جميعهم إلى المكان الذي كانوا فيه يقررون مجتمعين ومنفردين، بوحي أو بتنسيق أو بتواطؤ مع الخارج، مصائر العراق ومصائر شعبه ومستقبلهما. .

في ذلك الوقت بالذات ألقي القبض على عدد من المثقفين والسياسيين وأودعوا السجن. ونزعت عن حسين مروة الجنسية العراقية، بعد أن كانت قد أقفلت جريدته «السيار» التي لم يصدر منها سوى عدد واحد، وكان لي فيه مقال بعنوان: «لن تغفر الشعوب».

كان كل ذلك يحدث بتسارع. لكن لقاءاتنا مع الجواهري ومع المثقفين ومع أهل السياسة والصحافة لم تنقطع. كان ذلك هو الشكل الوحيد الذي كنا نحاول بواسطته تأكيد وجودنا وحضورنا وتحدي تلك الموجة العاتية من القمع التي كانت تزحف بكل ثقلها وحدتها باتجاه الأحرار من كل مستوى وموقع. وكنت قد انتميت إلى

الاشتراكية منذ مطلع العام ١٩٤٨ وأصبحت شيوعياً بالفكر وبالموقف. وكنت قد بدأت أكتب في الصحافة الأدبية. وكانت علاقاتي مع الجواهري ومع كبار المثقفين والسياسيين قد بدأت تعطيني موقعاً أكبر من حجمي الحقيقي وأكبر من عمري.

يطول الحديث إذا ما دخلت في تفاصيل تلك اللقاءات التي جمعتني بالجواهري وبكبار مثقفي ذلك الزمن. لكنني لا أستطيع إلا أن أشير إلى حدثين أثّرا فيّ كثيراً:

الحدث الأول هو اعتقال الأديب اليساري محمد شرارة، الذي كانت له عندي وعند الكثيرين مكانة كبيرة. وبرغم أن الوضع كان صعباً، إلا أن علاقات عزيز أبو التمن نجل الزعيم العراقي جعفر أبو التمن أحد أبطال ثورة العشرين، وهي كانت علاقات واسعة قد هيّأت لنا فرصة زيارة محمد شرارة في السجن. وكنا في الزيارة، عزيز أبو التمن والأديب العصامي ناجي جواد الساعاتي وأنا. وكان يرافقنا بعض أفراد عائلة شرارة. وكان السجن عبارة عن غرفة متوسطة المساحة تتسع لأربعين سجيناً بالعدد، مفتوح بابها على مصراعيه، إلى جانب مرحاض كانت تتسرب منه إلى الغرفة وإلى الباحة المجاورة لها رائحة بشعة كالسم. كان المشهد موجعاً ومثيراً للغضب والقرف.

أما الحدث الثاني فكان مع الجواهري في نادي «المسبح» في كرادة مريم في حفل تكريم الدكتور هاشم الوتري عميد كلية الطب. وكان الجواهري مدعواً لإلقاء قصيدة في المناسبة بحضور حشد كبير من عليّة القوم ضم وزراء وشخصيات سياسية واجتماعية وعسكرية. وكان في مقدمة الحضور الوصي على عرش العراق الأمير عبد الإله. ذلك أن النادي كان في الأساس نادياً للضباط. وقد تمكّن كل من

عزيز أبو التمن وناجي جواد من تأمين دعوات لنا للمشاركة في الاحتفال. وهكذا ذهبنا إلى النادي في سيارة «البويك» السوداء التي كان يقودها عزيز أبو التمن. وكنا أربعة: الجواهري وأبو التمن وناجي جواد وأنا. وكانت طاولتنا مخصّصة لنا نحن الأربعة. وعندما عاد الجواهري من إلقاء قصيدته أمسك الورقة المكتوبة عليها القصيدة ومزّقها بتوتر وألقاها بهدوء وبحذر تحت الطاولة. فتناولت المزق ووضعتها في جيبي من دون أن أدع أحداً ينتبه لما فعلت. ثم خرجنا نحن الأربعة بعد انتهاء الاحتفال في الطريقة ذاتها التي ذهبنا فيها إلى النادي وفي السيارة ذاتها وأوصلنا الجواهري إلى منزله. ثم ذهبنا إلى بيت عزيز أبو التمن لقضاء بعض الوقت وللبحث في النتائج التي كنا نتوقعها للحدث الجواهري. وعندما علمنا في اليوم التالي ما كنا نتنبأ باحتمال وقوعه، أي اعتقال الجواهري، سارع أبو التمن إلى اجراء اتصالاته مع بهجت عطية من أجل تأمين زيارة الجواهري في المعتقل. وهكذا ذهبنا لزيارته. وكان يقيم في غرفة عادية منفرداً فيها من دون إزعاج ومع كل التكريم، كما يؤكد هو ذاته في كتاب «ذكرياتي». لكن الجواهري لم يبقَ طويلاً قيد الاعتقال. إذ خرج منه لعدم ثبوت التهمة بسبب عدم وجود نص القصيدة بيد المحققين.
وكان حسين مروة قد أُبعد إلى لبنان. وكنا نحن العائلة نستعد للحاق به. وبالفعل فقد سافرنا بعد أسبوع من ذلك الحدث. وفور وصولنا إلى بيروت انخرطنا أبو نزار ونزار وأنا في عملية ترتيب الأوراق الممزقة التي تحوي القصيدة. وأعدنا كتابتها وأرسلناها إلى جريدة «التلغراف» المعارضة لصاحبها نسيب المتني، التي نشرتها في الصفحة الأولى مع عنوان على امتداد الصفحة كلها. ويبدو أن نشرها قد أدى إلى إعادة الجواهري إلى السجن من جديد. ولطالما ذكرني

الجواهري بأنني كنت السبب في عودته إلى السجن، بسبب نشر القصيدة في بيروت.

واذ أشير إلى تلك التفاصيل حول ذلك الحدث فلأن الجواهري تعمّد، برغم روايتي هذه للحدث مرات عديدة، بدءاً من عام ١٩٤٩ لدى مجيئه إلى لبنان عائداً من وارسو وباريس، وصولاً إلى المرحلة التي كان يكتب فيها ذكرياته، تعمّد أن يروي ما حدث في شكل مختلف مغاير للحقيقة بالكامل. فهو يقول في كتاب «ذكرياتي» انه عندما عاد من إلقاء قصيدته، وبعد أن مزق القصيدة لم يجد من يتحدث إليه. وخرج من نادي «المسبح» يبحث عن سيارة أجرة تنقله إلى منزله. ولم يكن ذلك صحيحاً بالمطلق. والصحيح هو ما أشرت إليه آنفاً. ولطالما تساءلت عن السبب في تغييب الحقيقة وتزوير الوقائع في رواية ذلك الحدث في مجمل أحاديثه عن تلك الحقبة، فلم أفلح. وحين صدر كتاب الجواهري «ذكرياتي» بجزئيه اقتنعت أن تغيير الوقائع والأسماء و التواريخ هو جزء من طريقة الجواهري في روايته للأحداث. فالكتاب المشار إليه لا يصلح ان يكون سيرة ذاتية للجواهري، ليس لنرجسية الجواهري فيه وحسب، فهي من سمات الفنانين والعظماء من بني البشر، بل لكثرة ما فيه من أخطاء، بعضها مقصود كما بدا لي وبعضها هو من نتاج ضعف الذاكرة. علماً بأن ذاكرة الجواهري نادرة المثال.

على أن قصيدة الجواهري في تكريم هاشم الوتري تبقى بذاتها في ذلك التاريخ حدثاً شعرياً وسياسياً بالغ الأهمية. فهي كانت اختراقاً شجاعاً للسائد من مظالم ومن تقاليد رثة تميز به الجواهري في كل الظروف من دون أن يحسب أي حساب للعواقب.

يقول الجواهري في تلك القصيدة:

إيهٍ عميد الدار كل لئيمة　لا بد واجدة لئيماً صاحبا
ولكل «فاحشة» المتاع ذميمة　سوق تتيح لها ذميماً راغبا
ولقد رأى المستعمرون فرائساً　منا، وألفوا كلب صيد سائبا
فتعهدوه، فراح طوع بنانهم　يبرون أنياباً له ومخالبا
أعرفت مملكة يباح شهيدها　للخائنين الخادمين أجانبا
مستأجرون يخربون بلادهم　ويكافأون على الخراب رواتبا

لم تنقطع علاقتي بالجواهري بعد العودة إلى لبنان. إلا أنها كانت علاقات متقطعة. فقد زار لبنان أربع مرات بعد تعرفي إليه بدءاً من عام ١٩٤٨ وصولاً إلى عام ١٩٩١. ذلك ان زياراته إلى لبنان كانت تتكرر قبل ذلك في مناسبة ومن دون مناسبة. الزيارة الأولى للجواهري إلى لبنان بعد عودتي من العراق كانت في أواخر عام ١٩٤٩ في طريق عودته من مؤتمر المثقفين العالمي، في وارسو الذي كان دعا إليه مجلس السلم العالمي. كان اللقاء مع الجواهري في ذلك الحين في منزل حسين مروة في بيروت. وكان حاضراً في تلك السهرة كل من نزار مروة ومحمد دكروب وأنا. تحدث الجواهري في ذلك اللقاء عن سفرته وعن لقاءاته وعن بعض مغامراته، بما في ذلك تلك التي قام بها في باريس في تلك السهرة الجميلة. وكان لباريس عاصمة الثقافة والثورة وأم النضال وأم الجمال نصيب مهم في حديث الجواهري في تلك السهرة الجميلة.

أما الزيارة الثانية فكانت في عام ١٩٥٠، عندما حضر للمشاركة في حفل تكريم الزعيم اللبناني عبد الحميد كرامي في الذكرى السنوية الأولى لغيابه، حيث ألقى قصيدته المشهورة وفيها تلك الأبيات التي أضحت على لسان كل الناس في كل العهود:

باق - وأعمار الطغاة قصار. من سفْر مجدك عاطر نوار
عبد الحميد وكل مجد كاذب إن لم يصن للشعب فيه ذمار
والمجد أن تهدي حياتك كلها للناس لا برم ولا إقتار
والمجد أن يحميك مجدك وحده في الناس لا شرط ولا أنصار
والمجد إشعاع الضمير لضوئه تهفو القلوب وتشخص الأبصار
والمجد جبار على أعتابه تهوي الرؤوس ويسقط الجبار

وكان في مقدمة حضور الاحتفال رئيس الوزراء في ذلك الحين رياض الصلح. وقد اتخذت السلطات قراراً بإبعاد الجواهري بعد أيام من الاحتفال. وأحدث ذلك القرار عند الجواهري هزة عميقة. اذ اعتبر ان ذلك القرار سيحرمه من فرصة الاستمتاع بزيارات لاحقة إلى هذا البلد الذي أحبّه. وهو ما حدث بالفعل. لكن الجواهري صب جام غضبه على أصدقائه الشيوعيين اللبنانيين الذين، بحسب ما يقول في ذكرياته، بالغوا في تكريمه والاحتفاء به إلى الحد الذي جعل السلطات تلجأ إلى إبعاده. ولم يشأ على امتداد سنوات عمره أن يقر بأن الإبعاد لم يتحمل مسؤوليته الشيوعيون. فالمسؤول عنه هو الموقف الشجاع الذي حملته قصيدته تلك. وأثار ذلك الموضوع معي في كل المناسبات التي التقيته فيها. وكنت أوضح له في كل مرة حقيقة ما حصل. وذات مرة أبلغته ما كان رئيس الحكومة اللبنانية رشيد كرامي نجل الزعيم عبد الحميد كرامي قد قاله لي بأن الجواهري مدعو إلى لبنان في أي وقت يشاء وفي أية صيغة. وكان آخر العروض ما أبلغته إياه رسمياً على لسان الرئيس كرامي، عندما التقيت به في عام ١٩٨٦ في براغ المكان المحبب إليه في منفاه الطوعي والقسري.

كانت زيارة الجواهري الثالثة إلى لبنان في عام ١٩٦١، عندما جاء إلى بيروت للمشاركة في تكريم الشاعر اللبناني الأخطل الصغير. وكان قرار المنع ما يزال قائماً. وأذكر أن كل الجهات السياسية والثقافية وبالأخص الشاعر سعيد عقل بذلت كل جهدها لتأمين حضور الجواهري ومشاركته في الاحتفال. وقد ألقى قصيدته التي مطلعها:

لبنان، يا خمري وطيبي	هلّاَ لممت حطام كوبي
هلا رددت لسهدها	عيني، وقلبي للوجيب
هلا عطفت لي الصبا	نشوان يرفل بالذنوب
نزق الشباب عبدته	وبرئت من حلم المشيب

وكانت لنا ولكل المثقفين اللبنانيين لقاءات عديدة مع الجواهري خلال تلك الزيارة القصيرة. لكنه ظل يحمل غصة قرار المنع ومرارته، وظل يحملنا نحن أصدقاءه بتعسفه المعروف مسؤولية ذلك القرار.

لم تكن قصيدته تلك في تكريم الأخطل الصغير القصيدة الوحيدة التي غنّى فيها لبنان. فقد حفلت دواوينه بالقصائد «اللبنانية» منذ أوائل الأربعينات من القرن الماضي. لذلك كان حنينه إلى لبنان حنيناً حقيقياً. وكان شعور المرارة الذي أصابه من جراء قرار المنع شعور الحبيب الذي أبعدت عنه حبيبته قسراً.

لكن زيارته الرابعة والأخيرة إلى لبنان كانت في أواخر العام ١٩٩١ للمشاركة في مؤتمر المعارضة العراقية. وكان له في المؤتمر موقف متميز من نوع المواقف التي اشتهر بها في مناهضة السائد والتمرّد عليه. فقد أعلن يومذاك من على منصة المؤتمر، بالشجاعة

التي كان يتميز بها وبالوضوح القاطع، شجبه غزو العراق للكويت مثل سائر الحاضرين. لكنه أبدى تحفظاً واستدراكاً بليغين يتعلقان باستنكاره وشجبه الغزو الأميركي للعراق وللمنطقة العربية باسم تحرير الكويت. اذ أطلق الدعوة لمواجهة ذلك الغزو معلناً بشجاعته المعهودة أنه مستعد لأن يكون بين العشرة الأول الذين سيذهبون إلى العراق لمقاتلة الغزاة. وكان لموقفه صدى كبير في صفوف المؤتمرين وفي وسائل الإعلام وعلى الصعيد العربي العام. وحين التقينا في أروقة المؤتمر وخارجه مرات عديدة استعدنا الكثير من ذكرياتنا وناقشنا الكثير من الأمور الثقافية والسياسية. وحرص على أن يبلغنا ويبلغ العالم كله أنه، هو من دون سواه في الشعر وفي الموقف وفي كل شيء، «متنبي» العصر. ولم يكن إعلانه المدوي المتكرر في الأمكنة وفي الأزمنة موضع جدال. ومع ذلك فلم يكن صمت البعض من الشعراء ومن النقاد إلا تعبيراً ما عن الرضى والقبول بذلك الإعلان.

غير أن لقاءاتي تلك مع الجواهري، وسجالاتي المتعددة فيها معه لم تنحصر في زياراته تلك إلى لبنان في مناسباتها وأشكالها. بل لقد أتيح لي أن أسافر كثيراً وأن تسعدني الظروف للقاء معه في أمكنة عدة، وفي فترات زمنية مختلفة ومتباعدة.

ففي العام ١٩٥٤ ذهبت إلى بغداد موفداً من قبل اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي، حيث كنت ممثلاً للشبيبة العربية في قيادته اليومية في بودابست، من ضمن جولة شملت عدة بلدان عربية. وكانت تلك أول زيارة لي إلى بغداد بعد أن غادرتها مع حسين مروة مبعداً في عام ١٩٤٩. وكانت لي لقاءات عديدة مع الأصدقاء القدامى والجدد وفي مقدّمهم الشاعر الجواهري.

ثم تكررت الزيارة في عام ١٩٦٠، لحضور المؤتمر العالمي للطلاب. وكان الزمن قد اختلف عن سابقاته بفعل ما أحدثته ثورة الرابع عشر من تموز من تحولات. وكان الجواهري نجم ذلك المؤتمر، اذ ألقى فيه قصيدة يقول في مطلعها:

أزف الموعد والوعد يعنْ — والغد الحلو لأهليه يجنْ
والغد الحلو بكم يشرق وجه — من لدنه، وبكم تضحك سن
والغد الحلو بنوه أنتمُ — فإذا كان لكم صلب فنحن
فخرنا ما كشفناه لكم — واكتشاف الغد للأجيال فن

كان الجواهري في قمة مجده في ذلك الحين. إذ كان قد انتخب رئيساً لاتحاد الأدباء ورئيساً لاتحاد الصحافيين. وكان موضع تكريم في العراق لم يشهد مثله في كل تاريخه. زرته في مقر اتحاد الأدباء والتقينا في أماكن عدة مع عدد كبير من الأصدقاء من مثقفي العراق وسياسييه ومن قادة ثورة الرابع عشر من تموز. وكانت تلك الفترة من أغزر الفترات في تاريخ العراق بالمراهنات على المستقبل وعلى حركة التغيير، ليس في العراق وحسب بل في العالم العربي برمته. وأذكر أن مقارنات كانت تعقد في ذلك الحين بين ثورة العراق وثورة كوبا. وكان الترجيح في تلك المقارنات لصالح الثورة العراقية. ولم أكن من أنصار ذلك الرأي. لكن الحجج كانت تنقصني في الدفاع عن موقفي. أما الجواهري فكان، برغم كل ما أحيط به من تكريم وما قدم له من امتيازات، كثير التساؤل قلقاً ومتطلباً. وسرعان ما قادته مخاوفه من المستقبل إلى الاختلاف مع رئيس البلاد وزعيم ثورة الرابع عشر من تموز عبد الكريم قاسم. فهاجر في عام ١٩٦١ إلى عدد من البلدان العربية، ثم اختار براغ مكاناً ثابتاً لمنفاه الطوعي.

في منفاه الجميل ذاك في براغ عاش الجواهري حياته بكل تناقضاتها. انغمس إلى أقصى الحدود في عالم الملاهي والحانات. ودخل في مغامرات نسائية بلا حدود، لا سيما مع الفتيات الصغيرات منهن، وهو في السبعين من عمره. وكأنه كان يريد بذلك أن ينسى آلامه وآلام شعبه. لكن تلك الآلام ظلت تستبد به ولا تفارقه، لا سيما في الفترة الأولى من اغترابه. وهو يصف تلك الفترة في الجزء الثاني من كتابه «ذكرياتي» بكثير من اللوعة. فقد عانى من الأرق الدائم طيلة الأشهر الستة الأولى من حياته في براغ. ونظم في تلك الفترة بالذات قصيدته المشهورة «أيها الأرق» التي يقول فيها:

مرحباً يا أيها الأرقْ ... فرشت أنساً لك الحدقْ
لك من عيني منطلق ... اذ عيون الناس تنطبق
لك زاد عندي القلق ... واليراع النضو والورق
ورؤىً في حانة القدر
عتقت خمراً لمعتصر
أنا عندي من الأسى جبل ... يتمشى معي وينتقل
أنا عندي وإن خبأ أمل ... جذوة في الفؤاد تشتعل
إنما الفكر، عارماً، بطل ... أبد الآبدين يقتتل
قائد ملهم بلا نفر
حسرت عنه راية الظفر

في عام ١٩٦٢ أقيم في بغداد احتفال بألفيتها وألفية الفيلسوف والعالم العربي الكندي. ودعي لحضور الاحتفال عدد كبير من مثقفي العالم من فلاسفة ومؤرخين وعلماء آثار وأدباء وسياسيين. وكان بين المدعوين وفد من مجلس السلم العالمي كنت عضواً فيه بصفتي

ممثلاً للجان السلم العربية في سكرتاريا المجلس في فيينا. وكان الوفد برئاسة البروفسور البولوني دلوسكي عضو هيئة رئاسة المجلس. وكان من بين مهمات وفدنا في العراق المساهمة في توسيع وتعميق علاقة مجلس السلم العالمي بالشخصيات السياسية والثقافية، وجذبها إلى نشاطاته. وكان الاهتمام بالجواهري في رأس قائمة اهتماماتي في هذا المجال، وفي رأس اهتمامات رئيس الوفد الذي كنت قد حدثته طويلاً عن الجواهري وعن المثقفين العراقيين وعن الثقافة العربية، بوجه عام. وقد حزنت كثيراً عندما ابلغنا عزيز شريف رئيس حركة السلم العراقية بأن الجواهري موجود في براغ منذ أكثر من عام. وشعرت للتو أن فراغاً كبيراً قد حدث في حياة العراق في ذلك الحين، بغياب الجواهري عن البلاد وعن مهرجان الاحتفال بألفية بغداد والكندي، وعن مهمتنا العامة نحن وفد مجلس السلم العالمي وعن مهمتي الشخصية في تلك الزيارة للعراق. لكنني سرعان ما شعرت بأن الجو لم يكن سليماً. وكانت نذر كثيرة تنبئ بأن شيئاً ما سيحدث. فالعلاقات بين عبد الكريم قاسم والشيوعيين كانت قد دخلت في نفق الخلافات. وكان قاسم قد تحول إلى زعيم فرد من نوع أولئك الذين ترفعهم انتصاراتهم إلى حدود الشعور بالاكتفاء القريب من الألوهية، فينعزلون عن شعوبهم. وسرعان ما يسقطون وتسقط معهم كل تجاربهم وكل أحلامهم وتسقط كل المراهنات عليهم. وقد تبين لي ذلك بوضوح من خلال لقاءين مع عبد الكريم قاسم في تلك المناسبة، إضافة إلى ما أسمعني إياه الأصدقاء من الأخبار والتقديرات، بما في ذلك من الذين كانوا في أقرب المواقع إلى قاسم سياسياً وأمنياً.

سارعت لدى عودتي إلى فيينا لترتيب لقاء مع الجواهري في

براغ. وكنا في ذلك العام (١٩٦٢) في مجلس السلم العالمي نعد لمؤتمر عالمي لنزع السلاح يعقد في موسكو في الصيف. لذلك فقد حملت معي للجواهري دعوة للمشاركة في ذلك المؤتمر. فلبى الدعوة بفرح. وكان في المؤتمر الذي ضم خمسة آلاف شخصية من ١٢٠ بلداً، واحداً من عديدين من كبار مثقفي العالم العاملين في مجال الدفاع عن السلم والنضال من أجل نزع السلاح. وكان من بين أبرز المثقفين العرب إلى جانب الجواهري ميخائيل نعيمة وحسين مروة من لبنان ، وخالد محي الدين من مصر. وقد قدم الجواهري للمؤتمر قصيدته المعروفة: «أطفالي وأطفال العالم»، التي يقول فيها:

لي طفلتان أقنص الخيالا
عبريهما والعطر والظلالا
أسوء حالاً كي تسيرا حالا
طفلان... سلني تعرف الأطفالا
أحمل من أجلهما أثقالا
لم أستطع قبلهما احتمالا
إنهما وقد أريح الغيهبُ
قد أبصرا أن الحمام يلعب
جناحه عند الأصيل مذهب
يجيء في غمامة ويذهب
أهل لأطياف المنى ومرحب

وكثرت لقاءاتي مع الجواهري عندما استقر في سوريا. وكان آخر لقاء لي معه قبل وفاته بثلاثة أعوام في ربيع عام ١٩٩٤. حضر اللقاء

ابنه كفاح وإحدى بناته وزوجها جمال الجواهري. كان الجواهري قد بدأ يشعر بتعب السنين وثقلها. كان نظره قد بدأ يضعف إلى الحد الذي لم يكن قادراً معه على ممارسة القراءة والكتابة. إلا انه أصر يومها أن يهديني الجزء الثاني من كتابه «ذكرياتي» مع إهداء بخط يده. وكتب في هذا الإهداء كلمات جميلة كان من الصعب علي أن أفك رموزها، إذ كان يكتب من دون أن يرى ما يخطه قلمه.

امتدت تلك الجلسة الحميمة الأخيرة بيني وبين الجواهري حتى ساعة متأخرة من الليل. وكان الجواهري يريدها أن تلاصق الصباح، ربما لإحساس غامض عنده وعندي بأنها ستكون جلسة الوداع. ألح عليّ بالبقاء، وألححت بالانصراف خوفاً عليه من إرهاق السهر ومن تدفق الذكريات ومن مرارة الشعور بعبء السنين، وما ولده طول العمر من وهن طال كل عناصر الحياة في جسده، وفي أكثر الأعضاء حساسية في ذلك الجسد عينه. وقد شكا لي بمرارة ما آلت إليه حاله من ضعف في النظر. اذ كيف يكون حال الشاعر إذا ما فقد القدرة على القراءة؟ لكن ذهنه كان كعادته شديد التوقد. وكانت ذاكرته ما تزال تحتفظ بقوتها وحدتها وحيويتها. تذكرنا أحداثاً كثيرة. وتلا بعضاً من أشعاره ومن الأشعار التي كان يحبها لكبار شعراء العصور العربية القديمة. وانتشى وغمره الفرح حين أخبرته بأنني من عشاق الشعر العربي القديم، وأن البحتري كان شاعري المفضل في مرحلة دراستي الثانوية. وكان سبب دهشته يعود إلى أنه كان يعتبر البحتري شاعره المفضل بامتياز. فالبحتري، كما يقول الجواهري، هو من الشعراء الذين يكتبون الشعر السهل الممتنع. ويضيف الجواهري بأن البحتري هو، من بين الشعراء الكبار، الوحيد الذي لم يستطع تغيير قافية واحدة من قوافيه. وفي دواوين الجواهري قصيدة يخص بها

«البحتري» وقصيدة يخص بها «المتنبي»، وقصيدة ألقاها في ألفية «أبي العلاء المعري». وهي تؤكد علاقته الوثيقة بجذور الشعر العربي. وكان ديوان «الجمهرة» الذي وضع فيه مختارات من الشعر العربي أحد أشكال التعبير عن انتمائه إلى تلك الجذور وعن وفائه لها وعن الاسهام في اغنائها. وكان قد بدأ يصدر كراريس يضم كل واحد منها مختارات منتقاة بعناية من دواوين الشعراء الذين أحبهم. وكانت المختارات من شعر البحتري أولى تلك الاصدارات. لكنه لم يتمكن من اكمال تلك السلسلة بسبب العجز الذي أصابه في سنوات عمره الأخيرة.

إلا أن لعلاقة الجواهري بالبحتري مكاناً متميزاً في حياته أفرد له فصلاً خاصاً في الجزء الثاني من كتابه «ذكرياتي». فهو يروي في ذلك الفصل تاريخ علاقته بالبحتري وبشعره. ويشير إلى العناصر المتميزة في هذا الشعر. كما يروي قصة محاولته التي لم تتحقق في اعادة تصنيف ديوان البحتري و«**نظم سلاسله الذهبية لتطبق على مراحل حياته وتصاعدها ومفارقاتها بدلاً مما كان عليه من ترتيب لا طائل فيه ولا دلالة على تصوير حياة البحتري نفسه ولا على تطورها ولا على مدى معاناته فيها، كما هو الأمر الأصح والأجمل في ما كان من أمر تصنيف ديوان المتنبي على سبيل المثال**».

ويتابع الجواهري في ذلك الفصل تأكيده على تميز البحتري، بما في ذلك بالمقارنة مع المتنبي: «**ولئن كان البحتري أقل اشغالاً للناس وإملاء للدنيا من «المتنبي» للبون الشاسع بين الشخصين والموقفين والحياتين والمزاجين فهو كان، ومن مدخل آخر، الأكثر اشغالاً وإملاء للطبقات الخاصة المعنية والمتفردة بعنايتها بأمر الشاعر الفنان والشاعر الرسام، وبخاصة بالشاعر الذي يحتل المكانة الأولى والعليا**

في ذلك كله. لقد كنت وما أزال وبما يشبه جمع المتناقضين، وأنا الأقرب إلى المتنبي في كل خصائصه ومفارقاته ومغامراته، لا أحرص على كل دواوين شعراء دنيا العرب من يوم حفظت الشعر وفهمته، بمثل ما أحرص وعلى مدى أكثر من خمسين عاماً على أن يكون «ديوان البحتري» معي في أي رحلة من رحلات العمر مهما قصرت لأيام وأسابيع أو طالب لشهور أو سنين. بل وعليّ أن أعيد وأعيد البيت والبيت والقطعة والقطعة والقصيدة والقصيدة وكأنني أتعرف عليها من جديد. وما تزال محفوظة عندي النسخة النادرة بمراجعة العلامة «الشدياق»، التي عنيت فيها بما قد لا يخطر على بال حتى المعنيين بـ البحتري نفسه، وذلك بأن أجمع فيها من فرائد البحتري ما هو مضرب من مضارب الأمثال السائرة والتي يفترض أن تبقى على أفواه الناس في كل ما يعن لهم من حال أو حال، وموقف أو آخر بأكثر بكثير مما هو على أفواههم من أمثال المتنبي، لو لم تتغلب على البحتري بل أن تظلمه سبيكة الذهب من روعة الحرف وبساطته وعمقه...».

لقد كانت تلك الجلسة آخر لقاء لي مع الجواهري. وكانت من أجمل اللقاءات الحميمة التي حرص أكثر من مرة أن يؤكد لي فيها عمق الصداقة التي تربطه بي شخصياً وبصديقه التاريخي حسين مروه. وقد حزن كثيراً عندما أخبرته بأن نزار، الأديب والفنان، نجل حسين مروه، قد توفي قبل ذلك التاريخ بعامين. وكان قد قرأ لي مقالاً كتبته بمناسبة الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية، عن أثر الثورة الفرنسية وأفكارها في شعر وأدب الجواهري ورئيف خوري، رغم انتمائهما في السياسة وفي الفكر إلى أفكار الثورة الاشتراكية. وأخبرني أنه أعجب بالمقال، لكنه لم يجادل فيه. فلم أعرف إذا كان موافقاً على

ما تضمنه المقال من رأي غير مألوف عن علاقته بالثورة الفرنسية وتأثيرها على أفكاره!

التمرد في شعر الجواهري موجود في كل شعره حتى في القصائد التي كرسها لمناجاة الطبيعة وللتعبير عن مشاعره وعن انفعالاته الوجدانية، بل حتى في غزله، العاطفي منه والمجوني. وهو قد بدأ تمرده منذ شبابه الباكر، حين خرج من المدرسة الدينية وعليها في النجف، وخلع زي رجل الدين ودخل في سلك التعليم. لكن تمرده الأهم كان في المرحلة التي بدأ يمارس فيها كتابة الشعر. ومن قصائده المشهورة لتلك الفترة المبكرة، قصيدته عن ثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني للعراق التي يقول في مطلعها:

لعل الذي ولّى من الدهر راجعْ
فلا عيش ان لم تبق إلا المطامعً
هو الدهر قارعْه يصاحبك صفوه
فما صاحب الأيام إلا المقارع

وفي تلك الفترة الممتدة ما بين عام ١٩٢٠ وعام ١٩٣٠ كتب الجواهري عدة قصائد تحمل النفس ذاته. اقتطع من قصيدة «النقمة» الأبيات التالية:

قد كنت أقرب للرجاء فصرت أقرب للقنوط
كل البلاد إلى صعود، والعراق إلى هبوط
في كل يوم مبدأ، أواه من هذا السقوط

ويقول الشاعر في قصيدته «الرجعيون»:

ستبقى طويلاً هذه الأزماتُ   اذا لم تقصِّر عمرها الصدماتُ
اذا لم ينلها مصلحون بواسل   جريئون فيما يدعون كفاة

ويقول في قصيدة «سبيل الجماهير»:

لو آن مقاليد الجماهير في يدي — سلكت بأوطاني سبيل التمرد
اذن علمتُ أن لا حياة لأمة — تحاول أن تحيا بغير التجدد
لو الأمر في كفي لجهزت قوة — تعوِّد هذا الشعب ما لم يعوَّد
لو الأمر في كفي لأعلنت ثورة — على كل هدام بألفي مشيد
على كل رجعي بألفي مناهض — يرى اليوم مستاء فيبكي على الغد

لم يترك الجواهري معركة في البلاد العربية إلا وكان له فيها دور وموقف من خلال شعره. ولم يكتف بالعالم العربي، بل هو ذهب إلى العالم الأرحب. اذ كان يعتبر نفسه جزءاً من ثورة عالمية من دون أن يدخل في تفاصيل شؤونها الفكرية والسياسية. لكنه وجد له مكاناً أكيداً فيها، كشكل من أشكال التعبير عن أمميته، بمعنى الانتماء إلى الانسانية والى القوى المناضلة من أجل التحرر والتقدم في العالم. وأبرز ما كتب من شعر في هذا الميدان وصفه لانتصارات الجيش الأحمر على النازية والقضاء عليها في عقر دارها في برلين. يقول في قصيدة «ستالينغراد»:

يا عروس «الفلغ» والفلغا دم — ساءت البلوى فأحسنت البلاءَ
صبغ «الدون» دماءين هما — بعد بين الرجس والطهر التقاء
وجرت أمواجه حاملة — فوقها الضدين صبحاً ومساء
وعلى الجرفين «عظمان» هما — رمز عهدين انحطاطاً وارتقاء
يا ابنة النهرين دومي شبحاً — لقوي وضعيف يتراءى
للمهينين عقاباً وجزاء — والمهانين انتفاضاً وإباء
يا «تولستوي» ولم تذهب سدى ثورة الفكر ولا طارت هباء
يا ثريا وهب الناس الثراء — قم تر الناس جميعاً أثرياء

قم تجدهم مالكي غلتهم   من على عهدك كانوا الأجراء
هكذا (الفكرة) تزكو ثمراً   إن زكت غرساً، وإن طابت نماء

إلا أن الكتابة عن الجواهري، حتى في حدود هذه التداعيات من الذكريات، تبقى ناقصة إذا هي لم تشر ولو بإيجاز إلى موقع المرأة في شعره. وللمرأة في شعر الجواهري موقفان: يتمثل الأول في الموقف المتقدم الذي اتخذه الجواهري من حقوق المرأة منذ وقت مبكر جداً. وله في الدفاع عن حق المرأة في التعليم قصيدة بعنوان: «علموها»، كتبها في عام ١٩٢٩، وفيها يقول:

علموها فقد كفاكم شنارا   وكفاها أن تحسب العلم عارا
وكفانا من التقهقر أنّا   لم نعالج حتى الأمور الصغارا
هذه حالنا على حين كادت   أمم الغرب تسبق الأقدارا
أنجب الشرق جامداً يحسب المر   أة عاراً وأنجبت طيارا
تحكم البرلمان من أمم الدنيا   نساء تمثل الأقطارا
ونساء العراق تُمنع أن ترسم   خطاً أو تقرأ الأسفارا

ويثابر الجواهري على هذا الموقف الداعي إلى تحرير المرأة والممجد لدورها حتى آخر لحظة في حياته. وهو يغتنم مناسبة الحفل الذي أقامته الطالبات العراقيات في براغ احتفالاً بيوم المرأة العالمي في عام ١٩٦٢ ليؤكد موقفه هذا بأكثر ما يمكن من الوضوح. فهو يقول في القصيدة التي ألقاها في هذه المناسبة:

إنَّا وكلُّ جهودنا   للخير رهن جهودهنَّه
وحدود طاقات الرجا   ل لصيقة بحدودهنه
وصمودنا في النائبا   ت مرده لصمودهنه

بنحوسهن نحوسنا وسعودنا بسعودهنه
التضحيات الغر صن ع شموخهن وجهْدهنه

أما النوع الآخر من قصائد الجواهري في المرأة فهو الذي يظهر فيه الشاعر عاشقاً بكل جوارحه وبكل أحاسيسه وبكل عواطفه من دون أي حرج من تقاليد أو من قوانين. فهو يستسلم لكل تلك الأحاسيس والمشاعر والعواطف والغرائز. وفي هذه القصائد يبرز مجونه الذي لا حدود له لا في الأمكنة، ولا في الأزمنة، ولا في العمر الذي ظل بالنسبة إلى الجواهري حتى على أعتاب التسعين عمر شاب متقدم في السن، ينبض فؤاده بالحياة وبالحرارة وبالدفء، وبالشبق وبالمجون.

أما أولى قصائده التي تضمها دواوينه المنشورة فقد كتبها الشاعر عام ١٩٢١ وعنوانها: «ذكريات الوئام». يقول الجواهري في هذه القصيدة:

وليل ذكرت به صبوتي فعدت إلى الزمن الأوَّلِ
تجردت عن تبعات الجدود وبت عن الغير في معزل
قستْ شهبه عن شكاة الهوى وحدقن شزراً ولم تحفل
أبث لها همَّ عصر مضى فتبسم عن عصريَ المقبل
سهرنا وشتان ما بيننا وأين من المستهام الخلي!
أمان تسامت فمن أجلها حياتي، وفي شرحها مجملي
وآنست في جنحه وحدتي فبت كأنيَ في محفل
سكون الدجى وجلال الغرام جناحان للشاعر الأعزل

أما قصيدة «جربيني» فلها قصة في حياة الجواهري رواها في كتابه «ذكرياتي». فقد كان حين كتبها ونشرها موظفاً في بلاط الملك

فيصل الأول. لم يوقعها باسمه الحقيقي، واختار له اسماً مستعاراً. ولم يمض وقت قصير حتى انفضح أمره. فاستدعاه الملك فيصل لمعاتبته من دون أن يعاقبه. إلا أنه فضل ترك الوظيفة طلباً للحرية. يقول الجواهري في هذه القصيدة:

جرِّبيني من قبل أن تزدريني وإذا ما ذممتني فاهجريني
ويقيناً ستندمين على أنك من قبل كنت لم تعرفيني
لا تقيسي على ملامح وجهي وتقاطيعه جميع شؤوني
أنا لي في الحياة طبع رقيق يتنافى ولون وجهي الحزين
قبلك اغترَّ معشر فرأوني من جبين مكلل بالغضون
وفريق من وجنين شحوبي ن وقد فاتت الجميع عيوني
اقرأيني منها فقيهاً مطاوي النفس طراً وكل سرّ دفين
فيهما رغبة تفيض وإخلاص وشك مخامر لليقين
فيهما شهوة تثور، وعقل خاذلي تارة وطوراً معيني
فيهما دافع الغريزة يغريني وعدوى وراثة تزويني

وعندما بلغ السبعين من العمر كتب في براغ قصيدة بعنوان: «لجاجك في الحب لا يجمل»:

لجاجك في الحب لا يجمل وأنت ابن سبعين لو تعقل
تقضي الشباب، وودعته ورحت على اثره ترقل[٤]
مضى منك فيه ربيع الحياة ومات به نصفك الأفضل
بكفَّيك واريته لحده وطلت على «لحده» تعول
وها أنت تستقبل الماضيات لو آن الذي فات يستقبل

---

(٤) ترقل : أرقل أسرع.

تعلل نفساً بأطيافها ومَوعظة لك من علّلوا[٥]
كأعمى أضلَّ سواء السبيل وحيداً، وقد فاته المنزل

والمجون في شعر الجواهري وفي الجزء البوهيمي من حياته هو الوجه الآخر للعشق الحقيقي، والتعبير الحقيقي عن حبه العميق للحياة. وهو شكل من أشكال التمرد على بيئته النجفية المحافظة المتزمّتة، التمرد الذي جاء متأخراً بعض الوقت واستمر طيلة حياته. على أن الجواهري يروي قصة أول عشق عنيف وقع فيه وعانى منه. كان لا يزال في الثامنة من عمره، في حين كانت معشوقته ابنة الجيران تكبره بعشر سنوات. وترافق الإحساس بالمرأة عنده مع بداية الإحساس بعلاقته الفطرية بالشعر. وكانت العلاقة بين المرأة والشعر من جهة، والنزوع إلى الحرية والتمرد من جهة ثانية، هي علاقة طبيعية في حياة الفنان، الذي هو هنا الشاعر الجواهري. وتؤكد هذه العلاقة المتعددة النزعات كل حياة الجواهري، كشاعر وكثائر وكإنسان.

كان الجواهري في شعره وفي حياته كلها، وفي المعارك التي انخرط فيها في العراق وخارجه مدافعاً عن قضايا بلده، وقضايا الأمة العربية، وقضايا الإنسان بعامة. وهي ملحمة لا ينفصل فيها أي عنصر عن العناصر الأخرى المكونة لها. ولا تنحصر ساحات المواجهة فيها بجانب واحد من الهموم التي تواجه البشر ولا سيما المبدعين منهم. لذلك فإن القارئ لملحمة الجواهري سيجد نفسه بالضرورة أمام لحظات لا هم فيها للشاعر سوى همه الشخصي، المتمثل في نزوة هنا وفي هاجس هناك وفي أزمة وجدانية هنالك وفي أوهام تستبد به وتطغى على أفكاره، تؤجهها دائماً نرجسية تبلغ حد الهوس أو ما

---

(٥) الموعظة، هنا : العبرة.

يشبهه. من هنا مصدر التحذير الذي بدأت به هذه التداعيات عن ذكرياتي مع الجواهري، التحذير الذي أشير فيه إلى أن عالم هذا الشاعر الكبير يتسع لكل التناقضات. فهو عالم شاعر وسياسي وفنان وفرد متمرد على الذات وعلى الآخرين، ومتمرد على أشياء الوجود والمجتمع. لذلك فإن دخول هذا العالم الشاسع يتطلب شروطاً أهمها تجنب الخلل في القراءة وفي النظر، بحيث لا يطغى جانب منها على جانب آخر فيلغيه. جميع الجوانب في حياة الجواهري ينبغي أن تكون حاضرة في أي نوع من أنواع الكتابة عنه، بما في ذلك عن شعره وعن نوع هذا الشعر وعن مصادر الجمال والابداع وشروطهما فيه. وإذا كنت قد أوغلت في قراءتي للجواهري في الجانب السياسي من سيرته، فإن ما حصن قراءتي هذه من الخلل هو أنني استعنت بشعره في نماذج استللتها من قصائده ومن الأحداث والمناسبات التي نظمت فيها تلك القصائد. ولعل الجواهري ذاته هو الأقدر على تحديد سمات شخصيته أكثر منا نحن معارفه وأصدقاءه وقراءه ومتابعي سيرة حياته. فهو يقول في الجزء الأول من كتابه «ذكرياتي»، كما لو أنه يرد على كل الذين ينتقدون تناقضات حياته: «**وأقولها عن تفكر ومحاولة تطبيق للواقع على الواقع، إنني، بالرغم مما قد يفترض في كل ما مررت به من مفارقات قد تبدو وكأنها متناقضات، بالرغم من كل هذا، وبعد التمحص للنفس، وبعد محاسبتي إياها، وبعد جهد جهيد في أن أكتشف مخلفاتها وأسرارها، أسرار كل ما كان منها وبواعثه، فلا أجدني إلا وجهاً واحداً، إلا شخصاً واحداً، منسجماً مع نفسه، مهيأ لكل ما كان منه، مخلوقاً من النطفة لكي يكون ما كان. . .**».

وإذا كان لا بد من الحديث عن شعر الجواهري من الناحية الفنية، وهو ميدان لا أحب ولا أحسن الدخول فيه، فباستطاعتي القول ببساطة

من دون ادعاء المعرفة بالنقد الأدبي بأن للجواهري مدرسته الشعرية الخاصة به. وهي مدرسة برزت معالمها ومكوناتها وسماتها الخاصة منذ البدايات. وهو في أي حال لا ينكر في كل ما كتبه وما قاله في أحاديثه التي لا تحصى تأثره بشعراء سابقين عليه مثل الحبوبي وابن عمته علي الشرقي. ولا يخفي إعجابه بأحمد شوقي، وتقديره للجانب الكفاحي في شعر حافظ ابراهيم وشعر معروف الرصافي، وتقديره للشعراء الجدد، مثل بدر شاكر السياب العراقي، وإبراهيم ناجي المصري من جماعة «أبولو»، وسعيد عقل اللبناني، وعبد الرحمن الشرقاوي المصري، لا سيما في مسرحيته الشعرية «الفتى مهران».

واذا كان ثمة ما يوحي بأن الجواهري لم يقرأ كثيراً مصادر الفكر الاشتراكي الذي انتمى إليه بصورة واضحة كما تدل على ذلك أفكاره وآراؤه، فإنه يؤكد بالمقابل انه كان من قراء شبلي الشميّل وسلامة موسى الاشتراكيين، وأنه كان من المعجبين بطه حسين. إلا إنه، في تقديري، كان أقرب إلى أفكار الثورة الفرنسية، وإلى أفكار الاشتراكية الطوباوية منه إلى الاشتراكية التي تبناها الشيوعيون. لكنه كان حريصاً على استقلاليته. وهل بمقدور شاعر مثل الجواهري أن يكون أكثر من فنان ملتزم يتمتع بالاستقلال وبالحرية؟ وعبقريته هي محصلة التزاوج بين ثورية رجل الدين الخارج من تلك الصفوف، المتمرد على بيئته وتربيته وعلومه الدينية ومعاييرها، وبين التمرد على الأنظمة والتقاليد البالية والثائر ضد الظلم والظالمين والمنغمس في الحياة يغرف منها ويعطيها من ذاته بدون حدود.

هذا هو الجواهري كما عرفته وتلك هي قراءتي لملحمته التي أوحت لي بها معرفتي به من قرب، وعلاقتي معه التي امتدت على مدى خمسين عاماً.

مختارات من شعره

ثورة العراق

إن كـــان طـــال الأمـــل فـبـعـد ذا الـيـوم غـدُ
ما آن أن تـجـلـو الـقـذى عـنـهـا الـعـيـون الـرمّـد
أسـيـافـكـم مـرهـفـة وعــزمـكــم مـتّـقـد
هـبّـوا كـفـتـكـم عـبـرة أخـبـار مـن قـد رقـدوا
هــبـوا فـعـن عـريـنـه كـيـف يـنـام الأسـد

* * *

وثــورة بـــل جـــمـــرة لـيـعـربٍ لا تـخـمـد
أجـــجـهـــا إبـــاؤهـــم والـحـرّ لا يـسـتـعـبـد
لا تـنـثـنـي عـن بـلـد حـتـى يـشـبّ الـبـلـد
خفُّوا إلى الداعي وفي الـ حـرب جـبـالاً ركـدوا
واسـتـبـشـروا بـعـزمـهـم فـهـلـلـهـلـوا وغـرّدوا
وأقـسـمـوا إلـى الـعـدى أن لا يـلـيـن الـمـقـود
يـأبـى لـكـم أن تـقـهـروا عـزكـم والـمـحـتـد
إن كـان أعـيـا مـورد غـيـر الأذى لا تـرِدوا
أو كـان لا يـجـديـكـمُ قـربـى لـهـم فـابـتـعـدوا
كم جلب الذلّ على الـ مـرء حـسـام مـغـمَّـد

زيدوا لقاحاً حربكمْ لعلّ عزاً تلد
إياكم والذل إنَّ جرحه لا يضمد

شكوى وآمال

أعاتب فيك الدهر لو كان يسمع
وأشكو الليالي، لو لشكواي تسمع
أكلّ زماني فيك همّ ولوعة
وكل نصيبي منك قلب مروّع
ولي زفرة لا يوسع القلب ردّها
وكيف وتيار الأسى يتدفع
أغرّك مني في الرزايا تجلدي
ولم تدر ما يخفي الفؤاد الملوّع
خليلي قد شفّ السها فرط سهدها
فهل للسها مثلي فؤاد وأضلع
كأني وقد رمت المساواة في الورى
أخو ظمأ منّاه بالود بلقع
كأن غلاة الأمر في الأرض حرّمت
سياستهم أن يجمع الحرّ مجمع
كأن الدراري حمّلت ما أبثه
إلى الليل من شكوى الأسى فهي ضُلَّعُ
كأن بلاد الحرّ سجن لمجرم
وما جرمه إلا العلا والترفع

ستحملني من مسكن الذل عزمة

بوطأتها السبع السوائر تخشع

تجنبني من كنت في الخطب ضلة

بإسعافه دون البرية أطمع

أرى لك في هذا التورّع مقصداً

وإلا فما ضبّ الفلا والتورّع

تلفعت بالتقوى وثوبك غيره

فلله ذياك الضلال الملفع

لعلّ زماناً ضيعتني صروفه

فيرعى فيه قدر مضيع

وخلا أساء الظن بي إن بدت له

حقيقة ما أخفي، عن الشر يقلع

إليك زماني خذ حياة سئمتها

هي السمّ في ذوب الحشاشة ينقع

وإني وإن كنت القليل حماته

فلي مبدأ عنه أحامي وأدفع

ولو إنني أعجلت خيفت بوادري

ولكن صبر الحرّ للحرّ أنفع

بين النجف وأمريكا

أأمريك يا بنت «كولومبسِ» لحبك وقع على الأنفسِ

صبوت إليكِ وأين الفرات وأهلوه من بحرك الأطلس

حننّا ولو كان في وسعنا سعينا إليك على الأرؤس
إذا آنس الصبّ ذكر الحبيب ففي غير ذكرك لم آنس
هواجس تدني إليك المنى ولولا المنى قط لم أهجس
وإني، وما بيَ حبّ الصخور أحن إلى صخرك الأملس
هوى لو بشهب الدراري صبَّت ولو بالعواصف لم تهمسِ
إذا كان من ثمر للمنى ففي غير أرضك لم يهرس
وكم قائل ما اصطلى في الهوى بناري وقد غرّه ملمسي
أليس سواها نفيس يرام فقلت: هواي مع الأنفس
أحباي حتى م يصبو لكم معيف، ويذكركم من نسي
ألا هل أتاكم بأني متى تدرْ كأس حبكم أحتسي
وإني كالليل بادي الهموم وإني كالنجم لم أنعس
ولي قلب حرّعصيّ الزمام فإن راضه حبكم يسلس
وكم ليلة بتّ في عزلة ومن طيب ذكراكمُ مجلسي

أمين الريحاني

لمن المحافل جمَّة الوفَّاد جلّ المقام بها عن الإنشادِ
من زان صدر المجلس الأعلى وقد طفح الجلال بحيث فاض النادي
من صاحب السّمة التي دلت على أدب الحضارة في جمال البادي
يا نجل سوريًّا وتلك مزيةٌ شهدت بها بمهارة الأولاد
في كل يوم للمحافل رنة لك من نيويورك إلى بغداد
ما قدر هذا الاحتفال وإنما كلّ الزمان محافل ونوادِ
تعداد مجد المرء منقصة إذا فاقت مزاياه عن التعداد

* * *

يا كاشف الآثار زوّد أهلها وكفت بذورك عندهم من زاد
رحماك بالأمم الضعاف هوت بها إحنٌ فمدّ لها يد الإسعاد
وأشفق على تلك الجوانح إنها حنيت أضالعها على الأحقاد
وحّد بدعوتك القبائل تهتدي عن غيّها ولكل شعب هادي
إقرأ على مصر السلام وقل لها حيّيت رباك روائح وغوادي
لا توحشي دار الرشيد فإنها وقف على الإبراق والإرعاد
وتصافحي بيد الإخاء فهذه كف العراق تمد حبل وداد
لا ترهبنّك قسوة من غاصب عات فإن الحق بالمرصاد
لا تخدعنّك حلية موهومة ما أشبه الأطواق بالأقياد
ما أنصفوا التاريخ وهو صحائف بيض نواصع لفِّعت بسواد

الشاعر

لا أريد «الناي» إني حامل في الصدر نايا
عازفاً آناً فآناً بالأماني والشكايا
البلايا أنطقته سامح الله البلايا
حافظاً كلّ الذي مرّ عليه كالمرايا
سيء الحال ولكن حسنتْ منه النوايا
حجز الهمُّ على أنفاسه إلا بقايا
أفلتتْ في نظراتي شائعات في البرايا
ترقص الفتيان إن غنيت فيه والفتايا
هو ورْدي في صباحي وصلاتي في مسايا
معجز تهييجه كـ لّ المغنين سوايا

أدركتْ ظاهره النـ ـاس وأدركتُ الخفايا

* * *

رنة المعول في الحـ ـفرة صوت للمنايا

كومة للرمل أم جمجمة طارت شظايا

حمل الناس سكوناً وجلالاً في الحنايا

شاعراً أدركه المو ت غريباً في الزوايا

سبر الأفق بعين أدركت منه الخبايا

فانبرى يوحي إلى النـ ـاس من الأسرار آيا

ثمّ أغفاها وفي النفـ ـس ميول ونوايا

* * *

قال لما لقَّنوه: أنا لا أملك رايا..

لست أدري ما أمامي.. لست أدري ما ورايا..

لا أرى من شيّعوني منكمُ إلا مطايا..!

رجعت، إذ لم يجد سا ئقها للسير غايا..

حزن الشيخ ولكن ضحكت منه الصبايا

شوقي وحافظ

يا للرفاق ومثل ما كابدته مما ألاقي كابدته رفاقي

وطني نقيض شكوله فرجاله شابوا وما شبّوا عن الأطواق

عتق النجار يبين بين خيوله أما الرجال به فغير عتاق

ضرب الأسى سوراً عليه، وأحدقت سود الحوادث أيما إحداق

إيه خليلي لا ترزني طامعاً في منطقي فيريبك استنطاقي

فلقد أكون وما غلقن مقاولي ... واليوم وهي كثيرة الإغلاق
إن أطو يلتهب الضمير، وإن أبح ... يوماً ففوق يدي يد الإرهاق
مم التعجب صاحبيَّ وإنما ... قسم الحظوظ مقسّم الأرزاق
والحذق في سبك القريض وصوغه ... متفاوت كتفاوت الحذاق
وأجلّ ما ترك الفتى من بعده ... أثر على مرّ الليالي باق
لا يفخرن أحدٌ عليّ بشعره ... الفخر مدّخر ليوم سباق
«شوقي وحافظ» لا يجسّ سواكما ... نبض القريض وما له من واق
لكما الخيار إذا الرجال تنافسوا ... أو حرروا دعوى بلا مصداق
إن تقتلا أو تحرقا متشاعراً ... أو تقطعا يد شاعر سرّاق
هل تحكمان اليوم حكماً عادلاً ... خلْواً من الإرهاب والإشفاق
في شاعر لزم البيوت وأخفقت ... منه المآرب أيما إخفاق
لكما شكا ظلم العراق، وذلة ... أن يشتكي ظلم العراق عراقي
أهدى سواي نفيسه، وأنا الذي ... أهدي إليه نفائس الأعلاق

سبيل الجماهير

لو أن مقاليد الجماهير في يدي ... سلكت بأوطاني سبيل التمردِ
إذن علمتْ أن لا حياة لأمة ... تحاول أن تحيا بغير التجدد
لو الأمر في كفي لجهزت قوة ... تعوّد هذا الشعب ما لم يعوّد
لو الأمر في كفي لأعلنت ثورة ... على كلّ هدام بألفي مشيّد
على كلّ رجعي بألفي مناهض ... يرى اليوم مستاءً فيبكي على الغد
ولكنني أسعى برجل مؤوفة ... ويا ربما أسطو ولكن بلا يد
وحولي برّامون ميناً وكذبة ... متى تختبرهم لا ترى غير قعدد

لعمرك ما التجديد في أن يرى الفتى يروح كما يهوى خليعاً ويغتدي
ولكنه بالفكر حرّاً تزينه تجاريب مثل الكوكب المتوقد

* * *

مشت إذ نضت ثوب الجمود مواطن رأت طرحه حتماً فلم تتردد
وقرّت على ضيم بلادي تسومها من الخسف ما شاءت يدُ المتعبد
فيا لك من شعب بطيئاً لخيره مشى وحثيثاً للعمى والتبلّد
متى يُدعَ للإصلاح يحرم جماحه وإن قيد في حبل الدجالة ينقد

* * *

زر الساحة الغبراء من كلّ منزل تجد ما يثير الهمّ من كلّ مرقد
تجد وكْر أوهام، وملقى خرافة وشتى شجون تنتهي حيث تبتدي
هم استسلموا فاستعبدتهم عوائد مشت بهمُ في الناس مشي المقيّد

بديعة

هزي بنصفك واتركي نصفاً لا تحذري لقوامك القصفا
فبحسب قدّك أن تسنده هذي القلوب، وإن شكت ضعفا
أعجبت منك بكلّ جارحة وخصصت منك جفونك الوطفا
عشرون طرفاً لو نجمِّعها ما قسمت تقسيمك الطرفا
ترضين مقترباً ومبتعداً وتخادعين الصف فالصفا
أبديعة ولو لأنت مقبلة تستجمعين اللطف الظرفا
ولأنت إن أدبرت مبدية للعين أحسن ما ترى خلفا
هزي لهم ردفاً إذا رغبوا ودعي لنا ما جاور الردفا
ملء العيون هما وخيرهما ما يملأ العينين والكفا

وكلاهما حسن وخيرهما ما خف محمله وما شفَّا
هذا يرفُّ فلا نحس به ويهزنا هذا إذا رفا
وتصوري إن قد أتت فرص تقضي بخطف كليهما خطفا
فبدفتيه ذاك يبهضنا في حين ذاك لرقة يخفى
ونكلّ عن هذا فنطرحه ونحلّ هذا الجيب والرفا
ونزوره صبحاً فنلثمه ونضمه ونشمه ألفا
ونبلّه بدم القلوب، وإن عزّت، وننعشه إذا جفا

الجزائر

ردّي علقم الموت لا تجزعي ولا ترهبي جمرة المصرعِ
فما سعرت جمرات الكفا ح لغير خليق بها أروع
ولا تهِني إن سوم الفخا ر يشق على الهين الطيع
دعي شفرات سيوف الطغاة تطبق منك على المقطع
فأنشودة المجد ما وقعت على غير أوردة قطَّع
وخلّي النفوس العذاب الصلاب تسيل على الأسل الشرّع
فسارية العلم المستقل بغير يد الموت لم ترفع
ومدي يداً لمجرّ النجوم وأخرى إلى الجدث البلقع
فإنك والموت دون الحياض صنوان للشرف الأرفع
ردي علقم الموت بئس الحياة ترنق بالذل من مكرع

بورسعيد

يا معدن الخسة من تقاتل وفوق مَن تساقط القنابل؟
أأصيداً يذود عن أوطانه أم حرّة عن عرضها تناضل؟

أم هم عجوز ترتمي.. وصبية ومقعد، ومرضع، وحامل؟

وفيم أنت والغراب صاعد ومم أنت والوباء نازل؟

يا معدن الخسة ثم معبد فيه إله تدعيه ماثل

ومعهد يمد في حضارة هنا زهت والكون غرّ خامل

ومصنع تعيل في أكنافه أطفالها عاملة وعامل

يا معدن الخسة نكّس علماً تطهرتْ من لمسه الأنامل

رفّ على الشمس فغطى نورها بخزيه.. وهو بخزي آفل

واطو «شعاراً» أفرخ الغيّ به وامتهنت عاليه الأسافل

يفدي براثن «الهزبر» مُصْحراً الأسد المزيف المخاتل

وخط المشيب

مشى وخط المشيب بمفرقيه وطار غراب سعد من يديه

وراحت من زهاها أمس حباً تقول اليوم: وا أسفي عليه

تبدّل غير رونقه ولاحت تضاريس السنين بأخدعيه

رماداً خلته لولا بقايا توقُّد جمرتين بمقلتيه

أهذا من به فتنتْ كعابٌ ومن سحر النديّ بأصغريه

أهذا تائهاً من نقَّلته على الأحداق أحلى خطوتيه

ومن أصبى «فلانة»! وهي خدر دم العشاق يصبغ جنبتيه

* * *

مشى وخط المشيب به كأن لم يرجل داهناً من لمّتيه

ولم يتخط أهليها إليها ولم تتخط أهليه إليه

ولم يحسد لحظوته لديها ولم تُحسد لحظوتها لديه

ولم تنضب مراشفها فتظمأ لفرط تذوّب في مرشفيه

* * *

مشى وخط المشيب به فألوى بأيكته.. وعاث بوجنتيه
وئيد خطى كأن عذاب جيل تخيَّره.. فحط بمنكبيه
ومنزوفاً كأن يد الليالي بمبضعها تفصِّد أكحليه
وأخلى ملعب الصبوات منه وبدّل مشرقيه بمغربيه
وقرّب من منيته.. وخوف لقرب الموت شرّ منيتيه!

* * *

سقيت الغيث يا زمن التصابي ويا حسناً بأقبح صورتيه
ويا نهراً يسيل دماً وخمراً حسوْنا ذا وذا من ضفتيه
ويا سيفاً نجرّ حمالتيه ونركب حين نجمع شفرتيه

* * *

مشى وخط المشيب به فرنَّت مناحة ثاكليه بمسمعيه
وراح يصيح عن ألم ورعب إلى واه مرجّعة.. وويه
فسوّت لحده كلتا يديه مشى وخط المشيب بمفرقيه

رباعيات

(بغداد) في الصباح..

صفق الديك وقد زعزعه الفجر وألوى بالصياح
ومشى النور على الحقل وفوق الدرب يزهى والبطاح
آه ما أروع «بغداد» وأحلاها على ضوء الصباح
غسلتْ كف السنا كلّ الجراحات بها حتى جراحي

قلت وقال..

قلت للشيخ ارتضى العمة رزقاً والقميصا
غطّيا منه صغار الفكر والنخوة والرأي المحيصا
كيف عرّيت من الدين بما زورت.. روحاً ونصوصا
قال: ما بالك أمسكت تلابيبي وأعفيت اللصوصا

قصد.. وقصد

نظرتْني وإذ رددتُ لها النظـ ... رة عجلى راحت تضرج خدا
وبدت كالذي تعمّد شيئاً ... لم يصبه فأخطأ القصد عمدا
أنا أدري بقصدها خالت الشيـ ... ب برأسي لها سلاما وبردا
ومراحاً لمقلتيها ولكن ... وجدت مقلتيّ أفصح قصدا

المناجاة

يا لخديك ناعميـ ... ن يضجان بالسنا
ولجفنيك ناعسيـ ... ن مشا فيهما الونى
يا شفائي.. وبي ضنى ... حبذا أنت بالمنى
حبذا أنت في الهوى ... من عقابيل تقتنى

***

بأبي أنت لا أبي ... لك كفؤ.. ولا أنا
من مميت إذا نأى ... ومخيف إذا دنا
أختشي فقده هنا ... ك وهجرانه هنا
أرقب الصبح موهناً ... ودجى الليل موهنا
لا صدى هاتف يرن ... ولا الجرس مؤذنا
وأصالي على الطريـ ... ق.. وجوهاً وأعينا

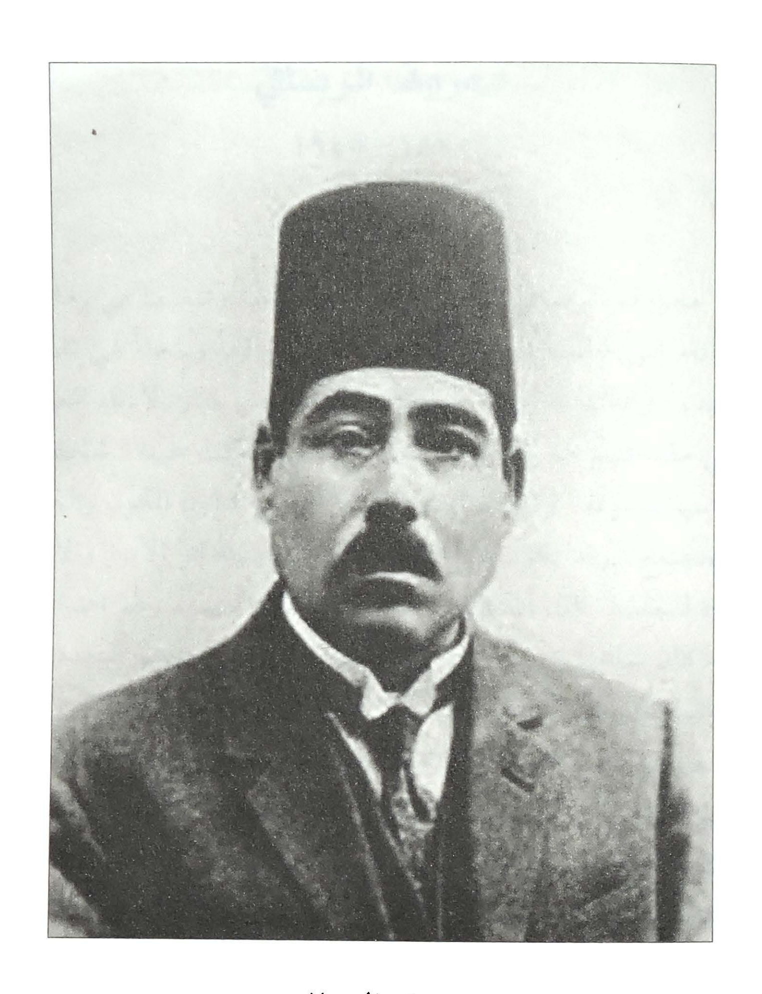
ظـنـة أن يـكـون أنــ ت وحـسـبـي تـظـنـنـا
إنـمـا الـحـب جـنـة كفوها من (تـجـنـنـا)
وإذا ما انتهى الـهـوى فـتـنـة كـان أفـتـنـا

* * *

أنـت يـا مـرّة الـطـبـا ع ويـا حـلـوة الـجـنـى
كـم تـوديـن لـو خـنـقـ ت صدى الحب بيننا
وتـحـيّـنـت قـبـره وهـو حـيّ لـيـدفـنـا
أنـت يـا مـن تـركـتـني بالـجـراحـات مثخنا
لا وعـيـنـيـك لـم أجـد فيك للطعن مطعنا
لا جناح . . وإن مشى الضر بي منك والعنا
كـلّ شـوك زرعـتـه ثـمـر مـنـك يـجـتـنـى
أنا- ما خفت - واجدٌ بـيـن نـهـديـك مـأمـنـا

* * *

بـالـذي صـاغ واعتنى وبـنـى مـنـك مـا بـنـى
وتـبـنـاك «مـقـطـع» مـسـتـعـاداً فـأحـسـنـا
والـذي شـاء أن يـكـو ن لـك الـقـتـل ديـدنـا
فـتـفـدّاك بـالـضـحـا يـا فـرادى . . وبـالـثـنـى
والـذي لـم يـدنـك إذ دان كـلًّا بـمـا جـنـى
حلفة الصابر ارتضى مـا يـلاقـي فـأذعـنـا
لـو تـتـوجـت بـالـدنـى لم يكن عنك لي غنى
خـلـق الـوجـد والأسـى لـيـكـونـا كـمـا أنـا



معروف الرصافي

معروف الرصافي

١٨٧٥- ١٩٤٥

معروف الرصافي شاعر كبير، ملأ الدنيا وشغلها في زمانه. وكان، إلى جانب شهرته كشاعر، أديباً وناقداً وباحثاً في تاريخ الأدب. وكانت له آراؤه وسجالاته مع عدد من كبار الأدباء العرب وفي مقدمتهم طه حسين. لكنه كان، في الوقت عينه، شخصية سياسية مرموقة. وكان صاحب فكر ورأي في شؤون الكون والحياة والمجتمع. وقد يكون هذا الجانب من شخصيته هو الأبرز والأكثر إثارة للجدل. ذلك أن النقاد اختلفوا في تقييم شعره، رغم اعترافهم بأنه كان شاعراً كبيراً. لكن الأساسي في شخصيته هو التعدد في جوانبها التي تشابكت وتناقضت في سيرته وخلقت له المتاعب. وكان الشعر، بالنسبة إليه، وسيلته الأرحب إلى إعلان مواقفه السياسية ومواقفه في كل الشؤون الأخرى التي شغلته، باستثناء كتابه «الشخصية المحمدية» الضخم الذي أعطاه جهداً كبيراً في البحث والتدقيق، وفي استخلاص آرائه من هذين البحث والتدقيق اللذين اعتبرهما بجرأة حقاً له لا ينازعه فيه أحد.

يقول الكاتب العراقي نجدة فتحي صفوت في المقدمة التي وضعها لكتاب الرصافي «أفكار وخواطر» وشملت سيرة حياة الشاعر: «**إن مكانة الرصافي الأدبية والشهرة الواسعة التي حصل**

عليها في زمانه، لم تكن بما أدخله على الشعر وأساليبه من تجديد، أو ما ابتدعه من أشكال أدبية لم يسبقه إليها سابق من الأدباء والشعراء. بل أن ميزته الحقيقية تكمن في طبيعة الموضوعات التي تناولها، والجرأة التي عالج بها تلك الموضوعات في بيئة كانت التقاليد - من أدبية واجتماعية وسياسية - محيطة بها من كل جانب».
وقد تجسدت هذه الجرأة عند الرصافي في مواقفه وآرائه وفي أفكاره وفي المبادئ التي اعتنقها. كما تجسدت في اعتماده سلاح النقد للسائد من الأفكار والتقاليد والأنظمة والسياسات.

ولد الرصافي في عام ١٨٧٥ في بغداد، في عهد السلطان العثماني عبد العزيز. وكان أبوه عريفاً في الجيش العثماني. وهو كردي الأصل من عشيرة الجبارة أو الجبارية في محافظة كركوك. دخل في سلك الدرك الذي كان يتولى المحافظة على الأمن خارج المدن. لذلك كان كثير الأسفار. ولم يكن ابنه معروف يراه إلا لماماً. فعنيت الوالدة برعاية الإبن. ولم تلد سواه. فتعلقت به وتعلق بها.

واظب معروف على الذهاب إلى الكتَّاب. فحفظ القرآن وتعلم مبادئ الكتابة. ثم انتقل إلى المرحلة الإبتدائية من دراسته. لكنه تركها بعد ثلاث سنوات، وانتسب إلى إحدى المدارس الدينية. ثم التحق بحلقة دراسية كان يقودها الشيخ محمود الألوسي. وتلقى على هذا الشيخ علوم الدين والفقه وعلوماً أخرى كاللغة والمنطق. وظل يتابع الدراسة على أستاذه الألوسي على امتداد اثنتي عشرة سنة. ومارس نظم الشعر ابتداءً من تلك المرحلة من شبابه. انتقل بعد ذلك إلى التدريس في المدارس الأولية. وظل يتدرج في مهنة التعليم حتى أصبح مدرساً في المدارس الثانوية. وكان لا يزال يرتدي العمامة

البيضاء والجبة ويرسل لحيته. وظل يمارس التدريس في المدراس الثانوية حتى عام ١٩٠٨، العام الذي أعلن فيه الدستور الثاني للسلطنة العثمانية على يد «جمعية الإتحاد والترقي». وكان الرصافي في تلك الفترة قد أصبح شاعراً معروفاً في العراق، وفي البلدان العربية. وكان ينشر قصائده في المجلات العربية المعروفة، ومنها مجلات «المقتبس» و«المؤيد» و«المقتطف» و«الرسالة» و«العرفان». وأخذ النقاد يهتمون به كظاهرة جديدة في الشعر السياسي تحديداً. إذ كانت قصائده منذ البداية تتناول قضايا سياسية. وكان من بين قصائده تلك، قصيدته التي حيّا فيها الحدث السياسي العثماني المتمثل بإعلان الدستور الجديد. ومعروف أن هذا الحدث التاريخي كان قد لقي استقبالاً كبيراً في الأوساط السياسية جميعها في السلطنة العثمانية بمكوناتها القومية المختلفة. ورحبت به القوى العربية التي رأت فيه أملاً بموقف جديد يعطي للعرب بعضاً من حقوقهم. ولم يمض وقت قصير حتى أنشأت «جمعية الإتحاد والترقي» جريدة في بغداد باللغتين العربية والتركية أعطيت اسم «بغداد». واختير الرصافي لمنصب رئيس التحريرفيها . وكان قد خلع العمامة والجبة واللحية وصار مدنياً.

واصل الرصافي عمله الصحافي والأدبي شعراً ونقداً أدبياً وأبحاثاً ومحاضرات. وواصل نشاطه السياسي مستخدماً سلاح النقد للحكومات المتتابعة ولسياساتها. وكان من أوائل الذين نادوا بخلع السلطان عبد الحميد. وكان من أوائل من نادوا بالجمهورية. وهو ما عبر عنه في إحدى قصائده التي يقول فيها:

كيف القرار على أمور حكومة ... حادت بهن عن الطريق الأمثل

في الملك تفعل من فظائع جورها ... ما لم تقل، وتقول ما لم تفعل

أبت السياسة أن تدوم حكومة ... خصّت برأي مقدس لم يُسأل

يا أمة رقدت فطال رقادها هبّى، وفي أمر الملوك تأملي
إن الحكومة وهي جمهورية كشفت عماية طلب كل مضلّل

لكن نقده للسلطات لم يؤثر على علاقاته ببعض أركانها، لا سيما في «جمعية الإتحاد والترقي»، حتى بعد أن نكثت بوعودها في إعطاء العرب حقوقهم. إذ هي مارست عليهم، بعكس ما وعدت، عملية التتريك المعروفة. الأمر الذي أحدث طلاقاً كاملاً بينها وبين الجمعيات العربية التي كانت تحمل في مواقفها القضية العربية، حتى ولو لم تكن قد بلغت حد المطالبة بالإستقلال عن السلطنة. لكن تلك الحركة العربية سرعان ما اتخذت مع الوقت طابعاً أكثر وضوحاً، تمثل في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس في عام ١٩١٣، وأعلن الطلاق شبه الكامل بين العرب وبين العثمانيين. غير أن الرصافي الذي كان على علاقة حميمة مع تلك الحركة العربية المطالبة بالحقوق العربية داخل السلطنة العثمانية، سرعان ما اتخذ موقفاً سلبياً منها بعد مؤتمر باريس. وناهضها واتهمها بالعمالة للمستعمرين الفرنسيين والإنجليز. واتخذ الموقف ذاته من ثورة أمير مكة الشريف حسين. وكان في موقفه ذاك شديد الإلتباس في التناقض بين انتمائه إلى الحركة المطالبة بالإستقلال، وبين بقائه أسير العلاقة مع السلطة العثمانية. إلا أنه حين قامت ثورة العشرين في العراق ضد الإنجليز، الذين كانوا قد احتلوا هذا البلد العربي في عام ١٩١٧ قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى وانحلال الأمبراطورية العثمانية، لم يتأخر في الانضمام إليها وصار واحداً من شعرائها. وكان بذلك يمارس موقفه المعلن والدائم ضد الاحتلال. وهو الموقف الذي استمر عليه على امتداد أعوام حياته. واتخذ، استناداً إلى موقفه ذاك

موقفاً معارضاً للملك فيصل الأول، الذي كان قد نصبه الإنجليز ملكاً على العراق في عام ١٩٢١.

تنقل الرصافي في حياته السياسية، في المرحلة السابقة على انهيار السلطنة العثمانية، بين بغداد والأستانة. كما تنقل في المناصب السياسية والصحافية، فدخل النيابة، وعمل في صحف عديدة. لكن شعره ظل وسيلته المفضلة لإبداء آرائه ومواقفه من مختلف الشؤون السياسية والإجتماعية والفكرية. وكان ذلك شأنه في الفترة التي أعقبت تأسيس العراق الجديد، بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية وتولي فيصل الملك في العراق في ظل الإحتلال الإنجليزي. دخل مجلس النواب أكثر من مرة. كما تنقل في التدريس وفي العمل الصحفي، من مكان إلى آخر، ومن حالة إلى أخرى. وتنقل في البلدان العربية بين دمشق وبيروت والقدس. وكانت تسبقه إلى كل تلك الأماكن قصائده التي كانت تحمل ثورته التي توزعت في اتجاهات مختلفة. وظلت تلك القصائد في جميع الأحوال معادية للإنجليز، ومناهضة للملك فيصل، ومطالبة بالتغيير. وقد وصل به الأمر في بعض قصائده، دفاعاً عن الفقراء ونقداً لأهل السلطة، إلى الدعوة لاعتناق البلشفية:

يا قوم خلوا الفاشية إنها ... في سائسين فظاظة وتعجرف
للإنجليز مطامع ببلادكم ... لا تنتهي إلا بأن تتبلشفوا

ويقول في قصيدة أخرى:

إنما الحق مذهب الإشتراكية فيما يختص بالأموال
مذهب قد نجا إليه أبو ذر قديماً في غابر الأجيال

وفي البيت الأول «لحن»، أي خلل في الوزن، برز في أبيات

أخرى له في أكثر من قصيدة من قصائده. ولا أدري إذا كان ذلك خطأ من الرصافي أم من الذين نقلوا شعره. وهو ما لا أستطيع أن أجيب عنه.

ولأن الرصافي كان ثائراً ومتمرداً فقد كانت سيرته تثير الكثير من الأسئلة حول حقيقة مواقفه، وحقيقة ما كان يريده في حياته. ويتساءل بعض الدارسين لسيرته عما إذا كان قد سعى للوصول إلى منصب وزاري لم يوفق في الحصول عليه، أم أنه كان في الأساس مجرد ثائر ضد أوضاع سياسية واجتماعية وضد تقاليد كانت تشكل بالنسبة إليه مظهراً من مظاهر التخلف الذي لم تشف منه البلدان العربية. لكن هذه التساؤلات تبقى ثانوية في نظري إذا ما نحن قرأنا مجموع شعره، وقرأنا في هذا الشعر عناصر الثورة والتمرد، وإذا ما نحن قرأنا بعض كتاباته التي وصل فيها إلى حد التناقض مع السائد من الأفكار والخرافات كانت تلصق بالدين. وقد أثارت تلك الكتابات والقصائد حملة شعواء عليه من قبل بعض رجال الدين الذين اتهموه بالكفر والإلحاد.

وقد اضطر الرصافي إلى استخدام كل الوسائل لإنقاذ نفسه من تلك التهم ومن تلك الحملة الشعواء عليه. وساعده في ذلك عدد من أصدقائه من ذوي النفوذ في العراق.

وتشير بعض نماذج من قصائده إلى فلسفته وإلى حيرته وشكوكه وإلى دعوته أبناء أمته للنهوض من كبوتهم وللخروج من تقاليدهم وللذهاب بحرية إلى المستقبل. وهذه بعض نثرات من شعره.

يقول في إحدى قصائده:

من أين من أين يا ابتدائي ثم إلى أين يا انتهائي؟

أمن فناء إلى وجود ومن وجود إلى فناء؟

أم من وجود له اختفاء — إلى وجود بلا اختفاء؟
خرجت من ظلمة لأخرى — فما أمامي وما ورائي؟
ما زلت من حيرة بأمري — معانق اليأس والرجاء

ويقول في قصيدة أخرى:

أحبّ الفتى أن يستقلّ بنفسه
فيصبح في أفكاره مطلقاً حرا
وأكره منه أن يكون مقلّداً
فيحشر في الدنيا أسيراً مع الأسرى
وما هذه الأوطان إلا حدائق
بها تنبت الأفكار من أهلها زهرا
وما حبّها إلا لأجل تحرر
يكون إلى العلياء بالماس منجرا
وما حسنها إلا بأن سماءها
تضاحك من أحرارها أنجماً زهرا
إذا كان في الأوطان للناس غاية
فحرية الأفكار غايتها الكبرى
فأوطانكم لن تستقلّ سياسة
إذا أنتم لم تستقلوا بها فكرا

وواضح من هذه النماذج من شعر الرصافي توقه إلى الحرية ونقده للتقاليد ودعوته إلى التحرر وإلى النهوض. وقادته مواقفه السياسية والفكرية والإجتماعية والوطنية إلى أن يصبح ذائع الصيت مشهوراً في العالم العربي.

ورغم أن علاقة صداقة ربطته بالشاعرين العراقيين جميل صدقي الرهاوي ومحمد مهدي الجواهري، إلا أنه اختلف معهما في السياسة وفي الشعر وفي الأدب. كما قامت بينه وبين أمين الريحاني علاقة صداقة بدأت لدى زيارة الأخير إلى بغداد حيث حيّاه بقصيدة. ثم أنه تعرف إلى أدباء عرب آخرين. وظل إسماً لامعاً في الحياة الأدبية على امتداد حياته. وكان من أطرف مساجلاته ذلك السجال الذي أقامه مع طه حسين حول أبي العلاء المعري. فقد عارض في كتاب له يحمل عنوان «على باب سجن أبي العلاء» أفكار وآراء طه حسين في أبي العلاء التي وردت في كتابه «مع أبي العلاء في سجنه». والسجال متعدد المواضيع والجوانب المتصلة بمواقف أبي العلاء، لا سيما في ديوانيه «الروميات» و«سقط الزند». ولعل من أبرز ما جاء في اعتراض الرصافي على آراء طه حسين ما يتصل بموضوع التشاؤم في شعر أبي العلاء الذي أرجعه طه حسين إلى اليأس الذي عاش فيه المعري ووضعه في العزلة التي أنتج فيها هذين الديوانين من الشعر. ويرد الرصافي على طه حسين قائلاً بأنه إذا كان التشاؤم تعبيراً عن اليأس، فإن اليأس لا ينتج أفكاراً. في حين أن المعري قد أنتج أفكاراً عظيمة في ديوانيه هذين تجلت فيها فلسفته في الحياة.

على أن للرصافي، إلى جانب شعره وأبحاثه الأدبية التي قدمها في محاضراته وخلال تدريسه الأدب وتاريخه، أبحاثاً فكرية واجتماعية وخواطر ذات أهمية كبيرة. ومن أهم كتبه كتاب «الشخصية المحمدية» الذي ظل مخطوطاً حتى مطالع الألفية الثالثة. وهو كتاب يدرس فيه الرصافي شخصية النبيّ العربي كإنسان، من دون أن يتجاوز صفته النبوية، معتمداً في دراسته للنبي على ما جاء في القرآن: « . . **وما أنا إلا بشر مثلكم يوحى إليّ**». وقد بنى الرصافي

على ذلك النص القرآني حقه في أن يقرأ الملامح الخاصة لشخصية النبي كإنسان مثل سائر الناس يتميز عنهم بعبقريته الفذة وبأنه صاحب رسالة دينية نبوية، أوحى له الله بها وأمره بأن يكون رسوله إلى الناس مبشراً بالدين الحنيف.

وأقتطف هنا بعضاً من أقوال الرصافي منتقاة في شكل غير متكافئ من عدة فصول من كتاب «الشخصية المحمدية»، أردت منها أن أقدم للقارئ الطريقة التي قرأ فيها الرصافي شخصية النبيّ. هذا النص مأخوذ من الفصل الأول من الكتاب «للحقيقة لا للتاريخ» بعنوان فرعي «محمد». يقول الرصافي: «أعظم رجل عرفه التاريخ. أحدث في البشر أعظم انقلاب عام في الدين والسياسة والاجتماع. وقد أوجد هذا الانقلاب بواسطة نهضة عربية المبتدأ عالمية المنتهى. بدلت مجرى الحياة الإنسانية وحولتها إلى ما هو أعلى مما كانت عليه قبلها حتى أن آثارها في قليل من الزمن عمت الشرق والغرب. ولم تزل آثارها باقية إلى يومنا هذا وستبقى إلى ما شاء الله. إن تلك الشخصية العظمى التي يمثلها شخص محمد بن عبد الله في بني آدم قد اجتمع فيها من عناصر الكمال البشري ما لم يعرف التاريخ اجتماعه في أحد قبله: عزم لا يرده راد، وتفكير عميق الغور بعيد المرمى، وخيال واسع قوي يكاد يقاوم الحقيقة بقوته، وطموح إلى العلى لا يعلو عليه طموح. هذه هي العناصر الأصلية التي تتكوّن منها شخصية محمد، أضف إلى ذلك ما أوتيه من غزارة عقل وثقوب ذكاء، إلا أنه في هذه الناحية لا يفوق إلى المحيط الذي نشأ فيه والعنصر الذي هو منه، أي أن عقليته لا تتجاوز في تفوقها إلا العقلية العربية في زمانه وبيئته. ولئن جاز أن يعلو عليه عال في العقل والذكاء فلا يجوز ولن يجوز أن يفوقه أحد فيما أوتي من صبر

وحزم، وهو مع ذلك بشر يتعاوره من أحوال البشر ما يتعاور كل إنسان. وإذا دحضنا ما جاء به الرواة من الأخبار الملفقة بما يكذبها من العقول ومن آيات القرآن لم نر في حياته ما يخرق العادة ويخالف سنة الله، التي لا تقبل التبديل ولا التحويل، أعني بسنة الله نواميس الطبيعة، بل نرى حياته كلها لم تكن إلا طبق ما تقتضيه سنة الله في خلقه. وبما أنه بشر لا يخلو من معايب، ولا أقول هنا: «كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه»، بل أقول: «جل ما لا عيب فيه وعلا». لأن العبارة الثانية دون الأولى تنص على أن الكمال المطلق هو لله وحده. على أن المعايب البشرية كلها لم تكن معايب لذاتها بل لأمور اقتضتها المصلحة العامة في المجتمع. وإذا كان المرء عاملاً للمصلحة العامة فمعايبه التي تبدو في عمله لا تكون معايب، إذ يجوز أن تقتضي مصلحة العموم أن يعمل عملاً يكون عند الفرد معيباً والفرد لا حكم له في جنب العموم. ثم هي تختلف باختلاف عوائب الناس. فقد يكون الشيء معيباً بالنسبة إلى أحدهم وغير معيب بالنسبة إلى الآخر. وقد قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين. ولا ريب أن الأمور التي تؤاخذ بها شخصية محمد لم تكن معايب إلا بالنسبة إلى تلك الشخصية من المقام الأسمى والمرتبة العليا.

ويقول في هذا الفصل أيضاً تحت عنوان «النتيجة»: «إننا نريد أن نعرف محمداً كما هو. وقد تقدم أن القرآن أصبح ما بلّغنا عنه، فيجب أن نعتمد عليه في معرفة محمد أكثر من غيره. أما كتب الحديث والسير فلا يجوز الإعتماد عليها إلا بعد أن نضعها في غربال منسوج من العقول ومن القرآن فنغربلها. فما سقط منها تركناه وما بقي في الغربال أخذناه. وهذا ما نريد أن نعمله في هذا الكتاب».

ويقول في الفصل ذاته تحت عنوان «ذكاؤه»: «... هذا ما

أوردناه من شواهد على العقلية المحمدية من حيث هي مصدر للحجة. وهنا نورد لك بعض الشواهد عليها أيضاً من حيث أنها مصدر للإنتباه وسرعة الفهم. كان محمد شديد الفطنة، شديد الإنتباه لما يجري حوله من الأمور. فلا يفوته من الذين حوله همسهم ولا ما يبدو على وجوههم من علامات السخط والرضى. وكان جلّ نظره الملاحظة. يراقب أصحابه وينظر إلى من حوله بمؤق العين. فتراه ينظر وكأنه لا ينظر. وكان شديد الفراسة. إذا نظر إلى وجه أحد يكاد يعرف ما في ضميره».

ويقول في فصل بعنوان «محمد قبل النبوّة» تحت عنوان فرعي «فكرة النبوّة وكيف حصلت لمحمد»: «قبل كل شيء يجب أن نعلم أن محمداً كان قبل النبوة خارجاً على التقاليد الموروثة الكائنة عند قومه لأنه كان، كما قلنا سابقاً، ممن يغلب عقله الفطري على عقله المكتسب، (انظر مقالنا العقلية العربية في الجاهلية)، وكل من كان كذلك مفكراً حر التفكير، لأن الإنسان لا يمنعه من التفكير في الأمور إلا التقاليد الموروثة والعادات المألوفة التي هو خاضع لها والتي منها تتكون له عقلية مكتسبة بها يتعقل الأمور حتى يكون بحيث لا يرى الأمر معقولاً إلا إذا كان موافقاً لتلك التقاليد وتلك العادات، فتكون حينئذ عقليته المكتسبة قد تغلبت على عقله الفطري ومنعته من التفكير في الأمور».

أما كتابه المهم الآخر فهو «خواطر وأفكار» الذي يتبنى فيه آراءاً ومواقف وتأملات متنوعة في قضايا مختلفة. منها ما هو ساذج وعفوي ومنها ما هو عميق في الفكر. وبعضها يتصل بأحداث تاريخية. ومن الأحداث التاريخية التي يتوقف عندها واحدة تتعلق بأصول «الأذان» عند المسلمين وبالتطور الذي لحق بالأذان مضموناً

وشكلاً وأداء في صيغة إضافات من هنا ومن هناك بحسب الفرق الإسلامية. ومنها ما يتعلق بمقتل الحسين بن عليّ في كربلاء. إذ هو يروي أصل القضية معتبراً إياها واحدة من الفتن التي أصابت الإسلام في مراحله المختلفة. لكنه يقول بأن للفرس دوراً في إعادة إحياء عاشوراء بعد أن توقف استذكارها ما يزيد عن ثلاثة قرون. ويتهم بذلك الفرس في إذكاء الفتنة داخل الإسلام. لكن أهم ما في هذه الخواطر والأفكار الفصل الأخير منها الذي يحمل عنوان «الإشتراكية في الإسلام». يقول في مطلع هذا الفصل: « **لو افتكر الإنسان حراً لتجلت له الحقيقة بوجهها الأغر البهيج. أما إذا قيد فكره بأقوال الناس وتقاليدهم فلا يخرج في افتكاره من ظلمة إلا إلى أخرى. وقد تكون الحقيقة أمام عينيه ظاهرة واضحة إلا أنه يراها لغشاوة في بصره من تلك التقاليد. فحرية الفكر هي العامل الوحيد الذي ينتشل المرء من هوة الضلال إلى ذروة الحق والهدى. إذا نظر المسلم الحر الفكر في الإسلام، رأى فيه أموراً تنطبق تماماً على مبدأ الإشتراكية وتماشيه جنباً إلى جنب. منها أنه جعل للفقراء حقاً في أموال الأغنياء. إذ فرض على هؤلاء أن يخرجوا في كل عام من أموالهم مقداراً معلوماً يدفعونه إلى الفقراء وذلك هو الفرض المسمى بالزكاة. ثم أنه لم يترك ذلك لرحمة الأغنياء وعطفهم بل جعل ولي الأمر وهو رسول الله أو الخليفة من بعده، مكلفاً بأخذ هذا المال منهم ورده إلى الفقراء. إذ قال في سورة التوبة ' خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**».

لقد وصل معروف الرصافي، هذا الشاعر والسياسي والمفكر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في زمانه، والذي أمضى حياته في التنقل في المواقف وفي المعارك وفي الوظائف وفي المهمات، في

الأعوام الأخيرة من حياته إلى العزلة والإنزواء والفقر. وكان قد بدأ يمارس المجون إلى أقصى الحدود بعد أن طلق زوجته التركية. وحين غادر الحياة في عام ١٩٤٥ تذكره الأدباء والشعراء وقادة الرأي والسياسيون. واحتفلوا به وكرموا ذكراه. وترك بعد وفاته تراثاً ضخماً من الشعر والفكر والسيرة سيظل ينهل منها كل من كان حريصاً من العرب على الربط الصحيح بين ماضي تاريخنا وبين حاضرنا ومستقبلنا. وخص الرصافي أصدقاءه بوصية متواضعة نثبت فيما يلي نصها: «**أراهم يهيجون عليّ العوام باسم الدين، ولا أظنهم يتركونني حتى يعدموني الحياة وليس لي من ألتجئ إليه سوى الله، وكفى بالله حافظاً وحسيباً. وليس لي من الأقارب من أعهد إليهم بوصيتي سوى معارفي من الأصدقاء الأحرار من أهل البلاد. فلذا أكتب هذا إليهم عسى أن يقوموا بتنفيذه ولهم من الله الأجر. كل ما كتبت من نظم ونثر لم أجعل هدفي منه منفعتي الشخصية، وإنما قصدت به منفعة المجتمع الذي عشت فيه، والقوم الذين أنا منهم، ونشأت بينهم. فلذا لم أوفق إلى شيء في حياتي يسمى بالرفاهية والسعادة في الحياة. لا أملك سوى فراشي الذي أنام فيه، وثيابي التي ألبسها. وكل ما عدا ذلك من الأثاث الحقير الذي في مسكني ليس لي. بل هو مال أهله الذين يساكنونني. كل من اعتدى عليّ في حياتي فهو في حل مني. وإن كان هناك من اعتديت عليه فهو بالخيار إن شاء عفا عني. وإلا قضى بيني وبينه الله الذي هو أحكم الحاكمين. أنا - ولله الحمد - مسلم، مؤمن بالله وبرسوله محمد بن عبد الله إيماناً صادقاً لا أرائي فيه ولا أداجل. إلا إني خالفت المسلمين فيما أراهم عليه من أمور يرونها من الدين، وليست هي منه إلا بمنزلة القشور من اللباب. ولا يهمني من الدين إلا جوهره الخالص، وغايته المطلوبة**

التي هي الوصول إلى شيء من السعادة في الحياة الدنيوية الإجتماعية، والحياة الأخروية ما أمكن الوصول إليه من ذلك بترك الشرور وعمل الصالحات. وكل ما عدا ذلك من أمور الدين فهي وسيلة إليه، وواسطة له ليس إلا. بما أن «عبد بن صالح» الذي هو معاوني على العيش في مسكني كنت أنا السبب في زواجه، وقد ولد له بنات صغار، وليس له من أسباب المعيشة والكسب ما يجعله قادراً على إعاشتهن، أرجو من أهل الخير في الدنيا، ومن أصدقائي الكرام الأحرار أن يسعوا في إيجاد شغل له يكسب به ما يقوم بإعاشتهن وإن الله لا يضيع أجر المحسنين. كل ما عندي من الكتب المخطوطة التي كتبتها أنا، تباع لمن يرغب في شرائها على أن يكون له حق الطبع والنشر، ولا يكون لي فيها سوى الإسم. ويدفع المال الحاصل من بيعها إلى بنات «عبد». أدفن في أي مقبرة كانت، على أن يكون قبري في طرف منها. وأن لا يكون في أرض مظلومة وهي التي لم تحفر قبلاً. إن كانت الحياة نعمة سابغة من الله على عباده، فإن الموت رحمة واسعة منه عليهم. فالموت هو رحمة الله الواسعة التي وسعت كل شيء. كل من عليها فانٍ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. المؤمن بالله وحده لا شريك له - معروف الرصافي ».

ويبدو الرصافي في هذه الوصية مصراً على بعض مواقفه القديمة، متجاوزاً بعضها، يائساً من الدنيا، محطم الآمال والأحلام. وهو في ذلك إنما يتساوى مع الكثيرين من أمثاله من كبار أعلامنا ممن أعطوا بلادهم المجد في ميادينه المختلفة، إبداعاً في الفكر وفي الآداب وفي الفنون، وفي النضال السياسي كذلك وغادروا الحياة فقراء منسيين. وتلك، لعمري واحدة من مصائبنا التي لا تحصى!

مختارات من شعره

في مشهد الكائنات

وليل كأن البحر فيه مليحة
أغازلها والنيّرات رقيبُ
سريت به والبحر زهو بجانبي
ورُدنُ النسيم الغض فيه رطيب
فشاهدت فيه الحسن أزهر مشرقاً
له في العلا وجه أغرُّ مهيب
ورحت وأهل الحي في قبضة الكرى
وفي الليل صمت بالسكون مشوب
فكنت كأني أسمع الصمت سارياً
له بين أحشاء الفضاء دبيب
ولو أن صمت الليل لم يك مطرباً
لما هزّ أعطاف النسيم هبوب

* * *

تأملت في حسن العوالم موهناً
فجاش بصدري الشعر وهو نسيب

كأني وعلوى العوالم عاشق
أطل من الأعلى عليه حبيب
فقام له مستشرفاً وبميلة
تشد ضلوعاً تحتهن وجيب
ولما رأيت الكون في الأصل واحداً
عجبت لأن الخلق فيه ضروب
وإن فضاءً شاسعاً قد تضاربت
بأبعاده أيدي القوى لرهيب
وإن اختلاف الآدميين سيرة
وهم قد تساووا صورة لعجيب
وأعجب ما في الكائنات ابن آدم
فما غيره في الكائنات مريب
يذمم فعل السوء وهو حليفه
ويحسد قول الصدق وهو كذوب

العالم شعر

قرأت وما غير الطبيعة من سفْر
صحائف تحوي كل فن من الشعر
أرى غرر الأشعار تبدو نضيرة
على صفحات الكون سطراً على سطر
وما حادثات الدهر إلا قصائد
يفوهُ بها للسامعين فم الدهر

وما المرء إلا بيت شعر عروضُه

مصائب لكنْ ضربه حفرة القبر

وتنظمنا الأيام شعراً وإنما

ترد المنايا ما نظمنا إلى النثر

خواطر شاعر

وللنفس في أفق الشعور مخايل

إذا برقت فالفكر في برقها قطْرُ

وما كل مشعور به من شؤوننا

قدير على إيضاحه المنطق الحر

ففي النفس ما أعيا العبارة كشفه

وقصّر عن تبيانه النظم والنثر

ومن خاطرات النفس ما لم يقم به

بيان ولم ينهض بأعبائه الشعر

ويا رب فكر حاك من صدر ناطق

فضاق من النطق الفسيح به الصدر

ويا رب معنى دق حتى تخاوصت

إليه من الألفاظ أعينها الخُزر

أرى اللفظ معدوداً فكيف أسومه

كفاية معنى فاته العد والحصر

وأفق المعاني في التصور واسع

يتيه إذا ما طار في جوّه الفكر

ولولا قصور في اللغى من مرامنا

لما كان في قول المجاز لنا عذر

ولست أخص الشعر بالكلم التي

تنظم أبياتاً كما ينظم الدر

وذاك لأن الشعر أوسع من لغى

يكون على فعل اللسان به قُصر

وما الشعر إلا كل ما رنّح الفتى

كما رنّحت أعطاف شاربها الخمر

وحرّك فيه ساكن الوجد فاغتدى

مهيجاً كما يستن في المرح المهر

فمن نفثات الشعر سجع حمامة

على أيكة تشجي المشوق لها هدر

ومن شذرات الشعر حوم فراشة

على الزهر في روض به ابتسم الزهر

ومن ضحكات الشعر دمعة عاشق

بها قد شكا للوصل ما فعل الهجر

ومن لمعات الشعر نظرة غادة

بنجلاء تسبي القلب في طرفها فتر

ومن جمرات الشعر رنة ثاكل

مفجعة أودى بواحدها الدهر

ومن نفحات الشعر ترجيع مطرب

تعاوز مجرى صوته الخفض والنبر

وإن من الشعر ائتلاق كواكب

بجنح الدجى باتت يضاحكها البدر

وإن لم يكن شعري من الشعر لم يكن

لعمر النهى للشعر عند النهى قدر

في سبيل حرية الفكر

كتبت لنفسي عهد تحريرها شعراً

وأشهدت فيما قد كتبت لها الدهرا

لذاك جعلت الحق نصب مقاصدي

وصيرت سرّ الرأي في أمره جهرا

وأرسلته نظما يروق انسجامه

فيحسبه المصغي لإنشاده نثرا

فجاء مضيئاً ليله كنهاره

وإن كان بعض القوم يزعمه كفرا

أضمنّه معنى الحقيقة عارياً

فيحسبه جهالها منطقاً هجرا

ويحمله الغاوي على غير وجهه

فيوسعني شتماً وينظرني شزرا

رويدك إن الكفر ما أنت قائل

وإن صريح العرف ما خلته نكرا

هل الكفر إلا أن ترى الحق ظاهراً

فتضرب للأنظار من دونه سترا

وأن تبصر الأشياء بيضاً نواصعاً
فتظهرها للناس قانية حمرا
إذا كان في عري الجسوم قباحة
فأحسن شيء في الحقيقة أن تعرى
أحب الفتى أن يستقل بنفسه
فيصبح في أفكاره مطلقا حرا
إذا كان في الأوطان للناس غاية
فحرية الأفكار غايتها الكبرى
فأوطانكم لن تستقل سياسة
إذا أنتم لم تستقلوا بها فكرا
إذا لم يعش حراً بموطنه الفتى
فسمِّ الفتى ميتاً وموطنه قبرا

في حفلة شوقي

أمارس دهراً من جديديَ داهرا
وما زال ليلي بالعراقين ساهرا
أبى الحق إلا أن أقوم لأجله
على الدهر في كل المواطن ثائرا
وأن أتمادى في جدال خصومه
وأقرع منهم بالبيان المكابرا
وإني لأهوى الحق كالطيب ساطعاً
وكالريح هباباً، وكالشمس ظاهرا

ستبقى لنفسي في هواء سريرة
إذا الدهر أبلى من بنيه السرائرا
وتكره نفسي أن أكون مخادعا
لأدرك نفعاً أو لأدفع ضائرا
ومن أجل مقتي للمخانيث أنكرت
يدي أن تُحلَّى في الجنان أساورا
وما العجز إلا أن أكون مكاتماً
إذا ما تقاضتني العلا أن أجاهرا
وما أنا ممن يبهم القول لاحناً
فيضمر فيه للجليس الضمائرا
ولولا طموحي في الحياة إلى العلا
سكنت البوادي واجتنبت الحواضرا

* * *

إذا احتفلت مصر بشوقي فما لها
تقيم على الأحرار في العلم حاجرا
فقد أسمعتنا ضجة أمطرت بها
«عليا» و«طه» حاصباً متطايرا
فما بال هذا عدّ في مصر مارقاً
وما بال هذا عدّ في مصر كافرا
إذا لم تك الأفكار في مصر حرة
فليس لمصر أن تكرّم شاعرا

إلى الأمة العربية

هو الليل يغريه الأسى فيطولُ
ويرخي وما غير الظلام سدولُ
أبيت به لا الغاربات طوالع
عليّ، ولا للطالعات أفول
ولي فيه دمع يلذع الخدّ حرّه
وحزن كما امتد الظلام طويل
نظرت إلى عرض البلاد وطولها
فما راقني عرض هناك وطول
وأرسلت دمع العين فانهل جارياً
له بين أطلال الديار مسيل
أأمنع عيني أن تجود بدمعها
على وطني؟ إني إذن لبخيل
فإن تعجبوا أن سال دمعي لأجله
فإن دمي من أجله سيسيل
وما عشت أني قد تناسيت عهده
ولكن صبري في الخطوب جميل
وإن امرءاً قد أثقل الهم قلبه
كقلبي، ولم يلق الردى، لحمول
أفي الحق أن أنسى بلادي سلوة
وما ليَ عنها في البلاد بديل

أقول لقومي قول حيران جازع
تهيج به أشجانه فيقول
متى ينجلي يا قوم بالصبح ليلكم
فتذهب عنكم غفلة وذهول
ألستم من القوم الألى كان علمهم
به كل جهل في الانام قتيل
لهم همم ليس الظبات تفلّها
وإن كان منها في الظبات فلول
ألا نهضة علمية عربية
فتنعش أرواح بها وعقول
ويشجع رعديد، ويعتد صاغر
وينشط للسعي الحثيث كسول
فإن لم تقم بعد الأناة عُزائم
فعتْبي عليكم، والملام طويل

آل السلطنة

هم يُعدُّون بالمئات ذكوراً ... وإناثاً لهم قصور مثاله
تركوا السعي والتكسب في الدن ... يا وعاشوا على الرعية عاله
يتجلى النعيم فيهم فتبكي ... أعين السعي من نعيم البطاله
يأكلون اللباب من كد قومٍ ... أعوزتهم سخينة من نخاله
وكأن الإله قد خلق النا ... س لمحيا آل السلاطين آله
نعموا في غضارة الملك عيشاً ... وحملنا من دونهم أثقاله

فإذا ما صال العدو خرجنا ... دونهم للوغى نرد صياله
قد رضينا بذاك لولا عتوّ ... أظهروه لنا على كل حاله
ما بهم ما يميزهم عن بني السو ... قة إلا رسوخهم في الجهاله
هم من الناس حيث لو غربل النا ... س لكانوا نفاية وحثاله
ومن الجهل حيث لو صوّر الجهـ ... ل لكانوا بين الورى تمثاله
حمّلونا من عيشهم كل عبء ... ثم زادوا أصهارهم والكلاله
فكفينا أصهارهم مؤنة العيـ ... ش فكانوا ضِغْثاً على إبّاله
فكأنا نعطيهم أجرة البضـ ... ع كما أعطي الأجير العماله
تلك والله حالة يقشعر الـ ... حق منها وتشمئز العداله
هي منهم دناءة وشنار ... وهي منا حماقة وضلاله
ليس هذا في مذهب الاش ... تراكية إلا من الأمور المحاله
وهو في الملة الحنيفية التيـ ... ضاء كفر بربنا ذي الجلاله

بعد براح الشام

قد كنت أنبط القريض قريحة ... بمفاخر العرب الكرام تفيضُ
ولكم وقفت من السياسة موقفاً ... محياي فيه على النوى معروض
مستنهضاً بالشعر قومي للعلا ... إذ كان فيهم فترة وربوض
أيام لم ينطق بذلك شاعر ... قبلي ولم ينشد هناك قريض

* * *

كم مدّع دعواي في وطنية ... أنا كنت أبنيها وكان يقوّض
من كل عبد في السياسة باعه ... وشراه هذا الدرهم المقبوض
تعس المخاصم إن لي لقصائدا ... طرف المعاند دونهن غضيض

لما تكرّهني الأراذل سرّني إني إليهم، يا أميم، بغيض
لا تطلبن من الزمان حقيقة ما للحقيقة في الزمان وميض
وإذا مخضت من الليالي صرْفَها أبدى العجائب صرفها الممخوض
لن تعدم الدنيا الشقاء بأهلها ما دام ملك في البلاد عضوض
ويح الذكاء فقد تأخر أهله حتى تقدم من قفاه عريض
أخزى البلاد مفاسداً بلد به مُقت الأديب وأُكرم العرّيضُ
وإذا الفتى قعدت به أفعاله أعياه بالنسب الرفيع نهوض
والمرء إن عدمت سجيته العلا لم يبتعثه إلى العلا تحريض

أنا والشعر

أرى الشعر أحياناً يجيش بخاطري
ويبذل ما قد عزّ لي من مصونه
ويسكن أحياناً فأشجى وإنما
تحرك شجوي ناشئ من سكونه
وقد أتوخى الهزل منه مجارياً
لدهرٍ أراه موغلاً في مجونه
ولكن نفسي، وهي نفس حزينة،
تميل إلى المشجي لها من حزينه
وإني إذا استنبطته من قريحتي
شفيت صدى الراوي ببرد معينه
وإني على علم طويت سهوله
ولم أتحيّز خابطاً في حزونه

وإنــي لــمــحّــاص لــه بــســلــيــقــة

أبـت غـثَّه واستوثقت من سـمـيـنـه

وهل يخطر الشعر الركيك بخاطري

إذا كان في طوعي اختشاب متينه

إذا انـتـظـمـت أبـيـاتـه في قـصـائـدي

تـرى كـل بـيـت مـمـسـكـاً بـقـريـنـه

وما كان دوح الشعر يوماً لتجتني

بـغـيـر الـيـد الـطـولـى ثـمـار غـصـونـه

ولـم يـسـتـقـذْ إلا لـذي ألـمـعـيـة

يـكـون كـرأي الـعـيـنِ رجم ظـنـونـه

وما الشعر إلا مؤنسي عند وحشتي

ومُسْلـي فـؤادي عـنـد وري شـجـونـه

تـقـوم مـقـام الـدمـع لـي نـفـثـاتـه

إذا الـدهـر أبـكـانـي بـريـب مـنـونـه

ولـلـشـعـر عـيـن لـو نـظـرت بـنـورهـا

إلى الغيب لاستشففت ما في بطونه

هـو الـشـعـر لا أعـتـاض عنـه بـغـيـره

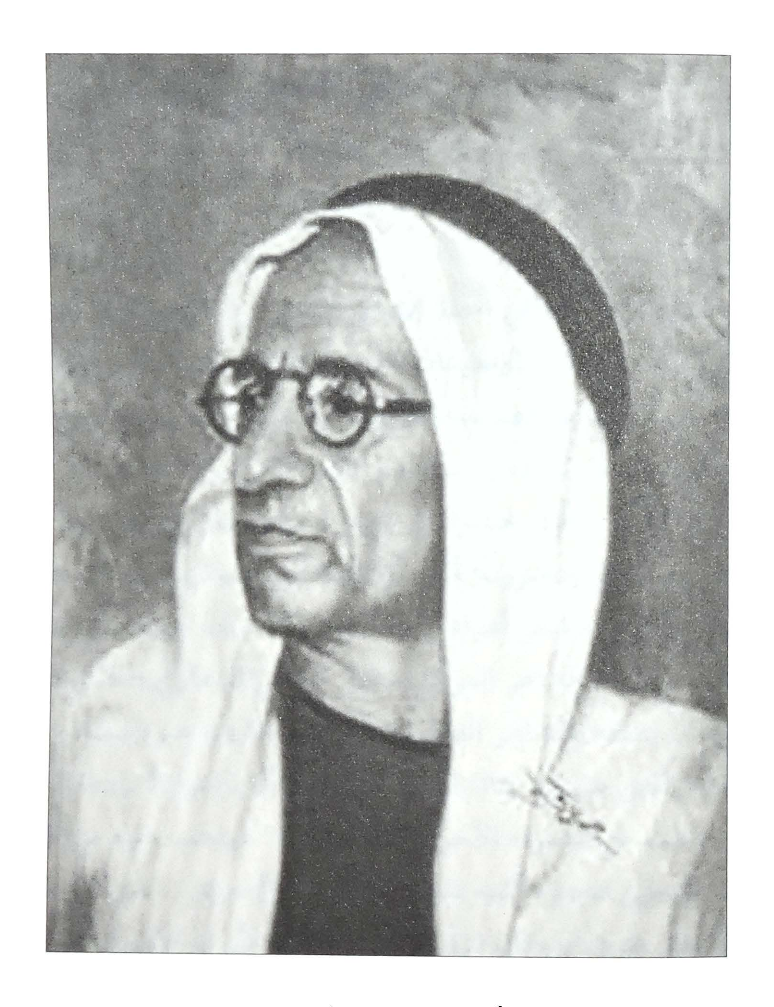
ولا عـن قـوافـيـه ولا عـن فـنـونـه

ولـو سـلـبـتـنـيـه الـحـوادث في الـدنـى

لـمـا عشت أو ما رمت عيشاً بدونه

إذا كان من معنى الشعور اشتقاقه

فـمـا بـعـد لـلـمـرء غـيـر جـنـونـه



أحمد الصافي النجفي

أحمد الصافي النجفي

١٨٩٧ - ١٩٧٧

كان الشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي واحداً من كبار شعراء عصره الممتد من الأربعينات حتى أواخر الستينات من القرن الماضي. انتشرت قصائده ودواوينه في بلدان المشرق العربي، العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن أكثر من البلدان العربية الأخرى. لكن النقَّاد اختلفوا في تقييم شعره. وكان مارون عبود في كتابه «مجددون ومجترون» أكثر أولئك النقَّاد قسوة في الحكم على شعره. إذ اعتبره شعر أغراض ومناسبات لا تربطه صلة بفن كتابة الشعر، وشبَّهه بالشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي، الذي كان يحب أن يصفه بالشاعر الفيلسوف. وكان مارون عبود يسخر من الشعراء الذين يقاربون كتابة الشعر، من دون أن يراعوا الشروط الفنية التي جعلت من الشعراء الآخرين شعراء كباراً. ويذهب عبود في نقده لشعر النجفي فيعتبره أشبه بشعر أبي العلاء المعري، الذي لم يكن شعراً بنظر عبود. بل كان نثراً في شكل الشعر عبَّر فيه فيلسوف المعرة عن فلسفته في الحياة.

يقول مارون عبود في هذا الصدد في كتابه «مجددون ومجترون»:

«... فشاعرنا المعري نظام في أكثر لزومياته، وإن أغرق في حبكها وتقييدها بالقيود والأغلال. أما شاعريته الفذَّة فهي في «رسالته»

(رسالة الغفران). ما أشبه منظوم فلسفة «لزومياته» من بغض إنسان وحب حيوان إلاَّ بألفية ابن مالك. ولولا ما فيها من شعور يكاد يتقد لبرئت منها الشاعرية...».

ويستند عبود إلى هذا التقييم لشعر المعري ليعود إلى الصافي النجفي فيقول في هذا الفصل من كتابه «مجددون ومجترون»: «إنَّ أكثر الذين حدثونا عن الصافي ودلّونا على شاعريته لم ينظروا إلى فنِّه بل عبَّروا لنا عن تأثرهم بأغراضه. فخلعوا على الشاعر جبباً فضفاضة لا يشبهها شيء غير أعطيات ملوكنا في ذلك الزمان أجريت على الشعراء ألوفاً وكرَّات وأعطوهم من الجمل إذنه».

ويتابع عبود في فصل آخر عن الصافي في الكتاب ذاته فيقول: «الصافي شاعر، لكنه شاعر على طريقته هو. لست أشك في أنه لا يستطيع إخراج شعره بغير مظهره هذا، وإنْ رأيناه في «أشعته» و«أغواره» و«تياره» أصح وأبهى ديباجة منه في «أمواجه». فللأمواج زبدها وعفشها ونفشها. أما الأشعة ففيها ضياء ولمعان بمقدار. إنَّ حظ الشاعر من الألوان قليل لأنَّه غير بعيد مرامي الخيال. الصافي شاعر واقع، وواقع كالماء الزلال، وإنْ أسمى ديوانه الصغير «أشعة ملوَّنة» فإنه نظم عفواً. وهو شعر قاله صاحبه في مواضيع شتى، حتى كاد أن يكون مجموعة خواطر التقطتها مخيلة الشاعر حين سنحت. يختلف الصافي ويتفق فيها مع زميله الزهاوي في رباعياته. وهما عندي طائران تفقَّصت عنهما بيضة واحدة. يتفقان شكلاً وإن اختلفا في بعض الموضوعات. كلاهما شاعر غير محكك».

غير أن الشاعر والناقد العراقي جعفر الخليلي يلتقي مع الأديب السوري زهير المارديني في اعتبار الصافي النجفي واحداً من كبار شعراء عصره.

وأياً كان رأي النقَّاد في شعر الصافي ـ وللنقَّاد مدارسهم واجتهاداتهم وأهواؤهم أيضاً ـ فليس على قارئ للشعر مثلي أن يتقيَّد بآرائهم. بل إن عليه أن يقرأ الشعر بنفسه ويقيِّمه وفق فهمه لفن كتابة الشعر وللأغراض والأفكار والأحداث والأمزجة التي يتشكَّل منها نتاج هذا الشاعر أو ذاك.

ولأنني من الجيل الذي رافق بروز عدد من كبار الشعراء العرب في ديارهم المختلفة وفي الاغتراب، فإنَّ لي تقييمي لشعر الصافي النجفي أختلف فيه مع النقَّاد، سواء منهم الذين يقللون من أهمية شعره كمارون عبود، أم الذين يقيِّمونه تقييماً عالياً مثل جعفر الخليلي وزهير المارديني.

وقد أتيح لي أن أقرأ شعر الصافي النجفي منذ مطالع الخمسينات قبل أن أتعرَّف إليه في مقاهي بيروت في ذلك التاريخ. وظللت أتابع قراءة شعره حتى وفاته في عام ١٩٧٧. وفي ظنِّي فإنَّ ما يعيبه عليه مارون عبود في شعره لا يجرده من مواصفات الشاعر، لا سيما أن بعض الشعراء، كبارهم خصوصاً، إذ يوغلون في البلاغة إلى حدودها القصوى فإنهم يتجاوزون بذلك قدرة القارئ الشغوف بالشعر على فهم ما يريدون قوله برغم براعتهم في الالتزام بالشروط الفنية الضرورية لكتابة الشعر.

فمن هو أحمد الصافي النجفي الشاعر والإنسان؟

يقول جعفر الخليلي عن أصل عائلة الصافي في الجزء السادس من كتابه «هؤلاء عرفتهم» بأنَّ أصلها يعود إلى السادة العلويين الذين يرجع تاريخ وجودهم في العراق إلى القرن الرابع الهجري. وقد نزلوا في نواحٍ متعددة من العراق شأنهم شأن آبائهم وأعمامهم من العلويين الذين كان يطاردهم الأمويون والعباسيون وينكلون بهم. الأمر الذي

اضطر الكثيرين منهم للاختفاء بين القبائل ويغيرون نسبهم. بل إن بعضهم قد اضطر إلى تغيير دينه والتحول إلى المسيحية أو التظاهر بالانتماء إليها. وقد ورث النجفي عن والده وعن تاريخ أسرته تمرُّده على التقاليد والعمل لإزالة آثارها المدمرة لحياة الناس.

لندع النجفي يتحدث هو عن سيرته وعن التموجات والأحداث التي تكونت فيها شخصيته كإنسان وشخصيته كشاعر. وهو حديث أجراه معه الأديب السوري زهير المارديني في كتابه «أحمد الصافي النجفي» الصادر عن دار الريس.

يقول النجفي: «**وُلدت في بلدة النجف سنة ١٨٩٧ في اسرة علمية دينية من ناحية الأبوين. فإنَّ أبي السيد علي الصافي ورث دراسة العلم الديني عن أجداده حتى الجد السابع السيد عبد العزيز الذي كان أول مَنْ سكن في النجف. وقد قدم إليها من مشيخة «المحمَّرة». وهو من أسرة علمية كبيرة تقيم هناك تُدعى آل أبي شوكة. وقد أقام في النجف وشرع في دراسة العلوم الدينية حتى أصبح من كبار مجتهدي عصره. وكان له، فضلاً عن العلوم الدينية، علم بالأنساب، حيث يروي عنه بعض معاصريه قائلاً: «... السيد عبد العزيز النسَّابة». أما جدِّي لأمِّي فهو الإمام الشيخ محمد حسين الكاظمي أكبر علماء عصره. وله ترجمة مفصلة في كتاب «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» للعالم المؤرخ آغا بزرك الطهراني. ويذكر له عدداً من المؤلفات، من بينها كتاب هداية الأنام وهو في علم الفقه ويقع في بضعة مجلَّدات. والشيخ «محمد حسين» هذا ينتمي إلى أسرة آل معتوق اللبنانية التي تعيش في بلدة الزرارية من قضاء صور. وقد قدم إلى النجف طلباً للعلم. لقد تعلمت شيئاً يسيراً من قراءة القرآن الكريم على يد (الشيخة) أولاً، ثم تعلمت الكتابة، وأكملت**

قراءة القرآن الكريم في (الكُتَّاب). وكنت على صغر سنِّي أنوب عن المعلم في إعطاء درس الخط للتلاميذ. وقد توفي أبي في وباء الكوليرا الذي اجتاح العراق، وكان سنِّي يقل عن عشر سنين (سنة ١٩٠٧)، فكفل العائلة أخي الأكبر محمد رضا الصافي. ثم خرجت من الكُتَّاب واقتفيت سيرة آبائي في دراسة العلوم القديمة، فدرست الصرف والنحو والمنطق والمعاني، والبيان، وأصول الفقه الإسلامي على يد عدد من الأساتذة. وكان من أعظم أساتذتي العلاَّمة المجتهد الأكبر السيد أبو الحسن الأصفهاني. كنت ضعيف البنية منذ الطفولة. وقد تقدمت في تلك العلوم لدرجة جعلت الكثيرين يأملون أن أكون خلفاً لجدِّي لأمِّي الشيخ محمد حسين الكاظمي. ولمَّا كنت ضعيف البنية منذ الطفولة، فقد كانت العلوم المعقدة ترهق أعصابي، مما أدى إلى إصابتي قبل الحرب العالمية الأولى بضعف عصبي شديد، جعل الأطباء يشيرون على أهلي بأن أمتنع عن تلك الدروس وأكتفي بالمطالعة بقصد التسلية فقط. فاتجهت منذ ذلك الحين إلى قراءة الأدب القديم والحديث، وقبلت بنهم على مطالعة الصحف والمجلات والكتب العصرية حيث رأيت عالماً جديداً، وآفاقاً واسعة تتجلَّى أمام عيني. من أهم المجلات التي تتلمذت عليها حين ذاك «المقتطف» و«الهلال». ومنذ ذلك الوقت وأنا أواصل قراءة كل ما يجد في الثقافة العصرية سواء كانت علمية أو أدبية أو سياسية، كما رحت أواصل قراءة الصحف يومياً وكأنها فرض واجب عليَّ، رغبة مني في الاتصال بكل ما يجد في العالم. مطالعتي للصحف والمجلات في سن باكرة، وتعرُّفي إلى الحياة العصرية، جعلتني أشعر بواجبي نحو بلادي، لا سيما وقد احتلَّ الإنكليز العراق في ذلك الوقت. فما كادت تضع الحرب أوزارها حتى تفاهمت مع عدد

من شباب النجف وبعض رجالها، وفي طليعتهم رفيقي الذي كنت ألازمه سنوات، رغم أنه أكبر مني سناً وعلماً، وهو المرحوم الشيخ محمد رضا الشبيبي رئيس المجمع العلمي العراقي سابقاً. وكان من رفاقي المرحوم سعد صالح، الذي شغل وزارة الداخلية فيما بعد. تفاهمت مع الشبيبي وسعيد وغيرهم على أنه من الضروري أن نغتنم فرصة الاستفتاء المقبلة على مصير العراق بناءً على مبادئ الرئيس الأميركي ويلسون الأربعة عشر، ومنها أن لكل شعب حق تقرير المصير بنفسه. وقد أقنعت أخي الأكبرالسيد محمد رضا بالسير معنا في هذا الطريق، ثم أقنعنا العالم الشيخ عبد الكريم الجزائري بالتضامن معنا. وكانت له مواقف بارزة في تطور أحداث العراق فيما بعد. . وهكذا انطلق عددنا يزداد مع الأيام، ورحنا نتصل بزعماء العشائر، وبطلاب المستقبل. وعندما قدمت لجنة الاستفتاء إلى العراق حاول الإنكليز بواسطة أنصارهم المماطلة والتلاعب والانحراف عن النهج الصحيح لاستقلال العراق. وقد أدى سوء التفاهم بين الوطنيين العراقيين والإنكليز إلى عقد الاجتماعات السريَّة تمهيداً للثورة. كانت تلك الاجتماعات تعقد في بيتنا الذي كان أحد مراكز مؤتمرات الثورة فيما يخص ناحية النجف. . . وكان لنا اتصال بسائر مراكز الثورة في سائر المدن العراقية. وكنَّا نكاتب الثوار بواسطة (الحبر السري) إلى أن عقد اجتماع كبير في الجامع الهندي بالنجف، ألقيت فيه خطب حماسية وأشعار مثيرة. وعلى الأثر أصدر الحاكم الإنكليزي في بغداد أمراً إلى حاكم النجف بإلقاء القبض على الفئة المحرِّضة، وكان من بين هذه الفئة إسمي واسم سعيد صالح. ولم أكن أعلم بذلك حين ذاك. ولكني علمت هذا منذ عشرين سنة، حينما قرأت ذلك في عدد من مجلة الحرب العظمى التي كان

يصدرها الأستاذ عمر أبو النصر. وكان ذلك العدد خاصاً بثورة العراق. ثم أخذت بذور الثورة تسري في العراق سريان النار في الهشيم حتى اندلعت لأول مرة في بلدة الرميثة، ثم امتدَّت إلى معظم أنحاء العراق.. وهنا أصبحت الاجتماعات في بيتنا علنية من قبل الزعماء والضباط الذين كانوا يساهمون في توجيه الثوار. وقد كان ذلك في أوائل أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٢٠. وبعد أن استمرَّت ستة أشهر، ساق الإنكليز قوة كبرى، اضطر الثوار على أثرها إلى الانسحاب من مواقعهم متَّجهين إلى جهة الكوفة.. وعندما أصبحنا نسمع المدافع تطلق بين ذي الكفل والكوفةعقدنا أنا ورفيقي سعيد صالح ورفيقان آخران، اجتماعاً قررنا على أثره مبارحة العراق حتى نرى كيف ستتطور الأمور.. قطعنا الجزيرة بين دجلة والفرات، واقتربنا من حدود بلدة «الحيّ» الواقعة على ضفاف دجلة، فانفصل عنِّي رفيقي سعيد صالح، وذهب مع رفيقيه إلى «العمارة» ومنها إلى الكويت، ثم عادا فيما بعد إلى العراق. أمَّا أنا فواصلت سفري إلى «الحيّ» بعد أن غيَّرت هيئة لباسي، وانتقلت منه إلى «كوت الإمارة»، ومن هناك دخلت الحدود الإيرانية عن طريق جبل الأكراد.. وبعد شهر تقريباً وصلت إلى طهران فقرأت في الصحف الفارسية نبأ دخول الجيش الإنكليزي إلى بلدة النجف واعتقالهم خمسة من زعمائها كان أحدهم أخي الأكبر السيد محمد رضا.. وقد وضعوه في سجن خاص في الكوفة، ووضعوا المشنقة أمامه تهديدا له، وجزاءً له لجعل بيته مركزاً للثوَّار. وبعد أن أمضى أخي في السجن خمسة أشهر أفرج الإنكليز عنه بعدما قرروا إعطاء العراق استقلاله. بعد ستة أشهر من إقامتي بطهران طلبت وزارة المعارف عدداً من المعلمين على أن يؤدّوا الفحص أولاً، فتقدمت بطلبي للتعليم، وأجروا لي فحصاً

أعطوني على أثره أعلى درجة في النحو، وهي درجة العشرين، وعيَّنوني مدرِّساً اختصاصياً للآداب العربية في ثلاث مدارس ثانوية هي «المدرسة العلمية» و«المدرسة السلطانية» و«المدرسة الكمالية». وكنت أدرِّس في اليوم ساعتين ولكن ضعف بنيتي القديم مع المرض العصبي الذي أصابني في العراق منعاني من مواصلة التعليم، فاستعفيت بعد سنتين، وأخذت أتمرَّن على الكتابة بالفارسية. وبعد ستة أشهر تقريباً شرعت أكتب في أمَّهات الصحف والمجلات هناك، منها صحيفة «شفق سرخ»، ومجلة «أرمغان» لسان حال النادي الأدبي في طهران. وعلى ضوء ما كنت أنشر من مقالات أدبية، انتخبت عضواً في ذلك النادي، ثم عُيِّنتُ عضواً في لجنة التأليف والترجمة في عهد وزير المعارف السيد محمد تدين. اتفقت مع الوزير على ترجمة كتاب «علم النفس» لعلي الجارم وأحمد أمين لقاء أجر معيَّن. ثم ترجمت رباعيات الخيام نظماً من الفارسية إلى العربية، تلك الترجمة التي طبعت مرة واحدة في طهران مع الأصل الفارسي، وكانت هذه الطبعة تحتوي مع الأصل الفارسي على لوحات فنية رائعة. وحين نفدت هذه الطبعة تلكأت في إعادة طبع تلك الرباعيات عندما رأيتها تضر بأكثرية القرَّاء الذين كانوا يسيئون الاستفادة منها إذ كانوا يقرأونها في الحانات ويزيدون من معاقرة بنت الحان، بينما كنت أهدف من الترجمة الناحية الفنية والجمالية فقط. بعد أن مرَّ عليَّ ثماني سنوات في طهران جاءني الطلب من حكومة العراق ومن أصدقائي من زعماء الثورة العربية الكبرى (١٩٢٠)، يدعونني للعودة للمساهمة في خدمة العراق الذي أصبح مستقلاً. فعدت بدافع الحنين وبدافع خدمة الوطن سنة ١٩٢٧. وعندما بلغت الحدود العراقية، وكان زيِّي قد تأثَّر بالزَّي الفارسي، جاءني رؤساء المخفرالعراقي

ليفتشوا حقيبتي فقلت لهم: أنتم تفتشون حقيبتي وأنا فرح بكم جدّ الفرح لأني رأيتكم طليعة العراق المستقل، وقد ذهبت إلى إيران لاجئاً من ثورة العراق الأولى حتى أشاهد هذا اليوم الجميل. عندما سألوني عن إسمي وشخصيتي وشرحت لهم ذلك تساقطت دموعهم من الفرح وأخذوني إلى المخفر واحتفوا بي، ثم ودَّعوني بكل شعور فياض. وحين وصلت إلى العراق حاولت وزارة العدلية التي كان على رأسها السيد داوود الحيدري تعييني قاضياً في بلدة الناصرية، ولكن جو العراق القاسي والدوسنطاريا التي كانت أصابتني في طهران، مضافاً إلى أمراضي السابقة، هاجمتني ومنعتني من القيام بتلك الوظيفة. فقضيت ثلاث سنوات أعاني أقسى الآلام والأمراض وكان أشدّها في السنة الأخيرة حيث وقعت طريح الفراش لا أستطيع الحراك أثناءها. وكاد أهلي أن ييأسوا من شفائي إلى أن قيَّض الله لي طبيباً سورياً هو الدكتور سعد الدين عيسى فأشرف على علاجي. وبعد أشهر قمت من فراش المرض، فأشار عليَّ بالمجيء إلى سورية ولبنان للاستجمام. فقدمت إلى دمشق سنة ١٩٣٠، وبقيت منذ ذلك التاريخ أنتقل بين البلدين. وقد دخلت في أثنائها بضعة عشر مستشفى سواء في لبنان و في سورية أو القدس دون أن أحصل على شفاء كامل يشجعني على العودة إلى العراق. على أن ذلك لا يهم عندي طالما أني القائل:

إنِّي امرؤ عربيٌّ والعُلى نسبي
في أي أرض أرى عرْباً أرى وطناً

ولمَّا حدثت ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، وكنت حينذاك في لبنان، بادرت إلى المساهمة في تأييد الثورة برغم ما كنت أعانيه

من أمراض. فكنت على رأس مظاهرة طلاب الجامعة الأميركية في بيروت ثاني يوم قيام الثورة. كما كنت أتعاون مع بعض العناصر القومية في لبنان بإرسال متطوعين إلى العراق. وعندما انتهت الثورة وأعقبتها حرب فيشي، وقرب الإنكليز من لبنان، فرَّ اصحابي الذين كانوا يتعاونون معي إلى برلين وروما، أما أنا فلم أكن أستطيع الفرار. ولذا اعتقلني الإنكليز لدى دخولهم إلى لبنان ووضعوني وديعة في سجن الفرنسيين في غرفة على سطح إدارة الأمن العام الفرنسية، تمهيداً لنقلي إلى معتقل الميِّة وميِّة. وبعد أن مرَّ على سجني شهر ونصف شهر نقلت عند اشتداد مرضي إلى مستشفى سان جورج، وتوسطت حكومة العراق عند الإنكليز للإفراج عنِّي فخرجت من السجن، وكان رفيقي السرِّي في السجن البيتان اللذان نظمتهما في معاناتي مشيراً فيهما إلى سجن أخي الأكبر وهما:

سجنت، وقبلي في العُلى سجنوا أخي
آمل في العلياء أن يسجنوا الإبنا
إذا لم نورِّث تاج مجد وسؤدد
لأبنائنا طرًّا، نورثهم سجنا...

هذا موجز من تاريخ حياتي. أما من ناحية الشعر فقد قدَّمت منه حتى الآن للمكتبة العربية عشرة دواوين مطبوعة بالإضافة إلى دواوين أخرى معدَّة للطبع. وكانت بيئتي في النجف بالإضافة إلى طابعها الديني بيئة أدبية أيضاً، ولا سيما فيما يختص بالشعر الذي كنت أسمعه في كل مجلس ونادٍ.. أضف إلى ذلك أنَّ أسرتي كلها تتعاطى نظم الشعر. فمن الأسرة نمت فيَّ الروح الشاعرية منذ الطفولة. أما شعري فأرى أنه فضلاً عن تعبيره عن شخصيتي الخاصة، يستمد من

ثقافات ثلاث، وهي الثقافة القديمة، والثقافة الحديثة، والثقافة الفارسية، وعلى الخصوص الثقافة الفارسية. فإنَّ السنوات الثماني التي قضيتها في طهران لم أقضها في درس الفارسية وآدابها فقط، وإنما قضيتها بأن عشت تلك المدة متغلغلاً في حياة أهل فارس كواحد منهم، مع التمسك الشديد بعروبتي، وهذا هو الذي ساعدني على أخذ الروح والطبيعة، والمجتمع بكل نواحيه من أعاليه إلى أدانيه، أكثر مما كنت أستطيع أخذه من الكتب الفارسية فحسب. بالإضافة إلى تلك المدارس الثلاث التي أمدَّت شاعريتي فإنَّ هناك مدرسة أعظم منها وهي مدرسة التشرد. فإنَّ الحياة المضطربة التي عشتها نتيجة لأمراضي المتواصلة وعدم الاستقرار، كل هذا جعلني أدرس الحياة بدون أن أقتصر على ناحية واحدة من نواحيها. والفضل يعود إلى تلك المدرسة العظمى، أعني مدرسة التشرد».

وهكذا تظهر بلسان الشاعر عناصر سيرته التي تكوَّنت فيها شخصيته كشاعر وكإنسان.

وحين أصبح النجفي شاعراً معروفاً بدأ حياة جديدة. وحدَّد طريقه لسيرته مختلفاً فيها عمَّا كان عليه الأمر في بدايات حياته. وقد أمضى الجزء الأكبر والأهم من حياته حتى وفاته بين دمشق وبيروت. جاء إليهما قادماً من طهران كما يقول في عام ١٩٣٠. وكانت مقاهي دمشق «الهافانا» و«الكمال» و«الروضة» الأماكن التي كان يقضي فيها معظم وقته. إذ كانت تلك المقاهي لزمن غير بعيد ملتقى الشعراء والأدباء من كل المدارس والاتجاهات. وكان ذلك شأنه في بيروت. فكان يتنقَّل بين المقاهي الواقعة وسط العاصمة «فلسطين» و«فاروق» حيث كانت تنتشر المكتبات وكان ينتشر روادها من الأدباء والشعراء، وبين مقهى «الحاج داود» و«مقهى البحرين» على شاطئ البحر الذي

أصبح اليوم ملتقى عدد من الفنادق الكبيرة العامرة مثل «الفينيسيا» و«السان جورج»، أو تلك التي يجري بناؤها مكان فندق «النورماندي» القديم الذائع الصيت.

يروي جعفر الخليلي في كتابه الآنف ذكره أن النجفي كان يتنقَّل من مدينة إلى مدينة في جنوب لبنان بدءًا بمدينة «صور» التي لم يحبها، مروراً بـ«صيدا» التي أقام فيها فترة من الزمن وصولاً إلى «بنت جبيل» التي سبقته إليها ثورته على التقاليد، وكان ذلك مصدر أذى له. إذ حاول بعض أهالي تلك المدينة الاعتداء عليه. فهرب مع أصدقائه وفي مقدمّهم الشاعر فؤاد جرداق الذي صحبه إلى بلدته مرجعيون الواقعة بالقرب من سفوح جبل الشيخ. وتلك كانت واحدة من متاعب النجفي في علاقة الحقد والحسد إزاءه من قبل بعض رجال الدين المتزمتين الذين كانوا ولا يزالون يدَّعون احتكار النطق باسم الإسلام، واحتكار تفسير شعائره وقيمه ويعممونها في أكثر الأشكال إساءة إلى الدين. والمعروف أن الصافي النجفي كان قد بدأ رجل دين ثم خلع العمامة وخلع زيّه الديني مختلفاً مع بعض زملائه في منهجهم وفي تطبيقهم للدين. بل هو صار معروفاً بتمرده وبثورته وبنقده الساخر لكل ما كان يعمَّم من خرافات وتقاليد بالية باسم الدين. واستبدل زيّه الديني بزي البدوي، الكوفية والعقال، والعباءة وما يختفي تحتها من ثياب ذات صلة بالزي البدوي.

على أن شاعرنا كان قد بدأ يكتب الشعر منذ شبابه الأول. وفي ثلاثينات القرن الماضي أغوته فكرة المغامرة في ترجمة رباعيات الخيام إلى العربية. لكنه كان بحاجة إلى تعلُّم اللغة الفارسية وإتقانها وإلى الغوص في الأدب الفارسي وفي الشعر خصوصاً. وهذا ما فعله. فضلاً عن أنه أعاد قراءة العصر الذي عاش فيه الخيام لكي

يستطيع أن يدخل بعمق في تلك الرباعيات ويحاول فهم أبعاد ومقاصد الخيام في كل فكرة أو صورة، لكي يتمكن من فهم الإشارات التي تدل على تلك الأبعاد والمقاصد. ويروي النجفي معاناته والمخاوف التي واجهته وهو يخوض تلك المغامرة من دون أن يستولي عليه القنوط. وهكذا خرجت رباعيات الخيام إلى العربية بجهد الصافي النجفي كواحدة من الترجمات الأولى. لكن النجفي اضطر للاعتراف بأنه، إذ صادف صعوبات في فهم بعض المعاني، فقد تصرَّف تصرُّفاً محدوداً في الترجمة آخذاً في الاعتبار ضرورة أن تَكون الترجمة شعراً لكي تصل إلى القارئ العربي في صورة رباعيات شعرية لا نثرية. ويبدو من حديث النجفي عن أصداء ترجمته لرباعيات الخيام أنها قوبلت بالتقدير من قبل أدباء فرس ومن قبل أدباء عرب.

أما شعر الصافي النجفي فقد تميَّز ببساطة اللغة ومفرداتها. إذ هو كان يريد أن يوصل إلى القارئ العادي أفكاره ومشاعره ونقده الساخر واللاذع للتقاليد ولسياسيي بلداننا ولسياساتهم التي كانت توغل في الفساد والتخلف والقمع وتعيد بلداننا إلى الوراء في كل الميادين.

وكان النجفي قد أدخل السجن بعد انتصار الحلفاء في معركة لبنان ضد جيش فيشي الفرنسي الذي كان تابعاً لهتلر (١٩٤١). والتهمة التي كانت موجهة إليه أنه كان واحداً من الذين أيَّدوا ثورة رشيد عالي الكيلاني ضد الإنكليز في العراق (١٩٤٠). وهي الثورة التي اعتبر قائدها الكيلاني من أنصار هتلر. وقد جرت يومذاك محاولات للإفراج عن النجفي.

على أن سيرة هذا الشاعر لا تختصرها كلمات قليلة. فهو قد عاش من عام ١٨٩٧ حتى عام ١٩٧٧. وهو عمر مديد. لكنه عمر

حافل بكل صعوبات الحياة وزهد العيش متنقلاً بين العراق وسوريا ولبنان، ومن بلدة في لبنان إلى بلدة أخرى، ومن حي إلى حي آخر نزيل غرفة بائسة فقيرة. وكان إباؤه يفرض عليه الترفُّع عن طلب المساعدة. حتى أنه رفض تسلُّم تقاعده من الحكومة العراقية برغم حاجته إلى ذلك المال الذي كان حقًّا من حقوقه. إذ خاف أن يكون لذلك المال ثمن سياسي. ولم يقبل تسلُّم المبلغ المقرَّر له إلاَّ بعد توسط أصدقائه وإقناعه بأنه يسترد حقوقاً مشروعة له.

هذا هو أحمد الصافي النجفي الذي استمتعت على مدى أعوام النصف الأول من الخمسينات في الجلوس معه برفقة عدد من أصدقائي من أدباء تلك المرحلة، وفي مقدمتهم حسين مروة ورئيف خوري وعبد اللطيف شرارة وعبد المطلب الأمين. وكان ذلك في مقاهي «فلسطين» و«فاروق» و«الحاج داود» و«البحري».

مختارات من شعره

غريب

غريب، ولو ما بين أهلي وخلاني
غريب لأني جئت من عالم ثان
دليلي ثماري، وهي لم تك تنتمي
لبستانهم لكن إلى غير بستان
أعيش بهم في الأرض ثمّ أعافهم
ملالاً فأعلو نحو عشي وأغصاني
أنا الطير، عيش الأرض والمشي متعب
لروحيَ فالتحليق في الجو من شاني
ولو أنني أبصرت فيهم محلّقاً
يرافقني، ما عفت: أهلي وأوطاني

الحاضر والماضي

لا أقرأ الشيء الذي قلته ... مخافة العود إلى الغابر
بل نظرتي فيما أنا قائل ... لأنني أعيش في الحاضر
أريد أن أصنع، لا ألتهي ... بصنعيَ الأول والآخر
حتى أظلّ دائماً سائراً ... ما أقبح الوقفة للسائر

في السّير كشف وحياة معاً ... لا فرق في الباطن والحاضر
حطّم عراقيلك أمّا بدت ... واقفز، وكن في القفز كالطائر
وسر ولكن لا تكن مسرعاً ... فذاك يعمي مقلة الناظر
وأبطئ السير، لترنو لما ... حولك بالقلب وبالناظر
ولتك منك ا لعين دوّارة ... تنظر في محيطك الدائر
تربح ما رأيت كالتاجر ... ولا تكن كالتاجر الخاسر
لم تعمل اليوم سوى شرعة ... تمنع تدقيقاً على العابر
كأنه في حلم خاطف ... فما لشيء منه بالذاكر
لم يع من شيء، ولم يدّكر ... سوى ضجيج الآلة الهادر
سار ببيت مقفل، وانتهى ... من بلد ناء إلى آخر
قد شلّت السرعة تفكيرنا ... حتى غدونا مضغة الساخر
انظر إلى ضاحل إنتاجنا ... لا فرق في الكاتب والشاعر
وانظر إلى الضيق بأشعارنا ... فليس غير الغزل الفاتر
نعتاض في صبغ دواويننا ... عن دارنا في بحرنا الزاخر
كالمتنبي هل أتى شاعر ... أو جاء كالجاحظ من ناثر؟.
ينمى لعصر البطء «عقّادكم» ... وأنتمي للزمن الغابر
فيا بني السرعة هل جئتم ... بمثل ما في الزمن الغابر
تسرع بالسرعة آجالنا ... فهل لهذا الطيش من زاجر؟
تختصر السرعة أعمارنا ... نحسب فيها قدرة القادر
آلاتكم تسرع، لكنما ... عقولكم أبطأ من حائر
هذا هو الحق لكم صافع ... دعوا غرور الكاذب الفاخر

مملكتي

لي خلوة معَ نفسي، تلك مملكتي ... في غيرها، أجنبيٌّ نازح الدار
مهما امتزجت بغير في مجالسة ... أحسّ بي نفرة في عمق أفكاري
سطوع شخصيتي منهم تقرّبني ... لكنني أشتكي بعداً بأغوار
إذا أردت دليلاً شاهداً ليَ في ... ما أدعيه، فسل ديوان «أغوار»

ترجمة البحر

لست محتاجاً لترجمة ... كل بيت لي يترجمني
أنا بحر ما له شبَه ... قطرة منه تعرّفني
فعظيم الناس يعرفني ... وجهول الناس ينكرني
ليس لي في الأرض من وطن ... أنا في أفكاركم وطني

حرارة الإفلاس

صافحتني يد امرئ فرآني ... ساخن الكف من لظى الوسواس
قال: هذي حرارة الإيمان؟ ... قلت: لا بل حرارة الإفلاس!

أنا أمة أعلى من الشعراء!

سموت بشعري فوق جيلي ولم يزل
يشكُّ بشعري معشر البلهاء
فإن لم أكن في أمة الشعر واحداً
أكن أمة أعلى من الشعراء

مع الثورة

أرحب بالثورات حتى على الحق
فما الحق إلا ثورة للعلى تبقي
أرى الحق بطلاً حين يصبح هادئاً
أرى البطلَ حقاً إذ يثور على الحق

الفلاح

رفقاً بنفسك أيها الفلاح
تسعى وسعيك ليس فيه فلاح
لك في الصباح على عنائك غدوة
وعلى الطوى لك في المساء رواح
هذي الجراح براحتيك عميقة
ونظيرها لك في الفؤاد جراح
في الليل بيتك مثل دهرك مظلمٌ
ما فيه لا شمع ولا مصباح
فيخرّ سقفك إن همت عين السما
ويطير كوخك إذ تهبّ رياح
حتى الحمام عليك رقّ بدوحه
فله بحقلك رنّة ونواح
هذي ديونك لم يسدد بعضها
عجزاً فكيف تسدد الأرباح
بغضون وجهك للمشقة أسطر
وعلى جبينك للشقا ألواح

عرق الحياة يسيل منك لآلئاً
فيزان منها للغنيّ وشاح
أتصدّ جيش الطامعين ولم يكن
لك في الدفاع سوى الصياح سلاح
قد كان يجديك الصياح لديهم
لو فجّر الصخر الأصم صياح
يتنازعون على امتلاكك بينهم
فلهم عليك تشاجر وكفاح
كم دارت الأقداح بينهمُ ولم
تملأ بغير دموعك الأقداح
حسب الولاة الحاكمون على القرى
أن ثمّ أجساد ولا أرواح
كيف التفاهم بين ذينك، نائح
يشكو العذاب وسامع مرتاح
قد أنكروا البؤس الذي بك محدق
أفينكرون الحق وهو صراح
عجباً أينكر بؤس سكان القرى
إلا وجوه كالصفيح وقاح
يا غارس الشجر المؤمّل نفعه
دعه فإن ثماره الأتراح
إقعله فالثمر اللذيذ محرّم
للغارسين وللقويّ مباح

أصبحت ثورتك الحقول أسى فما

يهتاج أنسك نشرها الفياح

ترتاع من مرأى النخيل كأنما

سعف النخيل أسنة وصفاح

يا واهب الخير الجزيل لشعبه

أكذا يجازى بالعقاب سماح

أفنت حقولك آفة أرضية

عاثت بها وشعارها الإصلاح

طير السعادة طار عنك محلّقاً

وعلى ولائك رفّ منه جناح

قد أقسم البؤس الذي بك نازل

أن لا تمرّ بدارك الأفراح

تقضي حياتك بالعناء ولم تكن

في غير أيام السقام تراح

سرّ ببؤسك فاضح لذوي الغنى

لو أن سرّك في البلاد يباح

حتّام يا هذا لسانك ألْكن

وإلام ألسنة الطغاة فصاح؟

كلّ الجناح على الضعيف إذا اعتدى

أما القوي فما عليه جناح

يا ريف إن كتّاب بؤسك مشكل

يعيا بحلّ رموزه الشرّاح

أطيار روضك غالها باز العدى
وعدا على أملاكك التمساح
الورد قد خنقته أشواك الربى
ظلماً وفرّ البلبل الصداح
يا ريف مالك شرب أهلك آجن
رنق وشرب ولاة أمرك راح

من قصيدة «حياتي»

لئن أضعفتْ جسمي الخطوط وحملها
فما أضعفت نفسي ولا أوهنت عزمي
كأني خيال حين أمشى من الضنى
وليث عرين حين أسطو على خصمي
حياتي بنفسي لا بجسمي منوطة
وقوتي قوت الروح والقلب لا الجسم
عجبت لنفس لم تطر من أضالع
حكت قفصاً خاوي الضلوع من السقم
وكم ليلة قضيتها طاوي الحشا
فلم أبد من سأم ولم أشك من همّ
فأخطر مختالاً بعزّي مفاخراً
وإن كنت بالي الثوب منخرق الكُم
كأني مليك بالفخار متوّج
وليس له جند سوى البأس والحلم

تــراه ونــور الــحــق شــارة مــلــكــه

وقــانــونــه نــشــر الــمــحــبــة والــســلــم

وأيّ مــلــيــك عــاش حــرّاً كــعــيــشــتــي

وهل مجد أرباب العروش سوى وهم؟

فـلا تـبْـن إلا مـثـل مـجـدي وسـؤددي

فـكـلّ بـنـاء، غـيـر ذاك، إلـى هـدم

وإنــي إذا مــا رام ضــيــمــي مــعــتــد

عمدت لحدّ السيف لا القذف والشتم

وهـل تـدفـع الألـفـاظ ضـيـمـاً وكـلـهـا

هـواء ولـكـن يـدفـع الـظـلـم بـالـظـلـم

الشاي

لـئـن كـان غـيـري بـالـمـدامـة مـولـعـاً

فـقـد ولـعـت نـفـسـي بـشـاي مـعـطَّـرِ

إذا صبّ في كأس الزجاج حسبته

مذاب عقيق صبّ في كأس جوهر

بـه أحـتـسـي شـهـداً وراحـاً وسـكـراً

وأنـشـق مـنـه عـبـق مـسـك وعـنـبـر

يغيب شعور المرء في أكؤس الطلا

ويصحو بكأس الشاي عقل المفكر

يـجـدّ سـرور الـمـرء مـن دون نـشـوة

فأحببْ به من منعش غير مسكر

خلا من صداع أو نزيف كأنه
سلافة أهل الخلد أو ماء كوثر

غدي وأمسي

تعبت من السير الحثيث إلى غد
فهل من وقوف أو رجوع إلى الأمس؟
تصادقت مع أمسي فأحببت عودة
وأخشى صديقاً من غد حفّ باللبس
إلى الغد رجلي في الظلام تسير بي
أللبيت تمشي الرجْل بي أم إلى الرمس؟
أرى الأمس يبدو لي منيراً وكلّما
نظرت غدي ساد الظلام على حسي
إلى الغد تمشي النفس عمياء ما لها
دليل ولا عكازة بيد النفس
أمدّ لصندوق من الغد مقفل
يدي أبسعدٍ تلتقي اليد أو نحس؟
وهل تلتقي فيه يدي بعقارب
فتلدغني أو بالمسرة والأنس؟

بيروت

يؤم بيروت ذو مال فينفقه فيها فيهنأ حيناً ثم ينتحرُ
مثل الفراشة للنيران عاشقة تعيش في النور وهناً ثم تستعر

تأتي من البر أفواج مغامرة لها وفي البحر يخفى منهم الأثر
كأن بيروت جسر للفنا نصبت كمّ من أناس عليها للفنا عبروا

مسوخ

ما للرفاق تفرّقوا ولهم في القلب ذكرى ليس تنتسخ
أين الرفاق الكثر...؟ أكثرهم قد مات والباقون قد مسخوا

أكون أو لا أكون!

سخر الناس من حياتي وإني مثلهم من حياتيَ اليوم ساخر
نظر الناس لي فحاروا بأمري وأنا مثلهم بأمريَ حائر
أنا إما أن لا أكون كغيري شاعراً، أو أكون وحدي الشاعر

النبي والمتنبي

جلّ شعري عن كلّ زور وكذْب فقريبي بكلّ ذاتي ينبي
إن أضلّ الأنام عقل فعقلي فاق عقل الورى فأدركت ربي
حقرت معشر مطامع جلّت فهووا للذقون في كل دربِ
فتنكبتُ ساخراً من حجاهم وتيّممت قاصداً وجه ربي
إن عندي روح النبي، ولكن ليس عندي مطامع المتنبي

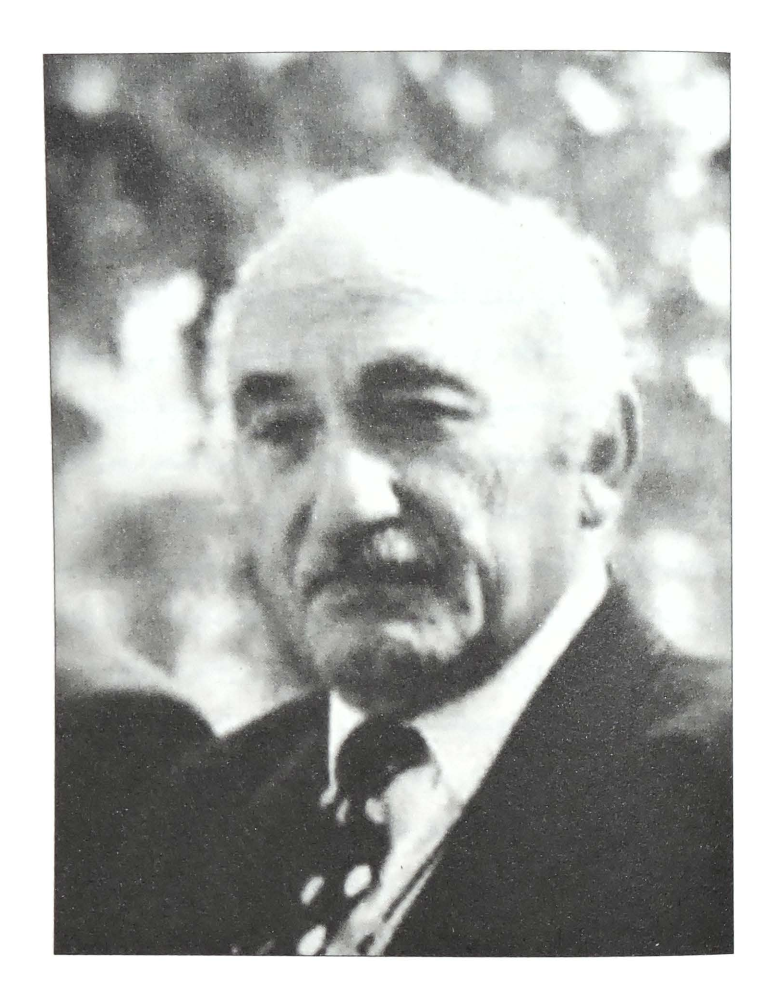
وحدة الوجود

أحاول شمّ زهور الحياة وأهوى أذى الشوك في راحتيّ
ولست بتارك شيئ لشيء فكلّ الوجود عزيز عليّ

ولست أطيق نوى بعضهن ولا ضمّهنّ جميعاً إليّ
أحاول إشغال كلّ الحواس بها كلّها دون فرق لديّ
تأنى بروحي روح الإله تحبّ جماداً وميتاً وحيّ!

طريق مختصر!

لكُمْ للحياة طريق بعيد ولكنْ طريقي لها مختصر



بلند الحيدري

بلند الحيدري

١٩٢٦ - ١٩٩٦

الشاعر العراقي بلند الحيدري شاعر مظلوم. ظلمه جيله من الشعراء، وظلمه النقاد، وظلمته حياة الغربة في المنافي المتعددة. وحتى حين تذكره الجميع يوم غيابه المفاجىء فإن كثرة الحديث عن دوره الريادي في الحداثة الشعرية وعن خصائص شعره سرعان ما انتهت مثلما تنتهي عاصفة تهب على غير موعد ثم تهدأ فجأة من دون أن تحدد موعداً ثابتاً لهدوئها. والسؤال الذي يحيرني هو: لماذا عومل هذا الشاعر الحداثي على هذا النحو؟ ويزداد السؤال إلحاحاً عندما نرى أن رفيقه في العمر وفي التجربة الشعرية بدر شاكر السياب قد لقي وما يزال يلقى اهتماماً كبيراً هو بالتأكيد أهل له، ويغفل دور بلند الحيدري الذي كان شريكاً له في ريادة الحداثة الشعرية؟ ولن أغامر هنا في البحث عن إجابة عن تساؤلي خشية أن تتحكم بي من دون أن أشعر اعتبارات سياسية وفكرية وأمور أخرى من الطبيعة ذاتها. لن أغامر في الدخول في مثل هذه الطرق الوعرة في ميدان لست من أهل الاختصاص فيه. أقول ذلك رغم أنني لا أعتبر النقد الادبي والفني، على أهميته في خلق معرفة ضرورية للقارئ وللمشاهد، الشكل الوحيد والقطعي في تحديد رأيي في القيمة الأدبية والفنية لإبداع الشاعر أو الروائي أو الفنان التشكيلي أو الكاتب

المسرحي أو المؤلف الموسيقي، الى آخر أنواع وأجناس الأدب والفن والمبدعين فيها. وأستدرك على الفور لأؤكد بأن بدر شاكر السياب إنما يأتي في الطليعة بين رواد الحداثة في الشعر من دون أن يحتكر لوحده الدور والتأثير في تلك الحركة الشعرية الجديدة. واذ أحاول هنا أن أستحضر بلند الحيدري الشاعر والانسان والمثقف والسياسي فإنما أستند في ما سأقوله عنه وعن ابداعه الى معرفة قديمة به تعود إلى العام الأول الذي بدأ فيه رحلته الشعرية كواحد من اوائل رواد الشعر العربي الحديث. وكان ذلك في عام ١٩٤٧. وكان قد صدر لبلند ديوانه الأول «خفقة الطين» عام ١٩٤٦.

كان بلند قد شكّل في تلك الفترة مع عدد من أصدقائه «جماعة الوقت الضائع». وقد افتتحوا مقهى متواضعاً في منطقة الأعظمية في شمال بغداد بالقرب من أمانة العاصمة وغير بعيد من مقام الامام ابي حنيفة. وأعطوا لذلك المقهى اسما يتفق مع الاسم الذي اختاروه لتجمعهم هو اسم «مقهى الواق الواق». في ذلك المقهى بالذات كانوا يلتقون ويقرأون بعضهم لبعض نتاجات إبداعهم، ويتساجلون في أمور ثقافية وحول قراءات لكتب كانت تصلهم من اوروبا من شعر ورواية وأبحاث تتناول شؤونا ثقافية شتى. وكانوا يعلنون انتماءهم إلى الوجودية، سواء بمعرفة كاملة من بعضهم بأصولها وجذورها، أو بمجرد الانتماء اليها من دون تلك المعرفة. وكنت أزورهم مع صديقي وقريبي نزار مروة ابن حسين مروة، لنستمتع بأحاديثهم وببعض مظاهر العبث في سجالاتهم وفي القصص التي كان يرويها كل منهم عن مغامراته. وكنت قد قرأت ديوان بلند الأول «خفقة الطين». وكان بلند هو أكثر رواد المقهى حيوية ونشاطا وعبثاً، وكان أكثرهم انتاجا. أما شقيقه صفاء فكان بوهيميا بالمعنى

الكامل للكلمة. وكثيراً ما كان صفاء يقص علينا أخبار مغامراته النسائية في المكان الذي يعرفه العراقيون، ويعرفون تاريخه. اما إبراهيم اليتيّم فكان كثير القراءة باللغة الفرنسية، وكثير التباهي بمعرفته بتلك اللغة وبالكتاب الفرنسيين وبالأخص بما كان ينشره جان بول سارتر من روايات ومسرحيات وكتابات خاصة في الفلسفة وفي السياسة وما بينهما. في حين أن خالد الرحال النحات ونزار سليم الشاعر والفنان التشكيلي كانا اقل كلاما وأكثر إبداعاً في مجال فنهما. وكان بلند الحيدري وخالد الرحال الأقرب إلى قلبي. لذلك نشأت بيني وبينهما علاقة استمرت مع بلند وانقطعت بعد خروجي من العراق مع خالد الرحال. ولم أتعرف إلى الروائي الفلسطيني جبرا إبراهيم جبرا الذي انضم الى تلك المجموعة بعد تشكيلها اذ كنت قد غادرت العراق.

قد يكون من المفيد هنا أن أشير إلى قصة بلند مع عائلته وقصته مع الدراسة التي اختلف فيها عن أصدقائه. فعائلة بلند الكردية كانت عائلة برجوازية كما يقول هو. وقد تابع دراسته الابتدائية والمتوسطة في مدارس بغداد والسليمانية وأربيل. لكنه ترك الدراسة قبل ان ينهي المرحلة الثانوية. وكان تصرفه ذاك يشير إلى التناقض الذي رافقه منذ الشباب الأول بين نزعة إنسانية أصيلة عنده وبين مظاهر الترف البرجوازي عند عائلته. وقد قاده تمرده ذاك بعد ترك الدراسة إلى الخروج من جو العائلة ومحيطها إلى الشوارع هائماً على وجهه. وكثيراً ما اضطرته ظروف ذلك التمرد والتشرد إلى المبيت في شوارع العاصمة. وهو حين كان يتحدث عن ثورته تلك لم يضف سبباً لذلك غير النزعة الجامحة عنده التي كانت تقوده إلى التمرد. لكن تلك الثورة وذلك التمرد سرعان ما قاداه إلى الانتماء إلى الحزب الشيوعي

في مطالع الخمسينات، مغادراً بذلك انتماءه إلى الوجودية كفكر وكصيغة حياة وكمنهج في الإبداع الأدبي وفي تحديد وظيفته. ويتضح من سيرة حياته تلك، منذ أن قام بثورته الاولى وبعد صدور ديوانه الأول في العشرين من عمره وتأسيس «جماعة الوقت الضائع» و«مقهى واق الواق»، انه كان مختلفاً في نشأته عن السياب الذي كان طالباً في فرع الأدب في دار العلمين. فالسياب كان منذ شبابه الأول واضح الانتماء إلى الحزب الشيوعي، ذلك الانتماء الذي أدى إلى القطيعة بينه وبين عائلته. وهذا ما جعله يغيب عن «مقهى واق الواق». أما نازك الملائكة فقد كانت تنتمي إلى عائلة محافظة.

كان ديوان «خفقة الطين» أول عمل شعري ينتمي الى الحداثة. وكان بلند بذلك سباقاً في اعلان ولادة الشعر الحديث من الناحية التاريخية قبل نازك الملائكة وقبل بدر شاكر السياب. وتلك هي واقعة أعتبر نفسي شاهداً على حدوثها في تواريخ صدور الدواوين الشعرية لهؤلاء الرواد الثلاثة. ورغم انني كنت في السابعة عشرة من عمري إلا إنني كنت قارئاً شغوفاً للأدب في ميادينه كافة باللغتين العربية والفرنسية. وكنت أنشر بعض ترجمات لبعض قصائد ولبعض قصص قصيرة لأدباء أجانب. وكنت أمارس بعضاً من كتابات وجدانية في صحف بيروت وصحف بغداد. لذلك فإنني أزعم أنني كنت أتابع الأحداث الأدبية في تواريخ وقوعها.

لن ادخل هنا في سجال صعب حول المقارنة بين شعر الحيدري وشعر كل من السياب والملائكة. ولا أعتقد أن المقارنة بذاتها صالحة للحكم على شاعر ضد شاعر آخر، حتى ولو كان احدهما أكثر أصالة وأكثر جودة من زميله. ولقد يكون الأهم والأجدى من الدخول في تلك المقارنة الاقرار بأن مرحلة ما من مراحل تطور

الثقافة قد تميزت بوجود عدد من رواد الادب والفن فيها، وان أولئك الرواد قد شكلوا بأدوارهم المختلفة فيها سماتها العامة. والسمة العامة لتلك المرحلة التي نشأ فيها السياب والحيدري والملائكة هي المرحلة التي كانت تولد فيها الحداثة في الشعر العربي في مصر وفي العراق ولاحقاً في لبنان وفي بلدان عربية أخرى. وإذ أتحدث عن هؤلاء الثلاثة دون سواهم، فليس للتقليل من شأن الآخرين في العراق خصوصا، أي عبد الوهاب البياتي وسعدي يوسف وسواهما. فقد جاء هؤلاء إلى الحداثة بعد ذلك التاريخ ببضعة أعوام.

تابع بلند كتابة الشعر في الأعوام التي تلت إصدار ديوانه الأول في ظروف مختلفة. وكان قد بدأ ينتقل من موقع فكري وسياسي الى موقع آخر مختلف. وظلت تنضج تجربته الشعرية وترتقي وتغتني مع تحولاته الفكرية. وكانت دواوينه تشير الى ذلك التطور بوضوح. وقد صدر الديوان الثاني «أغاني المدينة الضائعة» في عام ١٩٥١. ثم تبعه الديوان الثالث «جئتم مع الفجر» في عام ١٩٦١. وتوالت دواوينه الواحد منها تلو الآخر حتى بلغت أحد عشر ديواناً. وهي «خطوات في الغربة» في عام ١٩٦٥ و«رحلة الحروف الصفر» في عام ١٩٦٨، و«أغاني الحارس المتعب» في عام ١٩٧١، و«حوار عبر الأبعاد الثلاثة» في عام ١٩٧٢، و«الى بيروت مع تحياتي» في عام ١٩٨٤، و«أبواب إلى البيت الضيق» في عام ١٩٩٠، و«دروب في المنفى» في عام ١٩٩٦.

تشير عناوين الدواوين الى المحطات الشعرية والنفسية التي كان يمر بها الحيدري خلال تلك الفترة الممتدة بين عام ١٩٥١ وعام ١٩٩٦، وهو العام الذي غاب فيه. وقد يتوقف النقاد باهتمام عند ملحمته «حوار عبر الابعاد الثلاثة» لدى صدورها. كما توقف هو عند

تلك الملحمة ليقول في الجواب عن سؤال وجهه اليه صحافي في جريدة «الحياة» ما يلي: «. . . **كانت كتابة «حوار عبر الابعاد الثلاثة» مجال دراسة طويلة وقراءات عدة. واخذت مني اكثر من عامين وأنا أكتب وأقرأ وأمهد** . . .» ويستطرد في حديثه عن عمل ملحمي آخر كان يعده ليقول: «. . . **ومنذ سنتين أقوم بعمل مشابه لم أنته منه بعد. وهو عمل يمكن تسميته بـ«القصيدة المرئية» التي تشاهد ولا تقرأ. وأنا مؤمن ان شعر الكاسيت يجب ان ينتهي. ونحن الآن في عصر المرئيات. والتلفزيون وصل إلى كل البيوت. فلماذا لا نبحث عن القصيدة المرئية**. . .».

في هذا الحديث بالذات الذي كان قد اجري مع الحيدري في وقت سابق ولم ينشر الا بعد وفاته يتحدث الشاعر عن الشروط التي ولدت فيها الحركة الشعرية الجديدة معه ومع رفاق دربه من دون ان يدخل في تحديد تلك الشروط. الا انه يقارن بين تلك التجربة في الشعر والتجربة الاخرى في الفن التشكيلي التي كانت تحصل في المرحلة عينها، اذ يقول بلند: «. . . **فعلى يد جواد سليم خرجنا بالتجربة التشكيلية من اطارها السابق المتسم بالكلاسيكية الى مرحلة جديدة تعادل فيها التراث بمفهوم المدرسة التي أكدها الواسطي في القرن التاسع عشر. . وتجربة الحداثة الأوروبية المعاصرة. وقل مثل ذلك بالنسبة الى الهندسة. فعلى يد محمد مكية ورفعة الجادرجي خرج المعمار العراقي من إطاره التقليدي ليخرج فنهما الهندسي ما بين القيم الموروثة والمعطيات الجديدة. وهو ما حدث في تجربتنا. وكان من الشعر الاوروبي ما شكل حافزاً للوصول الى شكلية القصيدة الأوروبية مع إصرارنا على الاحتفاظ بالايقاع التفعيلي الموروث. وهنا اقول بأن ما أخذه ابن رشد على شعرنا الكلاسيكي**

كان صحيحاً. أي ان الإيقاع الشعري لم يكن ليتفاعل مع مضمون الشعرية. وفي تجربتنا حاولنا جاهدين أن نواصل بين المضمون والإيقاع لكي يؤكد كل منهما الآخر في القصيدة الجديدة...»

في كلام الحيدري محاولة غير مكتملة لتحديد الطابع الجديد والمنحى الجديد والصيغة الجديدة التي تشكل جميعها المبرر الموضوعي لنشوء المدرسة الحديثة في الشعر. لكنه هو ورفاقه من الشعراء الجدد قدموا في القصيدة الجديدة ما يستدعي الحاجة الى مزيد من الكلام.

إلا أن فن صياغة القصيدة الجديدة عند الحيدري واتساع ثقافته المتعددة الجوانب قد قادته الى ميادين أخرى في العمل الأدبي. وكانت له دراسات عديدة في النقد الأدبي والفني، والنقد الفني التشكيلي خصوصاً، توزعت على صحف ومجلات عديدة. وصدر بعضها في كتب هي: «اشارات على الطريق» في عام ١٩٨٠، و«زمن لكل الأزمنة» و«نظرات وآراء في الفن» في عام ١٩٨١، و«مدخل الى الشعر العراقي الحديث» في عام ١٩٨٧.

كان بلند ينتقل من مركز ثقافي رسمي ومهني الى مركز آخر على امتداد سنوات عمره، قبل الدخول في رحلة المنافي وما تلاها من تعب نفسي وروحي وقلق وتشاؤم. ففي عام ١٩٥٩ شغل منصب رئيس ادارة معرض ١٤ تموز. وشغل في عام ١٩٦٥، بعد ان انتقل الى بيروت، اثر انقلاب البعث الدموي الذي حصل في عام ١٩٦٣، شغل مركز مدير مدرسة برمانا الثانوية. وفي عام ١٩٦٩ شغل مركز مدير تحرير مجلة «العلوم» التي كانت تصدر عن دار العلم للملايين. وفي عام ١٩٧٦ شغل مركز مدير تحرير مجلة «آفاق عربية». وكان خلال فترة طويلة عضواً في اتحادات الكتاب العراقية والعربية،

وعضواً في نقابة الصحفيين العراقيين. وخلال إقامته في لندن أصبح عضواً في نقابة الصحفيين البريطانيين.

كانت السنوات التي قضاها في لبنان (١٤ سنة) في تقييمه لها أغنى سنوات حياته وأكثرها إبداعاً وأكثرها نشاطا ثقافيا وسياسيا. وكانت بيروت بداية مرحلة المنافي، المرحلة التي احتلت الحيز الاكبرمن سنوات عمره. وفي بيروت توطدت علاقتي القديمة معه. وصار منزله المكان المفضل بالنسبة اليّ للالتقاء معه، والمكان الأرحب للالتقاء مع مثقفين آخرين لبنانيين وعراقيين. كما كان منزل حسين مروة ومنزلي ومنازل آخرين أماكن لتلك اللقاءات. وكانت تلك اللقاءات ميدانا رحبا للنقاش في شؤون ثقافية وسياسية مما كان يفرض على المثقف العربي الدخول في الحوار حوله. وما أكثر القضايا التي كانت تقحمها في حياتنا الأحداث والتطورات والتحولات الجارية من حولنا في بلداننا وفي العالم. ومعروف أن عقدي الستينات والسبعينات كانا حافلين بالأحداث التي كانت بمعظمها أحداثا حزينة لكثرة ما خلقت لنا من خيبات ومن مرارات. وكان العراق بالنسبة الى بلند محط أنظاره. كما كان محط أنظارنا. وكان الحلم بالعودة إلى العراق يتلاشى بالنسبة إلى بلند كلما كانت الدكتاتورية تعمق جذورها وتخلق ادوات استمرارها. ولم يكن سوى لبنان الملجأ لكل الهاربين من القمع والقهر والموت. لكن بلند فضل الخروج من بيروت عندما دخل لبنان في أتون الحرب الأهلية. وآثر ان يترك لنا نحن أصدقاءه ورفاقه هدية جميلة باقية هي قصيدته التي أهداها لاحتفالات الذكرى الخمسين للحزب الشيوعي اللبناني التي لحنها الموسيقي اللبناني وليد غلمية. وكانت تلك القصيدة النشيد الرسمي لذلك الاحتفال الذي استمع اليه وطرب عشرات الالوف من

اللبنانيين الذين كانوا يرتادون قاعات المهرجان على امتداد عشرة ايام متوالية من خريف عام ١٩٧٤ . غادر بلند بيروت الى لندن. وظل في تلك المدينة التي لا تراها الشمس الا قليلا الأعوام التي لم يغادره الحلم فيها بالعودة الى العراق عن طريق لبنان وطنه الثاني، وعن طريق بيروت بالذات التي أحبها حتى العشق.

ويتحدث بلند عن المنفى كثيراً في شعره وفي مقالاته وفي العديد من الأحاديث التي كانت تجرى معه. وينقل نجم عبد الكريم عن لسان بلند الكلمات التي قالها له قبل ساعات من دخوله المستشفى الذي خرج منه الى الأبدية. وها هي كما رواها نجم: «... **كان المنفى قائماً في داخلي منذ أن وعيت نفسي كائناً شعرياً وكائناً سياسياً في آن واحد ... والغربة بهذا المعنى كانت في داخلي، غربتي عن عائلتي البرجوازية المتشبثة بالحكم البائد، مما دفعني ـ يومذاك ـ للهرب من داري في قصر العائلة لأتشرد في شوارع بغداد، وأنام على أرصفتها بصحبة الشاعر حسين مردان ... ولكي أجسد ثورتي الحقيقية على عائلتي البرجوازية، فقد وضعت كرسياً ومنضدة متهرئة لأغدو كاتباً للعرائض ـ (عرضحالجي) أمام بوابة وزارة العدلية التي كان خالي داوود باشا الحيدري يشغل منصب الوزير فيها. . وهذا التمرد على العائلة كان صدى لتمردي على الشكل ا لعشائري الموروث. ربما بدأ المنفى في حياتي يوم عشت غربة حقيقية في داري حيث توزع حب والدي ما بين حب أمي لأخي الكبير وحب أبي لأختي الصغرى. وهذا ما أشعرني بالكثير من الاغتراب في حيز العائلة. وهو ما دفع بي الى الهرب من البيت. إذن فالمنفى كان في نفسي منذ البدء، وكبر هذا المنفى بمعان مختلفة عندما وقفت وأقف سياسياً ضد النظام السائد في العراق. في بيروت وقعت في البيت**

ذي الأبواب العديدة. كان لكل منا ان يجد نفسه في الأبواب التي يريد عبورها ... المسلم مسلم، والمسيحي مسيحي. . في بيروت أدركت أهمية أن أكون ديمقراطياً وأن أفهم الآخر، وأن أؤكد على كل الأبواب المفتوحة على بعضها بعضاً. طريقي الى بيت يوسف الخال كان مفتوحاً، وطريقي الى بيت حسين مروة كان مفتوحاً. وطريقي الى بيت أدونيس كان مفتوحاً. ومن خلال بيتنا خرجت «مواقف» (المجلة التي حملت اسم أدونيس) يومذاك. وكل هذا الكلام على كل التوجهات المتناقضة التي تعودت أن أتعامل معها علمني أن أكون ديمقراطياً. وحسبي ان أذكر صداقتي لتوفيق صايغ رغم اختلافنا اختلافاً جوهرياً. في هذا البلد ـ بيروت ـ تعلمت أهمية احترام الرأي الآخر والدفاع عن الرأي الآخر عندما يكون الهجوم على هذا الرأي هو نيلاً منك، أيضاً في يوم آخر. في هذا البيت الكبير عقدت الصداقات ما بين ادونيس والشيوعيين. وفي هذا البيت عقدت الصداقات ما بين القوميين وخليل حاوي. . وبين الآخرين المناوئين لتوجهاته. . اذن تشكل في بيروت المنحى الأهم في تجربتي الشعرية وتجربتي السياسية في الآن ذاته».

بيروت ...

يا موتاً أكبر من تابوت ...

يا موتاً لا يعرف كيف يموت ...

لن يعرف كيف يموت ...»

لم تنقطع علاقتي ببلند الحيدري خلال ما يقرب من نصف قرن. وهي كانت علاقة صداقة امتدت بين عام ١٩٤٧ وعام ١٩٩٦. وكنت أزوره في لندن. وكان يزورني في بيروت. والذكريات عن تلك اللقاءات خلال تلك الأعوام تملأ العقل والوجدان. وكان ذلك يتيح

لي المزيد من المعرفة بكل ما يتصل بحياة بلند العامة والخاصة، وبأفكاره وبمواقفه السياسية، وبالتطور الذي كان يواكب إبداعه الشعري وسائر مجالات إبداعه. وكان من أجمل ما قام به في الفن التشكيلي قراءته النقدية لأعمال الفنانين العراقيين واللبنانيين. وكان قد رأس لفترة من الزمن تحرير مجلة عراقية متخصصة بالفنون التشكيلية.

لكنني لا أستطيع، وأنا أستعرض الجوانب المتعددة من حياة بلند الحيدري، إلا أن أتوقف عند الهم الكبير الذي رافقه في حله وترحاله، الهم الذي يتصل ببلده العراق. كان العراق بالنسبة اليه وطناً وذاكرة وأفكاراً ومشاعر. كان قلقاً دائماً وبحثاً لا ينتهي عن أمل لم تكن شروط تحققه متوفرة في أي جانب ومن اية جهة. ويوم رحل عن العراق للمرة الأولى في اتجاه منفاه الأول بيروت في مطلع الستينات كان اليأس رفيقه إلى ذلك المنفى، لولا أن وجد في ذلك البلد مجالاً رحباً للحياة والإبداع وكثيراً من التعويض عما كان قد افتقده في عراقه المخطوف على يد مستبدين ظالمين طغاة غير مألوفة نماذجهم في تاريخ العراق قديمه وحديثه. لكن الظلمة لم تلبث ان اشتدت في حياته عندما رأى نفسه مضطراً لمغادرة لبنان إلى لندن، حيث كان مقامه الطويل الاخير قبل الرحيل النهائي. كانت الحرب الأهلية في لبنان قد أطلت برأسها حاملة معها الى الحياة الثقافية والى حياة المثقفين اللبنانيين والعرب الأرق والعذاب والخوف على حاضر بلداننا وعلى مستقبلها. وكان قد بدأ الرئيس السادات مسيرته في اتجاه المصالحة مع اسرائيل ومغادرة الموقع التاريخي لمصر في قيادة الأمة العربية في معركة الحرية والوحدة والاشتراكية. وهو الموقع الذي كان الرئيس عبد الناصر قد حدد ملامحه واتجاهاته خلال

عقدين من الزمن حافلين بالتحولات الكبرى السياسية والاجتماعية والفكرية بكل تناقضاتها. وقد حاول بلند من منفاه الثاني في لندن، الذي كان ينطلق منه إلى العالم العربي والعالم، أن يجد في الشعر ملجأ ومحطاً لآلامه وآماله. فكتب كثيراً. وشارك في مناسبات شعرية عديدة. لكن العراق ظل همه الأكبر أينما اتجه وحيثما كانت تضعه قدماه في سفره الدائم.

لم يفارق بلند حلمه بعراق ديمقراطي. وكان، وهو الكردي الأصل والمنشأ، يحس بالآلام التي كان يعانيها أشقاؤه الأكراد في جبال كردستان، والآلام التي كان يعانيها أشقاؤه العرب في كل انحاء العراق. فالظلم والقهر اللذان كانا سمة ذلك العهد من الطغيان لم يفرق بين عربي وكردي. لذلك فحين كان بلند يكتب، وحين كان يفكر، وحين كان يعبر عن مشاعره، كان يمارس كل ذلك باسم انتمائه الى العراق الديمقراطي الموحد. وهو الانتماء الذي ظلّ موضع اعتزازه على الدوام. وقد ساهم مع عدد من أصدقائه في لندن بإنشاء جمعية عراقية ديمقراطية. وكان ذلك التجمع يصدر مجلة «الديمقراطي»، وكان شعارها الذي يتصدر رأس الغلاف فيها هو: «**من أجل غد ديموقراطي حر في العراق**». وقد شارك في مؤتمر المعارضة العراقية الذي عقد في بيروت في عام ١٩٩١. وكان في المؤتمر واضح الرؤية. وكان واضحاً في تحديد اتجاه النضال لتحرير العراق من نظام الاستبداد والنضال ضد التدخل الأميركي وضد الحصار، كهدف واحد لا يقبل التجزئة. وغادر الحياة من دون أن يفارقه الأمل في تحقيق هذا الهدف المتعدد الأضلاع.

في آخر لقاء بيننا في عام ١٩٩٤ في لندن استعدنا الكثير من ذكرياتنا في العراق وذكرياتنا في لبنان. وكانت الشكوى عنده من

بعض الأمراض، الحقيقي منها والمتخيل، غالبة على أحاديثه. وكنت مع زوجته ورفيقة عمره دلال (ام عمر) نحاول قمع تلك الشكوى عنده، وتغليب الأمل على اليأس الذي كان شديد الوطأة عليه. وتابعت اتصالاتي معه بالهاتف وبالفاكس وعبر مجلة «الطريق». وفي عام ١٩٩٦ توجهت اليه برسالة اطلب منه فيها باسم مجلة «الطريق» المساهمة في محور خاص عن الشيخ عبد الله العلايلي، استناداً إلى معرفته الوثيقة بالعلايلي في اللغة وفي تاريخ الأدب. فأجابني في اليوم التالي برسالة اعتذار بسبب سوء وضعه الصحي، طالباً مني أن أخبر صديقنا المشترك محمد دكروب بأن «**يعد منذ الآن فصلاً عني يضيفه الى الأجلاء الذين رحلوا قبلي الى البيت الضيق**». فبعثت اليه برسالة فورية اذكره فيها بما كنا قد اتفقنا عليه من أننا نحن أبناء ذلك الجيل العتيق نختلف في مقارعتنا للصعاب عن الأجيال التي أتت بعدنا، وإننا لا نكبر ولا نشيخ ولا نستسلم لكل ما يقف في وجهنا من معوقات. وأكدت عليه رغبتنا في ان يساهم في المحور الخاص بالعلايلي. فأجابني برسالة يقول فيها: «**... فو الله أيها العزيز ما كان ذلك مني تمنعا، ولكنه واقع ابن السبعين، وواقع الغربة، وواقع أن الجلاوزة ما زالوا يحكمون وما يزال علينا ان نبقى منفيين في غير أرض وارض. وبالكاد أواصل كلمة كلمة لاستمد كفاف رزقي في هذا البلد. ومع ذلك فأنت عزيز والأخ عبد الله العلايلي عزيز. فحبذا لو بعثت لي ما يمكن ان يبلل قلمي في الحديث عنه، أي شيء عنه. فالأرض هنا مجدبة بأي أثر من آثاره**».

لكن ويا للأسف، فقبل أن نهيء له بعض المراجع عن العلايلي لكي نرسلها اليه، جاءنا نبأ وفاته، فوقع علينا وقع الصاعقة.

ضاق فضاء الكلمات عن التعبير عن الحزن الذي غمرنا نحن

أصدقاءه. . فأرسلت الى «أم عمر» باسم أصدقاء بلند البرقية التالية:

«. . . لقد كان بلند، بالنسبة إلينا، مدرسة بكاملها في كل ما أبدع وما أعطى، وما بذل. وستظل مدرسته هذه المتمثلة في تراثه الغني تواصل فعلها وعطاءها. لذلك فان بلند، الذي سيصعب علينا تصوّره غائباً عنا بجسده، سيبقى حياً فينا، في وجداننا، في حبنا الدائم له، نحن أصدقاءه ومحبيه ومقدري إبداعاته كلها في أرجاء هذا الوطن الكبير. وسيبقى حياً في تراثه وحياً فيكما أيها العزيزان الحبيبان «أم عمر» و«عمر». لكما من كريم مروة ومن محمد دكروب ومن مجلة «الطريق»، كتاباً وقراءً ومناصرين، كل العزاء، وكل الحب والتضامن».

تلك هي قراءتي الموجزة لسيرة هذا الشاعر الحداثي الكبير. لكن هذه القراءة تبقى ناقصة إذا لم تقترن بنماذج من شعره تدلّ على شخصيته وعلى الحداثة في شعره. وقد اخترت النماذج التالية من دواوينه التسعة التي جمعت في كتاب واحد.

مختارات من شعره

خفقة الطين

نزت الآثام من عمري

فثوري

وارقصي نشوى على قلبي الكسير

مضغ الحزن شبابي

يافعاً

فامضغي بالشهوة القصوى مصيري

لست أهوى جنّة الله... ولا

أتمناها رجاء في شعوري

لا ... ولا أخشى سعيراً

خالداً

فلكم أدخلني الدهر سعيري

أنا من نار

وناري شهوة

أحرقت جسمي وماجت في ضميري

نحن من نحن...؟ أجل

عمرنا من خفقة الطين الحقير

أمّنا حواء اثم صارخ
أمسها ما زال ماخور الشرور
رقصة الأفعى التي غنت بها
لم تزل
تصرخ في كل الصدور
لم تزل درباً لمأساة الورى
وصدى سخرية الحزن المرير
فدعي الظن الذي قدسته
نصباً
في معبد الوهم الغرير
لا خلوق
لا دنيء... كلنا في مسرح الدهر
تماثيل عصور
إن ما نعبده اليوم طهوراً
سوف يهزأ بهوى الأمس الطهور
بين نهديك اللذين انطلقا
وعد بركان
بنيران ونور
كل ما في أرضنا من جنة
هي من غربة ذا القلب الكسير
فاستبيحي حرمة السر الكبير
صور الإثم بعينيك تلوّت

كأفاع

تتلوى في سعير

أطبقيها تتغذى من دمي

وأقيميها سدوماً في سريري

لم تزل في حمأة الجسم بقايا

سكرات

مثل ديدان القبور

يتغنى الإثم في أحلامها

باللظى

بالشر. . . بالليل المثير

لن أراها

كان حلماً ذلك الوعد الذي شد خطاها

بخيالي

لن أراها

ربما ما شفتها يوماً

ولم أدرك رؤاها

وضلالي

هو ما وسوس في قلبي . . . فتاها

بهواها

وابتنى لي موعداً طال مع الدهر

ولكن لن أراها

موعداً جئته ضماناً فما كانت

ولا كانت سواها

موعداً خلّد في نفسيَ معنى لبقاها

حلماً

لم تكن أرضي

ولا كنت سماها

كان حلماً

ذلك الوعد الذي شدّ خطاها بخيالي

أهواك

أنا أهواك ولكن

غير ما تهوين أهوى

أنا أهواك جراحاً في حياتي تتلوّى

كلّما هدهدتُها

أهدت إلى العالم نجوى،

أنا أهواك شهيداً

أزلياً

يتغنّى

فيه ذوّبت شبابي الرائع الألحان لحناً

ولنفن بعده

فالحب عمر ليس يفنى

قيثارة الأمل

كلّ له قيثارة إلا . . .
أنا
قيثارتي في القلب حطّمها الضّنا
كانت
وكنا
والشباب مرفرفٌ
تشدو فتنشر حولنا صور المنى
واليوم
كفننا السّكون ولم نزل
بربيع عمرينا
فمن يرثي لنا؟
في صمتها الدامي
تكرّر لحنة مسلولة
تشدو بلا أوتار
هربت من الماضي البعيد وعهده
وأتت
لترثي
خلسة . . . قيثاري
يا لحنة الذكرى
فديتك . . . ارجعي
أخشى ضلالك في دجى
. . . . . أقداري

جئتم مع الفجر

جئتم مع الفجر
. . . وكانت هنا
مجزرة تنمو بلا عذر
وخلف باب السجن
كانت منى
تعيش في وهن
وكان للغدر
ألف يد تسرق من ذهني
ومن دمي الحرّ
شوق الليالي السود للفجر
جئتم مع الفجر
وكنا هنا
نقتل في صمت ولا ندري
أيصلب الإنسان؟
أتحرق النيران،
بيوتنا؟
صغارنا
لأننا نحلم بالفجر. . . .؟
لكنكم جئتم
وكنا هنا
نسأل من أين ستأتي المنى

من أين. . . ؟
لن تأتي
لن تشرق الشمس
وفي بيتي
تغور في الموت
أقدام أطفالي بلا صوت
من أين؟ . .
لن تأتي
فسجننا أعمى بلا كوّة
ودربنا يوغل في الهوّة
ونحن لا حول ولا قوة
لكنكم جئتم وكنا هنا
حكاية عن أمسنا المرّ
وموكباً من السّنا
في فجرنا الحرّ

حوار عبر الأبعاد الثلاثة

يا كلكم
يا غيبة الحاضرين
يا أنتم المارون كل لحظة ببيتي المنكفئ
الأضواء
والحاملون ليلي الثقيل في صمتكمُ المرائي

أنا . . هنا . . أموت من سنين

أزحف من سنين

خيطاً من الدماء بين الجرح والسكين

- نعم أيها المجنون . . . نريد أن ننام

- نعم أيها اللعين . . . نريد أن ننام

نريد أن يعتقنا الظلام

يا أيها العدل المعلق في رقاب المائتين

يا أنت

يا ملاءة سوداء في الأقبية العتيقه

أصرخ بهم:

قد كذبوا

فليس بين الزيف والحقيقة

إلا دم بارد جف على الإسفلت من سنين

جفّ فلن يذكره الجرح ولن تعرفه السكين

اصرخ بهم:

غداً إذا مرّ بنا الصبح

ستلتقي السكين والجرح

وبقعة الدم التي تحملها أحذية العابرين

أغاني الحارس المتعب

أعرف كم أنت حزين أيها الحارس

أعرف كم أنت متعب أيها الحارس

وأن الفجر الذي تنتظر ما زال

بعيداً . . . ولكن،
حذار من أن تنام، فالشوارع
المضاءة بآلاف المصابيح ما زالت
ملأى بالجريمة والزيف والخداع
وعليك أن ترصد كلّ شيء بكثير
من الحذر،
لك أن تغني أغانيك الحزينة
طوال الليل. . . ولكن
إياك أن تنسى أنك مسؤول
عن كل هذا العصر، وربما سيطلب
منك النجدة.

في الطريق إلى بيروت

مشينا إليك مسافة أجيال
ويوم وصلناك كنت بعيدة
وكان بأعيننا لا يزال اشتياق إليك
وكنّا
هرمنا
فأرجلنا المتعبات تساقطن جزءاً فجزءاً
وإن غبار الطريق أضلّ سرانا سنينا
وإنا دمينا

وجال بنا ألف درب ودرب

وفي كل درب نقول بحبّ ونحيا بحبّ

ويوم وصلناك كنت بعيدة

وكنّا هرمنا

وكنّا لبعض جموح تكابر، شلواً تمنّى

لو أن المسافة لم تك ظنّا

وأن الهوى ليس مرمى لحيّ

وأن الهوى ليس مسعى لميت

فيا سيدتي

إذا ما تناهى إلى صمت ليلك صوتي

وكنت

على بعض خطو لبيت تهاوى لحافة جرح

فذلك بيتي

فكوني إلى

فإني تعبت،

وإني سقطت فلست لليل ولست لصبح

ومسّي جراحي علّ لنا

لقاء هنا

يصير بنا... الموطنا

فأدرك بعثي

بموتي

إلى خليل حاوي

قف كالنخلة فارعة

أو قف كالطود الشامخ

واجمع في فوّهة سوداء لبركان صارخ

صوتكْ..

وأعلن موتكْ،

لم مات ...؟

«لن تغاويني المواني النائيات

بعضها طين محمى

بعضها طين موات»،

أطلقها بين الحاجب والحاجب

أو في مرمى الصدغ الشاحب

أو في شغف القلب

أو أطفئها في العين الحبلى بأغاني الحب

... يا لواقف كالنخلة فارعة

ما أروع صمتكْ

إذ يعلن موتكْ

طريق الهجرة من بغداد

تطاردني بغداد

تحاصرني

في كل زوايا المرآة

تصادرني نفياً متهماً بالجبن

لأني

خفت على وجهي من عيني

فآليت على أن أفقأ عيني

أطفئ مرآتي

كي لا أبصر وجهي الآتي

يهرب مني

ولأني

قطّعت لساني إرباً . . . إربا

سمّرت على مدّ الجدران السود

وأسوار سجون الوطن

خرسي

ولأني أقسمت لكل الحرسِ

أن أصبح أجبن من وطني

أجبن من أن أسأل ماذا أبقوا من وطني

أجبن من أن أسأل ماذا . . . ؟

قلها . . قلها

ماذا أبقوا في وطني

غير الأجداث الحبلى بالعفن

لكي لا ننسى

ما زلت وإن غبشت ذاكرتي

ما زالت وإن أطفأها الهرمُ

ما زلت وإن جف على طرفي عيني قذى ودمُ

ما زلت أراود بيتاً كان لنا

كان يمد ذراعيه على وهج في فجر

سيجيء به وعد.. أو حلمُ

كان لبيتي شباكان صغيران

أذكر أنهما كانا أصغر من عينيّ إنسان

أصغر من أن تعلق في الخشب المهترئ

شمس أو تكبر أكوان

باحة بيتي كانت لا تعدو فرجة

راحة طفل

إني سرت تعثرت بظلّي

ولقد علّمني إبني

أن حدود الدنيا في بيتي دون مكانْ

علّمني أن أعرف نفسي في قطرة طلّ

علّمني أن لبيتي درباً يمتد لألفيّ بستانْ

أن لبيتي باباً

يتهدج عبر سؤال وسؤال

وطوال ليال وليال

ويقول تعال إليّ

يا أنت الآتي من أيّ مكانْ

أو من أيّ زمان

علّمني أن أترك باب الدار مشرّعة

فأدخلها يا أنت الآتي من أيّ مكان وزمانْ

أدخلها بسلام وأمان

يغرق في عيونها الكبيرة
يبسط في ظلالها السوداء مثل
موته سريرا
ويرقد الأمير ألف فكرة
وترقد الأميرة
ظلين مهجورين في جزيرة
الشمس لا تشرق في جزيرتي
والشمس لا تغيب
والظل لا يعرف غير لونه الغريب
في هذه الجزيرة
لا تولد الناس فلن يكون في المرآة
غير موته سريرا
ويرقد الأمير ألف فكرة
وترقد الأميرة
ظلين مهجورين في جزيرة
الشمس لا تشرق في جزيرتي
والشمس لا تغيب
والظل لا يعرف أن يطول
أو يقصر
أو يصير غير لونه الغريب
في هذه الجزيرة

لا تولد الناس، لن يكون في المرآة

إلا شكله المريب

ولن يرى ضميره

وتكبر الجزيرة

ويكبر الإحساس بالزمان

وتحت وطأة المساء والصباح

والظهيرة

تحرك الظلان

فكان فيما كان

الموت للإنسان

والغاضب الملعون للجزيرة

وكان أن دارت بنا الساعة في المكان

فأغرقت...

الموت والإنسان

والجزيرة

فليس إلا الظل في الظهيرة

ظل بلا إنسان

الرحلة الثامنة

أطفئ مصابيحك ... ولنغرق

يا حارس المنار

فالحلم في متاهك الأزرق

قد أتعب البحار

فودّ لو تنتهي

حكاية البحّار

حكاية الطواف في البحار

حكاية اللؤلؤ والمرجان

والمحار

وودّ لو يغرق

أطفئ له الأنوار

أطفئ ولا تقلق

واتركه للتيار

يحمل للأغوار ما في الحلم من أغوار

يحمل للؤلؤ والمرجان

والمحار

كل الحكايات عن الجدب،

عن عالم يحيا بلا قلب،

عن مذنب، يبحث

في التوبة عن ذنب،

يا حارس المنار

اتركه للتيار

يحمل للأغوار ما يحمل في يديه

في عينيه

من أغوار

يحمل للبحار

لتيهها المغلق

مرارة الضياع في البحار

مرارة الصبار. . .

فاتركه

لن تقلق

قال لنا شيئاً

بالأمس

مرّ من هنا

قال لنا شيئاً ومرّ من هنا

فانساب في قريتنا

فجر

وأينعت منى

واستيقظت كرومنا

لتنحني

حباً

وظلاً

وجنى

بالأمس

مرّ من هنا

قال لنا شيئاً ومرّ من هنا

وكان في نظرته

وعدٌ

وفي بسمته

رعدٌ

وفي قبضته

جرح وآلام تفجر السنا

للأرض

للتاريخ

للدنيا . . . لنا

بالأمس

مرّ من هنا

قال لنا شيئاً ومرّ من هنا

في رجله

أغلاله

في عينيه

نضاله

في قلبه آماله

وما له، للناس، للدنيا جنى

وفي غدٍ

إذ يمرح الصغار في قريتنا

وفي غدٍ

إذ تشرق الأنوار من بيوتنا

ألف يدٍ

ألف فمٍ

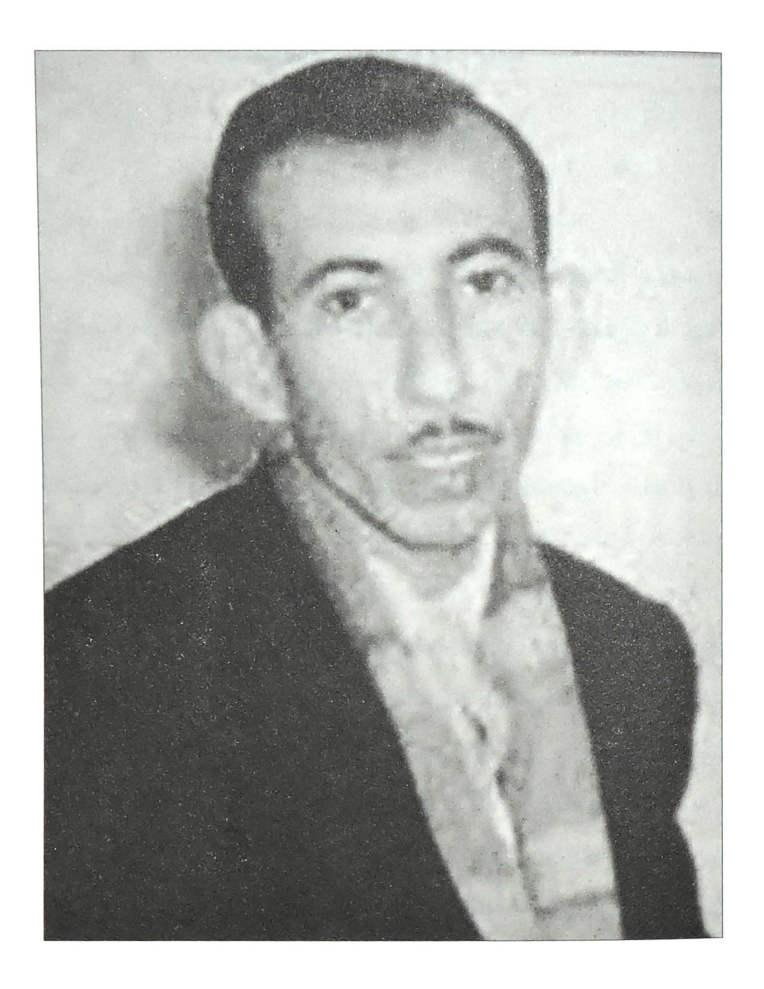
يرفع من حياتنا

تحية لعابرٍ

بالأمس

مرّ من هنا

أبقى لنا شيئاً ومرّ من هنا



بدر شاكر السياب

بدر شاكر السياب
١٩٢٦ - ١٩٦٤

يجمع النقاد على اعتبار الشاعر بدر شاكر السياب صاحب دور ريادي في إطلاق الشعر العربي الحديث وفي اقتحام ميدانه منذ أربعينات القرن الماضي. ولقد أتيح لي، عندما كنت أتابع دراستي في العراق في الأعوام الأخيرة من الأربعينات، أن أواكب بدايات تلك النهضة الجديدة في الشعر العراقي، وأن أقيم علاقة صداقة مع كل من بدر شاكر السياب والآخرين من زملائه من شعراء الحداثة.

كان بدر شاكر السياب، فيما أذكرعن تلك الحقبة، الأكثر غنىً وتنوعاً والأكثر إثارة للإهتمام في الأوساط الأدبية. كان ما يزال طالباً في السنة النهائية في دار المعلمين العالية. وكان عضواً في الحزب الشيوعي العراقي. وكان، بسبب انتمائه السياسي ذاك، على خلاف مع عائلته. ورغم أن ذلك الخلاف كان مربكاً له في تلك الفترة الحرجة من حياته ومن حياة العراق، فإنه كان صارماً في تمسكه بانتمائه السياسي، يجاهر به من دون أدنى مساومة. وكانت أكثر لقاءاتي معه في منزل الأديب اللبناني - العراقي محمد شرارة الذي كان يقع في منطقة الكرادة الشرقية جنوب بغداد. وكانت تحضر معظم تلك اللقاءات الشاعرة لميعة عباس عمارة. وكان الشاعران يتبادلان قصائد الحب التي كان فيها بدر أكثر وضوحاً في التعبير عن

حبّه من لميعة. وكان ذلك الأمر موضوعاً للأحاديث بين أدباء تلك الحقبة، وكنت شاهداً عليها. كان بدر كتلة من المشاعر. وحين كان يقرأ قصائده كانت مشاعره تفيض إلى الحد الذي كان يوحي للمستمعين إليه وكأنه يقدم إليهم اعترافاً وجدانياً يعبّر فيه بلغة الشعر عن عميق ما كان يجيش في داخله من أحاسيس لم يكن يطيق أن تبقى كامنة في داخله. كان يعشق النساء والأشياء الجميلة بصدق وبعمق وبخفر كالأطفال. وكان في الوقت عينه دائم الشك في قدرته على إيصال مشاعره إلى من يحب من النساء وإلى الآخرين من أصدقائه. كان ضعيف البنية نحيلاً قصيرالقامة. لكنه كان في مشاعره صادقاً شديد الحساسية تجاه نفسه وتجاه الآخرين. وكانت حركات يديه، خلال قراءة القصيدة، تذهب في اتجاهات شتى حول أعضاء جسمه وفي اتجاه المستمعين، من دون أن يحرك عينيه إلا في اتجاه داخله هو كما لو أنه كان يقرأ لذاته وليس لأصدقائه ومحبيه ومحبي شعره الجميل.

لكننا، أنا وأصدقاءه، كنا نحاول تحريره من تلك الأحاسيس والمشاعر الوجدانية الفائضة عندما كنا ننتقل من الحديث عن الشعر إلى الحديث في الشأن السياسي وعما كانت تضج به الأحداث. وكانت تلك الحقبة حبلى بالأحداث عراقياً وعربياً. وكانت أبرز تلك الأحداث انتفاضة الشعب العراقي في عام ١٩٤٨ ضد المعاهدة العراقية - البريطانية التي حملت اسم «معاهدة بورتسماوث». وكان بدر من المشاركين فيها على طريقته إلى جانب الحزب الشيوعي. لكن النكسة الانتفاضة سرعان ما انتهت إلى نكسة بسبب الصراع التي رافقها على امتداد ستة أشهر بين الشيوعيين والقوميين. وقادت تلك النكسة العديد من قادة الأحزاب ومن المثقفين إلى السجون، وكان

في مقدمتهم بدر ذاته والجواهري ومحمد شرارة، وأدت إلى إعدام قادة الحزب الشيوعي فهد ورفاقه. هذه الانتكاسة هي التي بدأت تخلخل مشاعر ومواقف بدر.

حصل ذلك كله في النصف الأول من عام ١٩٤٩. والغريب في الأمر أن الصراع بين الشيوعيين والقوميين استمر حتى في الفترة التي كان فيها قمع السلطات يتزايد ويتخذ أشكالاً فظة بمقياس ذلك الزمان. وكان من الطبيعي أن تترك تلك الصراعات والإنقسامات والمواقف المختلفة هنا وهناك من مجمل القضايا العراقية الخاصة ومن القضايا ذات الصلة بالأوضاع العربية، وبالأخص منها قضية فلسطين، انعكاساتها على المثقفين بعامة، وعلى بدر بالذات أكثر من سواه.. وأصابت بدر بعض سهام تلك الخلافات. فأحدثت اضطرابات في داخله سرعان ما زعزعت ثقته بانتمائه إلى الحزب الشيوعي. ولم يلبث أن غادر موقعه في الحزب إلى مواقع سياسية أخرى نقيضة شديدة الإلتباس. وكان من المؤسف أن يتورط بدر في مجموعة من المواقف ضد الحزب الشيوعي شجعه عليها بعض خصومه وخصوم الحزب في العراق وخارجه. وبرزت تلك المواقف في مجموعة من الرسائل إلى أصدقائه هاجم فيها الحزب الشيوعي والشيوعية بلغة لا تليق بشاعر مثله. وصدرت تلك الرسائل في كتاب. لكن كل تلك التحولات لم تترك أي تأثير على تطور تجربته الشعرية. بل لعلها ساهمت في صقلها وفي إغنائها. وظل يكبر كواحد من رموز شعراء الحداثة إلى أن غادر الحياة مريضاً في منفاه بعيداً عن وطنه وعن أهله وعن سربه الأصلي من المثقفين والسياسيين. وكان ذلك في عام ١٩٦٤. ولم يكن قد بلغ الأربعين من عمره. فهو قد ولد في عام ١٩٢٦ في قرية «جيكور» التي تقع

على «نهر بويب» في شط العرب غير بعيد من منطقة «أبي الخصيب».
توفيت والدته وهو في السادسة من عمره. وكان شديد التعلق بها.
فترك غيابها أثراً كبيراً في نفسه ربما يكون من أسباب حالة الحزن
ومسحة التشاؤم والسوداوية التي ظلت ترافقه على امتداد حياته،
وحفلت بها معظم قصائده التي كتبها في السنوات الأخيرة من حياته.
فكان الموت هو القاسم المشترك بين تلك القصائد. وكانت العائلة
قد منيت بنكسة اقتصادية في المرحلة التي أعقبت وفاة والدة بدر.
وكان من نتائج تلك النكسة إهمال الأطفال والتقصير في تلبية
مطالبهم. وكان والد بدر قد تزوج من امرأة أخرى بعد وفاة الوالدة.
لذلك كان بدر يفر إلى قرية «جيكور» البلدة التي كانت ترعاه فيها أمه
وتهتم به. وهذا ما يفسر كيف أن «جيكور» قد احتلت مكاناً خاصاً
في شعره. ولأنه كان يفتقد إلى الوسامة وهو طفل ثم وهو في سن
المراهقة، فقد كان الحب بالنسبة إليه مثل الحلم والخيال. وتبرز
أحلام يقظته وخيالاتها حول الحب في قصيدة «شناشيل إبنة الجلبي»
التي كتبها في عام ١٩٦٢. يقول في القصيدة:

ثلاثون انقضت، وكبرتُ: كم حب وكم وجدِ
توهّج في فؤادي!
غير أني كلما صفقتْ يدا الرعدِ
مددت الطرف أرقبُ: ربما ائتلقَ الشناشيلُ
فأبصرت ابنة الجلبي مقبلة إلى وعدي!
ولم أرها. هواء كل أشواقي، أباطيلُ
ونبتٌ دونما ثمر، ولا وردِ!

أنهى بدر دراسته الإبتدائية في «مدرسة باب سليمان» في «أبي

الخصيب». وأنهى دراسته الثانوية في «مدرسة البصرة» في عام ١٩٤٣. ويقول صديقه محمد علي إسماعيل، وفق ما يشير إليه الدكتور إحسان عباس في كتابه المهم عن بدر شاكر السياب «دراسة في حياته وشعره»، أن بدراً بدأ الشعر في المرحلة الإبتدائية من دراسته. وكانت قصيدته الأولى وصفاً لمعركة القادسية. ويقول الدكتور عباس إن بدراً لم يحتفظ بقصائده الأولى، وإن القصيدة التي يذكرها من البدايات هي قصيدة كتبها في عام ١٩٤١ عندما كان يتابع دراسته في مدرسة البصرة الثانوية. وكان عنوان القصيدة «على الشاطئ». وفيها يبدأ بدر في الشكوى من مأساة حياته قبل أن يكبر ويرى الحياة ويكشف فيها حظه منها. يقول في هذه القصيدة:

على الشاطئ أحلامي — طواها الموج يا حب
وفي حلكة أيامي — غدا نجم الهوى يخبو
عزاءً قلبي الدامي

انتقل بدر إلى بغداد في مطلع العام الدراسي ١٩٤٣-١٩٤٤ لمتابعة دراسته الجامعية في دار المعلمين العالية. وكان ذلك الإنتقال بالنسبة إليه مدخلاً إلى حياة جديدة مختلفة عن كل ما سبق من حياته. إذ انفتحت أمام عينيه عوالم جديدة. وبدأ يتعرف إلى الأدباء. وبدأ شعره يتخذ مناحي ومواضيع جديدة. ففي بغداد برزت أمامه كل القضايا التي كانت تواجه العراق داخلياً وخارجياً وتواجه الثقافة والمثقفين. وإذا كان قبل ذلك قد بدأ يتلمس قضايا شعبه بوعي غامض، فإنه قد بدأ في بغداد يزداد وعياً بالأمور الكبيرة ويرقب بوعي الأحداث ومعانيها. وبدأ يأخذ طريقه إلى الإنتماء السياسي الذي لم يطل الزمن حتى قرر، وهو في دار المعلمين العالية،

الإنتساب إلى الحزب الشيوعي العراقي. لكنه في تلك المرحلة بالذات كان يزداد شغفاً بالقراءة. ولم يكن الشعر وحده هوايته في القراءة رغم أنه غاص في عالمه كثيراً. بل هو وسع مجالات قراءاته لتشمل شتى ميادين الثقافة والمعرفة. إذ رأى في ذلك مصدراً لتكوّن شخصيته، وربما لصياغة حلم يعوّض فيه عما كان في داخله يعمق سوداويته. لكنه في قراءته الشعر لم يكتف بالتراث الشعري العربي القديم. بل هو ذهب إلى الشعر الأجنبي ينهل من ينابيعه ويغني موهبته.

في دار المعلمين تنوعت اهتمامات بدر من دون أن يطغى أي منها على أحاسيسه التي كان الشعر متنفسها. وفي الوقت الذي كانت تنتهي فيه الحرب العالمية الثانية بهزيمة الفاشية كانت جريمة هيروشيما تثير عنده أحاسيس إنسانية عميقة الجذور. ولم يلبث بدر أن بدأ يمارس مع أصدقائه نشاطه السياسي. وقادته مشاركته في المظاهرات الطلابية إلى الفصل من دار المعلمين. الأمر الذي اضطره إلى العودة إلى الريف. فترك ذلك الأمر عنده أثراً كبيراً من الغم، أضيف إلى ما كان يملك منه الكثير منذ الصغر. ويعبّر عن مشاعره في تلك الفترة في قصيدة يقول فيها:

ماذا جنيت من الزمان سوى الكآبة والنحولِ
أو أرقب الليل الطويل يذوب في الصبح الطويل
وأتابع الشمس المرنحة الشعاع إلى الأفول
وأشيع البدر السؤوم يغيب ما بين النخيل
لا مأمل لي بالكثير ولا رجاء بالقليل
وأعد أيامي لأسلمها إلى الهم الثقيل

وأعيش محروم الفؤاد من الهوى عيش الذليل
ضاقت بي الدنيا و ضقت بها كأني في رحيل

عندما قام الشعب العراقي بانتفاضته المشهودة في مطلع عام ١٩٤٨ كان بدر قد أصبح شيوعياً مرموقاً. وكان قد تخرج من دار المعلمين وصار مدرساً. وكان له مثل سواه من الشعراء دور في تخليد تلك الانتفاضة. ويقول السياب في أحد أحاديثه عن تلك الفترة أنه دعي إلى حفلة نظمها الحزب الشيوعي في منطقة الكرادة تحدث فيها الأديب محمد شرارة، وألقى هو قصيدة يقول فيها:

ما زال يملأ مسمع الأحقاب ذاك الهدير من الدم السياب
يعلو فيرتجف الطغاة وتمحى أسطورة الأحساب والأنساب

في تلك الفترة كان بدر قد أصبح شاعراً تلتفت إليه أنظار النقاد في العراق خصوصاً. وفي تلك الفترة بالذات أصدر ديوانه «أزهار ذابلة» الذي طبع في مصر. وتوطدت علاقته بشعراء وأدباء تلك الفترة وفي المقدمة منهم الجواهري وحسين مروة ومحمد شرارة وبلند الحيدري ونازك الملائكة. وبدأ يجدد أسلوبه الشعري في المضمون وفي شكل التعبير عن أفكاره ومشاعره وتصوراته. وكانت تلك بدايات دخوله في الحداثة الشعرية التي ساهم مع شعراء عراقيين ومصريين خصوصاً في جعلها ظاهرة جديدة في الشعر العربي الحديث.

يتحدث بدر عن السنوات الخمس من دراسته في دار المعلمين العالية، التي أنتهت بحصوله على الشهادة العليا في اللغة الإنكليزية والأدب الإنكليزي، فيلخص بعض ما حصل عليه فيها قائلاً: **«درست شكسبير وملتون والشعراء الفكتوريين ثم الرومانتيكيين. وفي**

سنتيّ الأخيرتين في دار المعلمين العالية تعرفت لأول مرة إلى الشاعر الإنجليزي ت.س. إليوت. وكان إعجابي بالشاعر الإنجليزي جون كيتس لا يقل عن إعجابي بإليوت.»

عيّن بدر بعد تخرجه من دار المعلمين مدرساً في مدرسة الرمادي الثانوية. لكنه فصل في الفترة الأولى من ممارسة التدريس بسبب انتمائه الشيوعي، فاختار العمل في شركة نفط البصرة. لكنه عاد فترك العمل فيها واختار التفرغ لعمله الأدبي.

في العام الأخير من دراسته في دار المعلمين صدر ديوانه «أساطير». ويقول الدكتور إحسان عباس في كتابه المشار إليه آنفاً إن هذا الديوان يصوّر الكفة الذاتية العاطفية في ميزان السياب، وإن ديوان «زئير العاصفة» يمثل الجانب الاجتماعي في شعره.

ترك السياب العراق هرباً من القمع الذي ساد ابتداءً من عام ١٩٤٩. وذهب إلى الكويت. وهناك تابع إبداعه الشعري. وظهر إلى الوجود عدد من القصائد الطويلة التي عبّرت عن ثبات موقعه في حركة التجديد في الشعر. ويتحدث بدر عن ثلاث قصائد كتبها في تلك الفترة وهي: « الأسلحة والأطفال» و «المومس العمياء» و«غريب على الخليج». وفيها برزت بداية تردده في انتمائه السياسي إلى الشيوعية. وهو التردد الذي انتهى بخروجه من الحزب الشيوعي وخروجه على الشيوعية. يقول في قصيدة «الأسلحة والأطفال» التي وجدت صدى طيباً لدى رفاقه القدامى في الحزب الشيوعي العراقي:

بأقدام أطفالنا العاريه
يميناً، وبالخبز والعافيه:
إذا لم نعفر جباه الطغاة

على هذه الأرجل الحافيه

وأن لم نذوِّب رصاص الغزاة

حروفاً هي الأنجم الصاديه

(فمنهن في كل دار متاب

ينادي: قفي واصدأي يا حراب)

وأن لم نضوِّ القرى الداجيه

ولم نخرس الفوّهات الغضاب

ونُجلِ المغيرين عن آسيه . . .

فلا ذكرتْنا بغير السباب

أو اللعن أجيالنا الآتيه!

عاد السياب إلى الوطن من الكويت بعد فترة هدوء كان قد شهدها العراق في مطلع الخمسينات. لكنه رأى الأمور قد تغيرت، ورأى رفاقه القدامى قد بدأوا يشككون بانتمائه الأصلي إلى الحزب وإلى أفكاره. وكان البياتي قد برز في تلك الفترة شاعراً مبدعاً من جيل رواد حركة التحديث في الشعر. وكانت قصائده تلقى الترحيب من النقاد من أهل اليسارخصوصاً. إذ صار البياتي، في غياب السياب، شاعر أهل اليسار أكثرمن سواه بمن فيهم السياب ذاته. ويتحدث البياتي في سيرته الشعرية عن بداية الخلاف بينه وبين السياب. ويرجع ذلك الخلاف إلى التناقض بين أهل المهنة الواحدة. كما يرجعه إلى كونه، أي البياتي، كان أكثر التزاماً بقضايا بلده في مواقفه السياسية وفي شعره من دون أن يكون ملزماً بإعلان انتسابه الرسمي إلى الحزب الشيوعي. في تلك الفترة بالذات بدأت عملية الخروج التدريجي للسياب من أسرة أهل اليسار. فغادر العراق إلى

لبنان. والتقي مع جماعة مجلة «شعر». واهتمت به مجلة «الآداب» التي كانت قد شكلت قصائده المنشورة فيها مصدراً من مصادر قوتها. لكنه في لبنان بالذات بدأ يشعر بالكآبة. وهي الكآبة التي يولدها المنفى عند الشاعر إزاء إحساسه بالغربة عن وطنه العراق وعن أهله فيه وعن ذكرياته وعن رفاقه الذين تركهم وتركوه. وازدادت سوداويته. ثم أصيب بمرض السل الذي كان يأكل منه بالتدريج عافيته ومشاعره ويلقيه في بحر هائج من التشاؤم. وقاده ذلك المرض إلى الموت باكراً. وكان لشدة إحساسه باقتراب أجله قد بدأ ينبئ جميع الناس بذلك بأعلى الصوت:

الداء يثلج راحتيَّ ويطفِّئ الغد في خيالي
ويشل أنفاسي ويطلقها كأنفاس الذبال
تهتز في رئتين يرقص فيهما شبح الزوال
مشدودتين إلى ظلام القبر بالدم والسعال
واحسرتا! أكذا أموت كما يجف ندى الصباح
ما كاد يلمع بين أفواف الزنابق والأقاحي
فتفوح أنفاس الربيع تهز أفياء الدوالي
حتى تلاشى في الهواء كأنه خفق الجناح

وهكذا يموت الشاعر قبل الموعد المحتوم بزمن طويل. يموت وهو في ريعان الشباب. يموت فقيراً ومريضاً ومتعب المشاعر. يموت فاقداً الأمل في كل شيء، في الحب وفي الحياة وفي الفرح. لكنه يموت شاعراً كبيراً مخلّداً في شعره الريادي كواحد من كبار رواد الشعر الحديث.

مختارات من شعره

شناشيل ابنة الجلبي

وأذكر من شتاء القرية النضاح فيه النور

من خلل السحاب كأنه النغم

تسرّب من ثقوب المعزف - ارتعشت له الظلم

وقد غنّى - صباحاً قبل . . . فيم أعدّ؟ طفلاَ كنت أبتسم

لليلي أو نهاري أثقلت أغصانه النشوى عيون الحور

وكنا - جدنا الهدار يضحك أو يغني في ظلال الجوسق القصب

وفلاحيه ينتظرون: «غيثك يا إله» وإخوتي في غابة اللعب

يصيدون الأرانب والفراش، و(أحمد) الناطور -

نحدق في ظلال الجوسق السمراء في النهر

ونرفع للسحاب عيوننا: سيسيل بالقطْر

وأرعدت السماء فرنّ قاع النهر وارتعشت ذرى السعف

وأشعلهن ومض البرق أزرق ثم أخضر ثم تنطفئ

وفتّحت السماء لغيثها المدرار باباً بعد باب

عاد منه النهر يضحك وهو ممتلئ

تكلله الفقائع، عاد أخضر، عاد أسمر، غصّ بالأنغام واللهفِ

وتحت النخل حيث تظلّ تمطر كلّ ما سعفه

تراقصت الفقائع وهي تفجر - إنه الرطَب
تساقط في يد العذراء وهي تهز في لهفه
بجذع النخلة الفرعاء (تاج وليدك الأنوار لا الذهب،
سيصلب منه حبّ الآخرين، سيبرئ الأعمى
ويبعث من قرار القبْر ميْتاً هدّه التعب
من السفر الطويل إلى ظلام الموت، يكسو عظمه اللحما
ويوقد قلبه الثلجي فهو بحبّه يثب!)

* * *

وأبرقت السماء . . . فلاح، حيث تعرّج النهر،
وطاف معلّقاً من دون أسّ يلثم الماءا
شناشيل ابنة الجلبيِّ نور حوله الزهر
(عقود ندى من اللبلاب تسطع منه بيضاءا)
وآسية الجميلة كحّل الأحداق منها الوجد والسهر

* * *

يا مطراً يا جلبي
عبّر بنات الجلبي
يا مطراً يا شاشا
عبّر بنات الباشا
يا مطراً من ذهب

* * *

تقطعت الدروب، مقص هذا العاطل المدرار
قطّعها وواراها،

وطوّقت المعابر من جذوع النخل في الأمطار

كغرقى من سفينة سندباد، كقصة خضراء أرجأها وخلّاها

إلى الغد (أحمد) النٰاطور وهو يدير في الغرفة

كؤوس الشاي، يلمس بندقيته ويسعل ثم يعبر طرفه الشرفة

ويخترق الظلام

وصاح «يا جدي» أخي الثرثار

«انمكث في ظلام الجوسق المبتلّ ننتظر؟

متى يتوقف المطر؟»

* * *

وأرعدت السماء فطار منها ثمة انفجرا

شناشيل ابنة الجلبي . .

ثم تلوح في الأفق

ذرى قوس السحاب وحيث كان يسارق النظرا

شناشيل الجميلة لا تصيب العين إلى حمرة الشفق

* * *

ثلاثون انقضت وكبرت: كم حبّ وكم وجد

توهّج في فؤادي!

غير أني كلما صفقت يدا الرعد

مددت الطرف أرقب ربما ائتلق الشناشيل

فأبصرت ابنة الجلبي مقبلة إلى وعدي!

ولم أرها. هواء كلّ أشواقي، أباطيل

ونبت دونما ثمر ولا ورد!

في الليل

الغرفة موصدة الباب
والصمت عميق
وستائر شباكي مرخاة،
رُبّ طريق
يتنصت لي، يترصد بي خلف الشباك، وأثوابي
كمفزّع بستان، سود
أعطاها الباب المرصود
نفساً، ذرّ بها حسّاً، فتكاد تفيق
من ذاك الموت، وتهمس بي، والصمت عميق، :
«لم يبق صديق
ليزورك في الليل الكابي
والغرفة موصدة البابِ»،
ولبست ثيابي في الوهم
وسريت: ستلقاني أمي
في تلك المقبرة الثكلى،
ستقول: «أتقتحم الليلا
من دون رفيق؟
جوعان؟ أتأكل من زادي:
خروب المقبرة الصادي؟
والماء ستنهله نهلا
من صدر الأرضِ

ألا ترمي
أثوابك؟ والبس من كفني، لم يبل على مرّ الزمن،
عزريل الحائك، إذ يبلى،
يرفوه، تعال ونم عندي:
أعددت فراشاً في لحدي
لك يا أغلى من أشواقي
للشمس، لأمواه النهر
كسلى تجري،
لهتاف الديك إذا ذوى في الآفاق
في يوم الحشرِ»
سآخذ دربي في الوهم
وأسير فتلقاني أمي

وغداً سألقاها

وغداً سألقاها،
سأشدها شدّاً فتهمس بي
«رحماك»، ثم تقول عيناها:
مزّق نهودي، ضمّ -أوّاها-
ردفيّ... واطو برعشة اللهب
ظهري، كأن جزيرة العرب
تسري عليه بطيب ريّاها،
ويموج تحت يدي ويرتجف

بين التمنّع والرضا ردف،
وتشبّ عند مفارق الشَّعر
نار تدغدغها: هو السّعف
من قريتي رعشت لدى النهر
خوصاته، وتلين لا تدري
أيان تنقذف
ويهيم ثغري وهو منخطف،
أعمى تلمّس دربه يقف
ويجسّ: نهداها
يتراعشان، جوانب الزهر
تصطك، سوف تبلّ بالقطر،
سأذوب فيها حين ألقاها!

كيف لم أحببك

كيف ضيعتكِ في زحمة أيامي الطويلة؟
لم أحلّ الثوب عن نهديك في ليلة صيف مقمرة؟!
يا عبير التوت من طوقيهما.. مرّغتُ وجهي في خميله
من شذى العذراء في نهديك–
ضيّعتك، آه يا جميله!
إنه ذنبي الذي لن أغفره!
كيف لم أحببك؟! يا لهفة ما بعد الأوان
في فؤاد لم تكوني فيه إلا جذوة في مجمرة!

شعرك الأشقر شعّ اليوم شمساً في جناني
يتراءى تحتها ساقاك، يا للزنبق
رفّ من ساقيك!!
آهٍ كيف ضيّعتك يا سرحة خوخ مزهرة؟
آه لو عندي بساط الريح!!
لو عندي الحصان الطائر
آه لو رجلاي كالأمس تطيقان المسيرا!
لطويت الأرض بحثاً عنكِ
لكن الجسورا
قطّعتها بيننا الأقدار، مات الشاعر
فيّ وانسدت كوى الأحلامِ
آهٍ يا جميلة!

في المستشفى

كمستوحد أعزل في الشتاء
وقد أوغل الليل في نصفه،
أفاق فأوقظ غيم الضياء
وقد خاف من حتفه،
أفاق على ضربة في الجدار-
هو الموت جاء!
وأصغى: أذاك انهيار الحجار
أم الموت يحسو كؤوس الهواء؟

لصوص يشقون درباً إليه
مضوا ينقبون الجدار
وظلّ يعد انهيار التراب
ووقع الفؤوس على مسمعيه
يكاد يحس التماع الحراب
وحزّاتها فيه . . . يا للعذاب!!
وما عنده غير محض انتظار:
هو الموت عبر الجدار!

* * *

كذاك انكفأت أعضُّ الوساد
وأسلمت للمشرط القارس
قفاي المدمّى بلا حارس
-بغير اختياري، طبيبي أراد!-
لقد قصّ.. مد المجسّ الطويل...
لقد جرّه الآن، أواه.. عاد
ولا شيء غير انتظار ثقيل
ألا فاخرقوا، يا لصوص، الجدار
فهيهات، هيهات، ما لي فرار!

متى نلتقي

ألا يأكل الرعب منا الضلوع
إذا ما نظرنا إلى ظلّ تينه،
فلاحت لنا، من ظلام، قلوع

تهدهدها غمغمات حزينة؟

ألا تتحجّر منا العيون

إذا لاح في الليل ظلّ البيوت

هزيلاً كما ينسج العنكبوت

ألا تتحجر منا العيون

ويلمع فيها بريق الجنون؟

وبالأمس كنا يذيب العناق

دماً في دم،

كنور ونار، سنا واحتراق

يجولان في منزل مظلم

ولكن ما بيننا كان بحر

تغنيك أمواجه العاتية:

«سنرعاك من قلعة شدّ منها حديد وصخر

فما الحبّ هدم لجدرانك العالية».

ولكن ما بيننا كان بحر

وصحراء تنشج فيها النجوم

ولا نلتقي في دجى أو صباح،

تموت على رملها عاصفات الرياح

وتأكل عين الدليل التخوم

وصحراء تنشج فيها النجوم

وطارت بي الريح عبر البحار

إلى الليل والثلج والمجهل،

فصرنا إلى واقع لا محار

بألغازه. فاسألي:

-وطارت بي الريح عبر البحار-

«أما من لقاء لنا في الزمان؟»

بلى.. حينما تفهمين اللقاء

فيأوي إلى اللوحة المغرقان

يشدانها، يرفعان الدعاء:

«ألا نجّنا يا إله السماء!»

ألا يأكل الرعب منا الضلوع

إذا ما نظرنا إلى ظلّ تينه

فلاحت لنا، من ظلام، قلوع

تهدهدها غمغمات حزينة؟

ألا يأكل الرعب منا الضلوع؟

ديوان شعر

ديوان شعر ملؤه غزل بين العذارى بات ينتقل

أنفاسي الحرّى تهيم على صفحاته، والحب والأمل

وستلتقي أنفاسهن بها وترف في جنباته القبل

ديوان شعر ملؤه غزل بين العذارى بات ينتقل

وإذا رأين النوح والشكوى كلّ تقول: من التي يهوى؟

وسترتمي نظراتهن على الصفحات، بين سطوره، نشوى

ولسوف ترتج النهود أسى ويثيرها ما فيه من نجوى

ولربما قرأته فاتنتي	فمضت تقول: من التي يهوى؟
ديوان شعري، رب عذراء	أذكرتها بحبيبها النائي
فتحسست شفة مقبّلة	وشتيت أنفاس وأصداء
فطوتك فوق نهودها بيدٍ	واسترسلت في شبه إغفاء
ديوان شعري، ربّ عذراء	أذكرتها بحبيبها النائي
يا ليتني أصبحت ديواني	لأفرّ من صدر إلى ثان
قد بتّ من حسد أقول له:	يا ليت من تهواك تهواني
ألك الكوؤس ولي ثمالتها	ولك الخلود، وإنني فان؟
يا ليتني أصبحت ديواني	لأفرّ من صدر إلى ثان
سأبيت في نوح وتسهيد	وتبيت تحت وسائد الغيد
أولست مني؟ إنني نكد	ما بال حظك غير منكود؟
زاحمت قلبي في محبته	وخرجت منها غير معمود
أأبيت في نوح وتسهيد	وتبيت تحت وسائد الغيد؟

القصيدة والعنقاء

جنازتي في الغرفة الجديدة
تهتف بي أن أكتب القصيدة،
فأكتبُ
ما في دمي وأشطبُ
حتى تلين الفكرة العنيدة
وغرفتي الجديدة
واسعة، أوسع لي من قبري

إذا اعتراني تعب

من يقظة فالنوم منها أعذب

ينبع حتى من عيون الصخر

حتى من المدفأة الوحيدة

تقوم في الزاوية البعيدة

وترفع الجنازة اليابسة المهدمة

من رأسها، ترنو إلى الجدران

والسقف والمرآة والقناني

ما للزوايا مظلمه

كأنهنّ الأرض للإنسان

تريد أن تحطمه

بالمال والخمور والغواني،

والكذب في القلب وفي اللسان،

تريد أن تعيده

للغابة البليده؟

وصفحة المرآة ما لها تطلّ خاويه

ما أثمرت بغانيه،

بالشّفة المرجان

تنيرها، كالشفق، العينان

وبالنهود العاريه؟

كهذه المرآة

ستصبح الأرض بلا حياةِ

وفي الليالي الداجيه،
في ذلك السكون ليس فيه
إلا الرياح العاويه،
سيفزع الله من الأموات
ويسحب الموتى ويغفو فيه
مثل دثار في الليالي الشاتيه
وهكذا الشاعر حين يكتب القصيدة
فلا يراها بالخلود تنبض،
سيهدم الذي بنى، يقوّض
أحجارها ثمّ يملّ الصمت والسكونا
وحين تأتي فكرة جديدة،
يحسبها مثل دثار يحجب العيونا
فلا ترى، إن شاء أن يكونا
فليهدم الماضي، فالأشياء ليس تنهض
إلا على رمادها المحترق
منتثراً في الأفق...
وتولد القصيدة

العودة لجيكور

على جواد الحلم الأشهب
أسريت عبر التلال
أهرب منها، من ذراها الطوال،

من سوقها المكتظ بالبائعين،
من صبحها المتعب
من ليلها النابح والعابرين،
من نورها الغيهب،
من ربّها المغسول بالخمر،
من عارها المخبوء بالزهر،
من موتها الساري على النهر،
يمشي على أمواجه الغافية
أواه لو يستيقظ الماء فيه،
لو كانت العذراء من وارديه،
لو أن شمس المغرب الداميه
تبتلّ في شطّيه أو تشرق،
لو أن أغصان الدجى تورق
أو يوصد الماخور عن داخليهِ
على جواد الحلم الأشهب
وتحت شمس المشرق الأخضر
في صيف جيكور السخي الثري
أسريت أطوي دربي النائي
بين الندى والزهر والماء
أبحث في الآفاق عن كوكب
عن مولد للروح تحت السماء
عن منبع يروي لهيب الظمّاء

عن منزل للسائح المتعب

جيكور، جيكور: أين الخبز والماء؟

الليل وافى وقد نام الأدلاء؟

والركب سهران من جوع ومن عطش

والريح صرّ، وكلّ الأفق أصداء

بيداء ما في مداها ما يبين به

درب لنا وسماء الليل عمياء

جيكور مدّي لنا باباً فندخله،

أو سامرينا بنجم فيه أضواء!

من الذي يسمع أشعاري؟

فإن صمت الموت في داري

والليل في ناري

من الذي يحمل عبء الصليب

في ذلك الليل الطويل الرهيب؟

من الذي يبكي ومن يستجيب

للجائع العاري؟

من ينزل المصلوب عن لوحه؟

من يطرد العقبان عن جرحه؟

من يرفع الظلماء عن صبحه؟

ويبدل الأشواك بالغار؟

أواه يا جيكور لو تسمعين!

أواه يا جيكور... لو توجدين!

لو تنجدين الروح، لو تجهضين
كي يبصر الساري
نجماً يضيء الليل للتائهين
نزع ولا موت،
نطق ولا صوت،
طلق ولا ميلاد
من يصلب الشاعر في بغداد؟
من يشتري كفّيه أو مقلتيه؟
من يجعل الإكليل شوكاً عليه؟
جيكور يا جيكور
شدّت خيوط النور
أرجوحة الصبح
فأولمي للطيور
والنمل من جرحي
هذا طعامي أيها الجائعون
هذي دموعي أيها البائسون
هذا دعائي أيها العابدون:
أن يقذف البركان نيرانه،
أن يرسل الفرات طوفانه،
كي نشرق الظلمة،
كي نعرف الرحمة،
جيكور يا جيكور

شدّت خيوط النور
أرجوحة الصبح
فأولمي للطيور
والنمل من جرحي.

المسيح بعد الصلب

بعدما أنزلوني، سمعت الرياح
في نواح طويل تسفّ النخيل،
والخطى وهي تنأى. إذن فالجراح
والصليب الذي سمّروني عليه طوال الأصيل
لم تمتني، وأنصت: كان العويل
يعبر السهل بيني وبين المدينه
مثل حبل يشدّ السفينه
وهي تهوي إلى القاع، كان النواح
مثل خيط من النور بين الصباح
والدجى، في سماء الشتاء الحزينة
ثم تغفو، على ما تحسّ، المدينه
حينما يزهر التوت والبرتقال،
حين تمتد «جيكور» حتى حدود الخيال،
حين تخضرّ عشباً يغني شذاها
والشموس التي أرضعتها سناها،
حين يخضرّ حتى دجاها،

يلبس الدفء قلبي، فيجري دمي في ثراها
قلبي الشمس إذ تنبض الشمس نورا
قلبي الأرض، تنبض قمحاً، وزهراً، وماءً نميرا
قلبي الماء، قلبي هو السنبل
موته البعث: يحيا بمن يأكل
في العجين الذي يستدير
ويدحى كمهد صغير، كثدي الحياة
متّ بالنار، أحرقت ظلماء طيني، فظلّ الإله
كنت بدءاً وفي البدء كان الفقير
متّ، كي يؤكل الخبز باسمي، لكي يزرعوني مع الموسم
كم حياة سأحيا: ففي كل حفره
صرت مستقبلاً، صرت بذره
صرت جيلاً من الناس: في كلّ قلب
دمي قطرة منه أو بعض قطره
هكذا عدت، فاصفّر لما رآني يهوذا..
فقد كنت سرّه
كأنّ ظلاً، قد أسود، مني، وتمثال فكره
جمّدت فيه واستلت الروح منها،
خاف أن تفضح الموت في ماء عينيه...
(عيناه صخره
راح فيها يواري عن الناس قبره)
خاف من دفئها، من محال عليه، فخبّر عنها

- «أنت! أم ذاك ظلّي قد ابيضّ وأرفضّ نورا؟

أنت من عالم الموت تسعى! هو الموت مرّه

هكذا قال آباؤنا، هكذا علّمونا فهل كان زورا؟»

ذاك ما ظنّ لما رآني، وقالته نظره

أنشودة المطر

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

عيناك حين تبسمان تورق الكروم

وترقص الأضواء... كالأقمار في نهر

يرجّه المجذاف وهناً ساعة السحر

كأنما تنبض في غوريهما، النجوم...

وتغرقان في ضباب من أسى شفيف

كالبحر سرّح اليدين فوقه المساء،

دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف،

والموت، والميلاد، والظلام، والضياء

فتستفيق ملء روحي، رعشة البكاء

ونشوة وحشية تعانق السماء،

كنشوة الطفل إذا خاف من القمر!

كأن أقواس السحاب تشرب الغيوم

وقطرة فقطرة تذوب في المطر...

وكركر الأطفال في عرائش الكروم،

ودغدغت صمت العصافير على الشجر
أنشوة المطر...
مطر...
مطر...
مطر...
تثاءب المساء، والغيوم ما تزال
تسحّ ما تسحّ من دموعها الثقال
كأن طفلاً بات يهذي قبل أن ينام:
بأن أمه- التي أفاق منذ عام
فلم يجدها، ثم حين لجّ في السؤال
قالوا له: «بعد غد تعود...»-
لا بد أن تعود
وإن تهامس الرفاق أنها هناك
في جانب التلّ تنام نومة اللحود
تسفّ من ترابها وتشرب المطر،
كأن صياداً حزيناً يجمع الشباك
ويلعن المياه والقدر
وينثر الغناء حيث يأفل القمر
مطر...
مطر...
مطر...
أتعلمين أيّ حزن يبعث المطر؟

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟
بلا انتهاء- كالدم المراق، كالجياع،
كالحب، كالأطفال، كالموتى- هو المطر!
ومقلتاك بيت طيفان مع المطر
وعبر أمواج الخليج تمسح البروق
سواحل العراق بالنجوم والمحار،
كأنها تهمّ بالشروق
فيسحب الليل عليها من دم دثار
أصيح بالخليج: «يا خليج
يا واهب اللؤلؤ والمحار، والردى!»
فيرجع الصدى
كأنه النشيج:
«يا واهب المحار والردى...»
أكاد أسمع العراق يزخر الرعود
ويخزن البروق في السهول والجبال،
حتى إذا ما فضّ عنها ختمها الرجال
لم تترك الرياح من ثمود
في الواد من أثر
أكاد أسمع النخيل يشرب المطر
وأسمع القرى تئنّ، والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع،

عواصف الخليج، والرعود، منشدين:

«مطر...

مطر...

مطر...

وفي العراق جوع

وينثر الغلال فيه موسم الحصاد

لتشبع الغربان والجراد

وتطحن الشوّان والحجر

رحى تدور في الحقول... حولها بشر

مطر...

مطر...

مطر...

وكم ذرفنا ليلة الرحيل من دموع

ثم اعتللنا -خوف أن نلام- بالمطر...

مطر...

مطر...

وكلّ عام حين يعشب الثرى- نجوع

ما مرّ عام والعراق ليس في جوع

مطر...

مطر...

مطر...

في كل قطرة من المطر

حمراء أو صفراء من أجنّة الزهر
وكلّ دمعة من الجياع والعراة
وكلّ قطرة تراق من دم العبيد
فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد
أو حلمة توردت على فم الوليد
في عالم الغد الفتيّ، واهب الحياة!
مطر...
مطر...
مطر...
سيعشب العراق بالمطر...»
أصيح بالخليج: «يا خليج...
يا واهب اللؤلؤ والمحار، والردى!»
فيرجع الصدى
كأنه النشيج:
«يا خليج
يا واهب المحار والردى.»
وينثر الخليج من هباته الكثار،
على الرمال، رغوة الأجاج، والمحار
وما تبقى من عظام بائس غريق
من المهاجرين ظلّ يشرب الردى
من لجة الخليج والقرار،
وفي العراق ألف أفعى تشرب الرحيق

من زهرة يربّها الفرات بالندى
وأسمع الصدى
يرنّ في الخليج
مطر . . .
مطر . . .
مطر . . .
في كلّ قطرة من المطر
حمراء أو صفراء من أجنة الزهر
وكل دمعة من الجياع والعراة
وكلّ قطرة تراق من دم العبيد
فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد
أو حلمة تورّدت على فم الوليد
في عالم الغد الفتيّ،
واهب الحياة
ويهطل المطر



نازك الملائكة

نازك الملائكة

١٩٢٣ - ٢٠٠٧

رحلت الشاعرة العراقية نازك الملائكة في عام ٢٠٠٧. رحلت بعد أن كانت قد صمتت طويلاً **وغابت عن الشعر وعن الحياة العامة وعن علاقاتها بعالم الأدب. وفقد الشعر العربي** بغيابها واحداً من رموز نهضته الحديثة.

لقد تعرفت إلى نازك الملائكة في أواخر أربعينات القرن الماضي إثر صدور ديوانها الأول «عاشقة الليل». وكان اسم نازك الملائكة قد بدأ يبرز في عالم الشعر العربي الحديث منذ مطالع النصف الأول من أربعينات القرن الماضي. لكن شهرتها كشاعرة حديثة بدأت تصعد بسرعة الضوء في أعقاب صدور ديوانها الأول «عاشقة الليل» الآنف الذكر. إلا أن ولادتها كشاعرة لم تأت من فراغ. فهي تنتمي إلى بيت أدب وشعر. والدها صادق الملائكة كان متخصصاً في اللغة العربية ومدرساً في فنونها وشؤونها. ووالدتها أم نزار كانت شاعرة. وخالها جميل الملائكة الأقرب إليها في السن، كان أيضاً شاعراً. وكان رفيقاً أنيساً لها عندما كانت تتلمس كتابة الشعر في سن مبكرة. لقد أتت نازك إلى الشعر من أبوابه العريضة. أتت إليه من ثقافة واسعة وعميقة، سواء في الأدب العربي بالتحديد أم في آداب الشعوب الأخرى. إذ هي اهتمت منذ وقت مبكر بتعلم اللغات من اللاتينية إلى

الإنجليزية ثم إلى الفرنسية. وصارت تغرف الكثير من ثقافات الشعوب الأخرى ومن آدابها ومن الرموز الكبيرة في تاريخها وتاريخ العالم. لكنها وجدت نفسها حين نضجت موهبتها الشعرية تقتحم باب الشعر الحديث من دون أن تتخلى عن الموسيقى التي تعطي للشعر العربي رنته ورونقه، ومن دون أن تتخلى عن العروض في عدد كبير من قصائدها الأولى التي ضمها ديوانها الأول «عاشقة الليل».
وتحولت نازك إلى ظاهرة شعرية في قلب التحولات التي كان يحفل بها عالم الشعر والشعراء بخاصة وعالم الأدب بعامة. وهي كانت حركة تعبر عن نهضة جديدة شملت أجناس الأدب جميعها. وكان مركزها في الأربعينات والخمسينات كلاً من مصر والعراق ولبنان.
وجدير بالذكر أن هذه النهضة الأدبية والتنافس بين روادها كانت قد ترافقت مع سيل من الأحداث السياسية في العراق وفي العالم العربي. اهتمت نازك منذ البدايات بالمدارس الأدبية على اختلافها وبالأخص منها المدرستين الرومانسية والواقعية. ثم صارت تهتم بالمدارس الحديثة التي سرعان ما صارت جزءاً منها ومن روادها في الشعر. وكانت تتابع في الوقت عينه اهتمامها بالرموز الأدبية التي عبرت عنها تلك المدارس الأدبية في تعددها وفي تنوعها. فترجمت نصوصاً وكتباً لعدد منهم.

لقد أتيح لي أن أتعرف إلى نازك الملائكة مع بدايات ظهور اسمها في عالم الشعر كما أشرت إلى ذلك. وكان ذلك في العراق في عام ١٩٤٧. تعرفت إلى نازك في منزل الأديب اللبناني محمد شرارة صديق ورفيق عمر حسين مروة. وكان رفيقي في ذلك اللقاء الأول معها نزار مروة ابن حسين مروة. ثم صرنا نلتقي في منزل صادق الملائكة لكي نجتمع إلى نازك ولنستمع إلى حديثها في الأدب

وإلى قصائدها الجديدة التي كانت تتلوها علينا بحياء وخفر. وهما سمتان لصيقتان بنازك لم يغادراها حتى وهي في عمرها الذي كان قد تجاوز الثمانين. وكان والدها صادق الملائكة يكثر من الحديث في اللغة ليؤكد لنا عمق وسعة اطلاعه على شؤون لغتنا العربية وشجونها في الصرف والنحو وفي معاني المفردات وفي سوى ذلك. أما أم نزار والدة نازك فكانت تتحدث إلينا في الشؤون الأدبية العامة من موقعها كأديبة وكشاعرة. وهي بتلك الصفات والكفاءات ربت ابنتها نازك وساعدتها في تفجير مواهبها الشعرية. لكن علاقتي مع نازك لم تدم أكثر من العامين اللذين أمضيتهما في العراق.

ولدت نازك الملائكة في عام ١٩٢٣ في محلة «العاقولية» إحدى مناطق بغداد القديمة الواقعة بالقرب من شارع الرشيد. ثم انتقلت العائلة بعد ذلك إلى الكرادة الشرقية. كانت نازك المولود البكر لأبويها. وتقول الأديبة العراقية الراحلة حياة شرارة في كتابها «صفحات من حياة نازك الملائكة» أن جذور عائلة الملائكة تعود إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء. وهو أحد أشهر ملوك المناذرة اللخميين في الحيرة المعروف في التاريخ العربي بأنه عمل في زمانه على جمع كلمة القبائل العربية وعلى توحيدها. وتضيف حياة بأن آل الملائكة كانوا شديدي الإعتزاز بجذورهم التاريخية تلك. لكن المتداول في الجذر الحديث للعائلة هو انتسابهم إلى عائلة الجلبي. ثم صار اسم العائلة الملائكة. وهو الإسم الذي عرفت به نازك أباً عن جد. أما لماذا سميت نازك بهذا الإسم فتقول حياة شرارة في كتابها الآنف الذكر إن نازك أخبرت الموسيقار محمد عبد الوهاب عندما التقته في عام ١٩٧٤ بأن والديها اختارا لها هذا الإسم تيمناً باسم الثائرة السورية نازك العابد.

انتقلت نازك من مدرستها في بغداد إلى مدرسة الكرادة الإبتدائية للبنات. وكانت المدارس قليلة العدد، لاسيما مدارس البنات. كانت نازك متميزة في دراستها متفوقة على قريناتها في الصف رغم الصعوبات التي واجهتها في مادة الرياضيات. وتقول نازك في مذكراتها، التي تنقلها حياة شرارة، في معرض حديثها عن المواد الدراسية: «**كنت منذ صغري أحب اللغة العربية والإنكليزية والتاريخ ودروس الموسيقى. كما كنت أجد لذة في دراسة العلوم خاصة علم الفلك وقوانين الوراثة والكيمياء. لكنني كنت أمقت الرياضيات مقتاً شديداً، وأعد السنين يوماً يوماً لأصل إلى إنهاء المرحلة الثانوية، فأتخصص بدراسة الأدب... ولقد بدأت نظم الشعر وحبه منذ طفولتي الأولى. والواقع أنني سمعت أبويّ وجدي يقولون عني إنني «شاعرة» قبل أن أفهم معنى هذه الكلمة، لأنهم لاحظوا عليّ التقفية وأذناً حساسة تميز النغم الشعري تمييزاً مبكراً. وبدأت بنظم الشعر العامي قبل عمر السبع سنوات. وفي سن العاشرة نظمت أول قصيدة فصيحة وكانت قافيتها غلطة نحوية. وعندما قرأها أبي رمى القصيدة على الأرض بقسوة وقال لي في لهجة جافة مؤنبة: اذهبي أولاً وتعلمي قواعد الشعر، ثم انظمي... لكن أبي بقي أستاذي في النحو حتى أنهيت دراسة الليسانس. وكنت أهرع إليه بكل مشكل نحوي يعرض لي وأنا أقرأ ابن هشام والسيوطي والأشموني وسواهم**».

بدأت نازك مع خالها جميل بدراسة العروض بمفردهما، عندما كانا في المرحلة المتوسطة من دراستهما. وشرعا ينظمان الشعر على قواعد العروض وبحوره. وكانت تشكل المسابقات الشعرية التي كان ينظمها أفراد الأسرة في اجتماعاتهم نوعاً من التسلية ولوناً من الرياضة الفكرية. وكان من بين ما قامت به نازك مع خالها وإخوتها

إصدار مجلة بيتية عائلية أطلقوا عليها اسم «الشاعر». وكان ذلك في عام ١٩٣٦. ولم يصدر منها سوى عدد واحد نشرت فيه نازك واحدة من قصائدها الأولى. ثم بدأت في نظم الشعر في المناسبات. وكانت تقوم بتلحين بعض قصائدها وبأدائها غنائياً بصوتها. ومعروف أن نازك كانت تعشق الموسيقى منذ طفولتها. وقد قادها حبها للموسيقى إلى تعلم العزف على العود. ولم يمض وقت طويل حتى كانت مكتبتها تغتني بالعديد من الآثار الموسيقية العربية والكلاسيكية. واقتنى والدها الفونوغراف في وقت مبكر لتمكين نازك من ممارسة هوايتها الموسيقية المبكرة. وتابعت بمساعدة والدها التزود بالآداب من خلال اقتناء الكتب من مصادرها الأساسية. وتكونت لدى العائلة مكتبة غنية بكل ألوان الأدب. لكن نازك لم تأت إلى الأدب وإلى الشعر خصوصاً كنزوة من النزوات. بل هي اعتبرت أن الأدب عموماً والشعر خصوصاً، هما علاقتها بالوجود وعلاقتها بالحياة في بلدها وفي العالم العربي وفي العالم الأوسع. لذلك كانت تنفعل بالأحداث التي كانت تحصل أمامها في العراق وفي العالم العربي. وكانت تلك الاحداث تترك في مشاعرها وفي أفكارها أثراً عميقاً. وكان من بين الأحداث الأولى التي هزتها وفاة الملك غازي ملك العراق الشاب في حادث اصطدام مروع لسيارته. ومعروف أن الملك الشاب كان يمارس هواية السير السريع في إحدى ضواحي العاصمة بغداد. ولأنه كان معروفاً بعلاقته بالألمان فقد سرت إشاعة قوية بأن الإنكليز هم الذين قتلوه. ثم جاء فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني ضد الإنكليز في عام ١٩٤١ ليترك مزيداً من الأسى عند نازك. ورغم أن والديها لم يكونا ينتميان إلى أي من التيارات السياسية المعروفة في العراق فإنهما كانا يلتزمان موقفاً وطنياً

معادياً للإستعمار من دون الدخول في دهاليز السياسة ومن دون أن يكون لهما مرجعيات فكرية. لكن الصداقة العميقة التي كانت تربط صادق الملائكة مع حسين مروة ومحمد شرارة ومع عائلتيهما، وكنت واحداً من أفراد العائلتين الذين كانوا يساريي النزعة في الفكر وفي السياسة، تلك الصداقة هي التي جعلت أجواء اللقاءات التي كانت تجري بين هؤلاء جميعاً تحمل طابعاً يسارياً بالمعنى الواسع للكلمة ولمضمونها. وقد أخذت نازك عن والديها ذلك الإتجاه العام في مواقفها. وظلت على امتداد حياتها تهتم بالشأن الوطني وبالقضايا العربية وفي مقدمتها قضية فلسطين. وكان يؤرقها ويوجعها حتى الأعماق وضع فقراء بلادها. وكانت تثير سخطها التقاليد القديمة التي كانت مهيمنة على حياة العراقيين في الريف خصوصاً وحتى في المدن، لا سيما ما يتصل من تلك التقاليد بالموقف المتعسف من المرأة. وكانت تلك القضايا جميعها مواضيع أساسية في شعرها.

في عام ١٩٣٦، وكانت نازك في الثالثة عشرة من عمرها، نظمت أول قصيدة لها بالمعنى الحقيقي للشعر. وحين أطلعت والدها على القصيدة دهش، وكاد لا يصدق أن نازك قد أصبحت قادرة على امتلاك ناصية الشعر في مثل تلك السن المبكرة. لكن نازك سرعان ما بدأ يسيطر عليها شعور بالعزلة وبالكآبة برغم ما اقترن بشخصيتها من غنى وبرغم تفجر طاقاتها الإبداعية وهي في تلك السن المبكرة. وظلت تلك العزلة رفيقتها على امتداد حياتها. ويبدو أنها كانت متأثرة بملحمة الشاعر اللبناني المهجري إيليا أبو ماضي المعروفة بعنوان «لست أدري». وهي تقول في مذكراتها الآنفة الذكر، ربما تفسيراً لتلك العزلة المقترنة بالتشاؤم التي استولت عليها: «**التفكير الفلسفي عادة تملكني منذ الصبا. فقد كنت دائماً أحب أن أفلسف كل شيء**

وأغوص في حيثياته وأسبابه. وفي سنوات النضج أقبلت على قراءة الفلسفة. وفي أيام الشباب أثرت فلسفة شوبنهاور المتشائمة تأثيراً شديداً في نفسي».

في عام ١٩٣٩ أنهت نازك دراستها الثانوية وانتسبت إلى كلية الآداب. وتابعت كتابة الشعر وهي في الكلية تغرف من المعارف ما يلبي طموحها. وكان يستهويها نظم الشعر بالإشتراك مع والدتها. وفي عام ١٩٤٠ ألقت أول قصيدة لها في محطة الإذاعة العراقية. وفي عام ١٩٤١ نظمت بالإشتراك مع والدتها ومع خالها جميل قصيدة بعنوان «بين روحي ودنياي»، كل بيت يشير إلى صاحبه بالحرف الأول من اسمه. في عام ١٩٤٢ دخلت نازك في معهد الفنون الجميلة في فرع العود. كما دخلت في فرع التمثيل في المعهد.

إلا أن من أغرب ما عرف عن مزاج نازك عزوفها عن الزواج. وشكلت في النصف الثاني من الأربعينات جميعة ضد الزواج ضمت شقيقتها إحسان والروائية ديزي الأمير. لكن الجمعية سرعان ما تصدعت. إذ أخذت المنتسبات إليها بمغادرتها إلى الزواج الواحدة تلو الأخرى. وكانت أولاهن شقيقة ديزي الأمير.

وهكذا، وفي شكل متدرج صعوداً، أصبحت نازك الملائكة شاعرة عراقية معترفاً بها بين الشعراء، وشاعرة عربية معترفاً بها بين الجيل الجديد من الشعراء العرب. وتكرس ذلك الأمر مع صدور ديوانها الأول «عاشقة الليل» في خريف عام ١٩٤٧. وقد ضم الديوان أهم قصائدها التي اختارتها هي من بين ما كانت قد كتبته من قصائد في الفترة الممتدة من أول قصيدة لها حتى ذلك التاريخ من عام ١٩٤٧. وحمل الديوان مجموع ما اتصفت به نازك من حزن

وأسى وسوداوية. لكنه قدمها إلى القراء كشاعرة من نوع مختلف. إلا أن شعرها في هذا الديوان ظل أميناً لقواعد العروض كما تعلمتها مع خالها منذ وقت مبكر. وبدأ الشعراء يلتفون حولها ويرحبون بها في ناديهم الذي كبر بانضمامها إليه. ونظم بعضهم قصائد أو أبياتاً ترحب بها. إلا أنها سرعان ما بدأت محاولات في كتابة الشعر الحر. وكانت أولى قصائدها في هذا النوع من الشعر قصيدة «الكوليرا».

الموت، الموت، الموت

تشكو البشرية، تشكو ما يرتكب الموت

وقد أثار هذا النمط من الشعر سخط والدها. فوجه نار نقده لها في هذا البيت:

لكل جديد لذة غير أنني وجدت «لذيذ» الموت غير لذيذ

فانتفضت نازك بغضب وتجد وقالت:

«قل ما تشاء، إني واثقة بأن قصيدتي ستغيّر طريقة الشعر العربي»

في عام ١٩٤٩ صدر ديوانها الثاني «شظايا ورماد» حاملاً إلى القراء تحول نازك في اتجاه الشعر الحر المتحرر من قوانين العروض. وكانت أول سفراتها خارج العراق في ذلك العام بالذات الذي صدر فيه ديوانها هذا. وكانت وجهتها لبنان.

مع صدور ديوانين لها انطلقت نازك في العالم الأرحب. ذهبت في سفرات دراسية، ثم في سفرات لإلقاء محاضرات، ثم في سفرات من أنواع مختلفة. ورغم الشهرة التي كانت تلاحقها في سفراتها، ورغم أنها كانت قد غادرت العزوبية وتزوجت وأنجبت أطفالاً، إلا أنها ظلت كما هي في مزاجها السوداوي الذي لم يفارقها. في تلك الفترة من حياتها بدأت نازك تمارس أنواعاً مختلفة من الكتابة. كتبت

قصصاً قصيرة، وكتبت في النقد الأدبي. وصدرت لها إلى جانب دواوينها الأخرى كتب في مجالات أدبية أخرى، وصدرت لها ترجمات عن الإنكليزية لعدد من الأدباء والشعراء.

واكبت نازك في شعرها أحداث وطنها العراق وأحداث العالم العربي. وأكدت بذلك أنها، رغم ما هي فيه من سوداوية خاصة بها، معنية بما كان يجري في العالم العربي من أحداث. وهي أحداث كانت بمجملها أحداثاً مأساوية تمثلت بهزائم سياسية وعسكرية. وكان الأساسي من تلك الأحداث والهزائم يتعلق بفلسطين. وكان بعضها الآخر يتعلق بالعراق. أما بعضها الثالث فكان يتعلق بالوحدة العربية. لكن أبرز ما أثار مشاعرها ما تمثل في انتكاسة الوحدة المصرية - السورية وفي هزيمة العرب في حرب حزيران في عام ١٩٦٧.

تغيرت طرائق نازك الملائكة في كتابة الشعر بين الحديث منها والكلاسيكي. لكنها انتقلت في القسم الأخير من حياتها إلى الشعر الموزون والمقفى. وقد عبرت عن موقفها من الشعر في أكثر من مقدمة من المقدمات التي وضعتها لدواوينها. ففي مقدمة ديوانها الثاني «شظايا ورماد» تعتبر أنه لا توجد قواعد للشعر بل أحكام. إذ تقول: «**في الشعر، كما في الحياة، يصح تطبيق عبارة برنارد شو: «اللاقاعدة هي القاعدة الذهبية»، لسبب هام، هو أن الشعر وليد أحداث الحياة، وليست للحياة قاعدة معينة تتبعها في ترتيب أحداثها، ولا نماذج معينة للألوان التي تتلون بها أشياؤها وأحاسيسها. ولا تناقض بين هذا الرأي وما يقسم إليه النقاد الشعر من مدارس ومذاهب، حين يقولون «كلاسيكي، رومانتيكي، واقعي، رمزي، سوريالي...» فهذه كلها ليست قواعد، وإنما أحكام**».

تعلّق نازك في مقال لها نشر في عام ١٩٨٣ في المجلة العربية للثقافة الصادرة في تونس أنها في الطريق لإحداث تغيير في أسلوبها الشعري. تقول: «**وبعد، فأنا على حافة انفجار شعري جديد يتغير فيه أسلوبي على عادتي طوال حياتي. ولكن لم يحن الوقت للتحدث في هذا بعد. ولذلك سأسكت. فالصمت أحياناً شعر نائم يوشك أن يستيقظ ليملأ الدنيا موسيقى وعبيراً وجمالاً**». وتقول في المقال ذاته، في تفسير أسباب حزنها وسوداويتها بالنص: «**أما أسباب الحزن الذي يغلف عاشقة الليل فهي متعددة. وأحدها ضيقي بفكرة الموت الذي ينتهي إليه البشر كلهم. وكنت لا أطيق ذلك مطلقاً وأرفضه رفضاً كلياً. والسبب الثاني لأحزاني ضيقي بالإستعمار البريطاني للعراق وكرهي للحكومة العراقية التي يمثلها نوري السعيد وعبدالإله. وسبب ثالث لأحزاني هو وضع المرأة في المجتمع العربي وفقدانها للثقافة والحرية، ونظرة الناس إليها. وسبب رابع لكآبتي وعذابي احتقاري للجنس والزواج، واعتقادي بأن الحب يدنس روح الإنسان لما وراءه من حسية. وهي فكرة تتجلى في قصيدتي «مدينة الحب» في عاشقة الليل. وهناك أسباب أخرى متفرقة هي المسؤولة عن نبرة الكآبة والعذاب في مأساة الحياة عند عاشقة الليل**».

أقدم هنا بعض المقتطفات من قصائدها التي تعبّر بصدق عن الكآبة التي رافقتها على امتداد حياتها. تقول في قصيدة بعنوان «مأساة الحياة» مأخوذة من ديوان «عاشقة الليل»:

عبثاً تحلمين شاعرتي ... ما من صباح لليل هذا الوجود
عبثاً تسألين لن يكشف السر ... ولن تنعمي بفك القيود
في ظلال الصفصاف قضيت ساعا ... تك حيرى تمضك الأسرار

تسألين الظلال والظل لا يعـ لـم شيئاً وتعلم الأقدار

وتقول في قصيدة بعنوان «مأساة شاعر»:

قد هبطنا في شاطئ الشعر والفن

فماذا فيه من الأفراح؟

ها هو الشاعر الكئيب وحيداً

تحت سمع الآصال والأصباح

وتقول في قصيدة بعنوان «نداء السعادة»:

يا ضباباً من الشذى الشفاف

يا جمالاً بلا حدود

يا رفيفاً معطراً في ضفاف

ليس يدري بها الوجود

أين تحيين في شغاف الغيوم

حيث لا يبلغ الخيال؟

أم تجوبين في بحار النجوم

زورقاً يعبد الجمال؟

غابت نازك الملائكة عن كتابة الشعر قبل وفاتها بسنوات عدة. إذ هي مرضت. وأقامت في المرحلة الأولى من مرضها في العراق، ثم في عمان، ثم في القاهرة. وظلت في الأعوام الأخيرة من حياتها في القاهرة ترفض أن تزور أحداً، أو أن يزورها أحد. وكان زوجها يجيب بالنيابة عنها على أسئلة المتصلين بها معتذراً عن عدم قدرتها، وعدم استعدادها، لاستقبال الزائرين. ثم أصبح ابنها يقوم بتلك المهمة الصعبة بعد وفاة زوجها. وكان قد بدأ ذلك السلوك عندها

عندما كانت لا تزال في العراق. وقد روت حياة شرارة، في كتابها الممتاز عن حياة نازك، صعوبة اتصالها بها، رغم ما كان يربط العائلتين من أواصر الصداقة منذ البدايات في أربعينات القرن الماضي.

هذه هي نازك الملائكة شعراً، وحياة، وسيرة، وأمزجة، ومشاعر، ومواقف أدبية وسياسية ورومانسية، وسوى ذلك مما يكمل صورة هذه الشاعرة العراقية التي غادرت الحياة عن أربعة وثمانين عاماً من عمرها قبل أن تفي بما وعدت به في حديثها حول الجديد الذي يختمر عند المرء في مثل هذا العمر؟!

مختارات من شعرها

سوسنة اسمها القدس

إذا ما عويل رياح المنايا
غداً مرّ يمحو صدى عمرنا
وصيّرنا الموت مائدة الدود،
واستنبت العوسج المتشعّب في شفتينا وفي شعرنا
وسافر طوفانه في شواطئنا الخصر
غلغل مسراه في جزرنا
إذا نحن متنا وحاسبنا الله.
قال: ألم أعطكم موطنا؟
أما كنت رقرقت فيه المياه مرايا؟
وجلّيته بالكواكب؟ زيّنته بالصبايا؟
وشرّعت فيه العناقيد، بعثرت فيه الثمر؟
ولوّنت حتى الحجر؟
أما كنت أنهضت فيه الذرى والجبال؟
فرشت الظلال؟
وغلّفت وديانه بالشجر؟
أما كنت فجّرت فيه الينابيع، كلّلته سوسنا؟

سكبت التألق والإخضرار على المنحنى؟

جعلت الثرى عابقاً ليّنا؟

أما كنت ضوّأت بالأنجم المنحدر؟

وفي ظلمات لياليكمو، أما قد زرعت القمر؟

فماذا صنعتم به؟ بالروابي؟ بذاك الجنى؟

بما فيه من سكّر وسنا؟



في دروب الرياح

هل يا حبيبي بعثرتنا شاسعات البلاد؟

هل فرّقتنا الرياح؟

وهل ترى قد سكتت شهرزاد

عن الكلام المباح؟

من يا ترى ألقى بنا للرياح؟

عصفورتين دون عش دفئ أو جناح

ترمقنا الجوارح الكاسرة

بنظرة أهدابها مسمومة، وأحداقها باترة

تشربنا كأنما دماؤنا بحيرة تستباح

من يا حبيب قد بنى بيننا

هذا الجدار من ترى أسلمنا للجراح؟

ومن ترى أودع أشعارنا أستار هذه الظلمة الناخرة؟

وهل ترى يأتي إلينا الصباح

بعد ليالي السهرة العاصرة؟

وهذه الصحراء هل بعدها

تسقي رؤانا غيمة وردية ماطرة؟

برشة من حبّنا عاطرة؟

ترطّب الأشواق، تشفي كلّ جرح حفرته الرياح

وكل ليل قاتم خلّفوا

أشواكه في الظهر والخاصرة

صور وتهويمات أمام أضواء المرور

اشتعل الضوء الأحمر

والحلم تكسّر

وتبعثر

يا حمرة، يا حسرة وردة صيف جورية

راعشة تحت أعصير ثلوج قطبية

يا لهباً منبعثاً من خلجان

محترقات خلف الذكرى في دوّامة ألون

في دنيا منسيّة

يا شفقاً مسروق الحمرة من خدّ صبيّ جوعان

يا حنّاء في كف همجية

يا نصلاً يطعن، يستنفذ

صبر الأرض الأفريقية

يسلم أعناق دواليها للصلبان

يا نهماً يسحب كوب الماء الصافي من شفة العطشان

اشتعل الأحمر! قام جدار ما بين القلبين

أستار المسرح قد هبطت

فصلتْ

حفرت جرحين

غسلت بالأدمع أغنيتين

قطعت وترين

رحلة على أوتار العود

يأخذني من يد أحزاني في رحلة حب صيفية

ويداً بيد أنا والأوتار

نحو بلاد الأقمار

في غابات الأنجم، في بيدٍ منسية

ورؤانا تسبح في برك مرجانية

نبحر محمولين على موجة أغنية

نرحل في رؤيا غسقية

وشراع سفينتنا أذيال المغرب فوق ربىً وبحار

أبعد مما تصل الأشعار

أنا والأوتار

ضعنا في غيم محطات مرئية

في منعرجات بيض من إغماءة وجد صوفية

وسكبنا الدفء ولون النار

في برد الأرصفة السهرانة تحت رياح ثلجية

يحملن العودْ

بطفولته، وبراءته، نحو بلاد الظل الممدودْ

نحو الشفق المفقود

والعود صبيّ يضحك، يلثغ، لثغته تشرينية

وله سبحات روحية

وعيون سود

طافية فوق سحابة دمع شتوية

والعود إله إغريقي يرحل في آفاق ورود

ويجوب العالم في مركبة قمرية

النهر العاشق

أين نمضي؟ إنه يعدو إلينا

راكضاً عبر حقول القمح لا يلوي خطاه

باسطاً، في لمعة الفجر ذراعيه إلينا

طافراً، كالريح، نشوان يداه

سوف تلقانا وتطوي رعبنا أنى مشينا

إنه يعدو ويعدو

وهو يجتاز بلا صوت قرانا

ماؤه البني يجتاح ولا يلويه سد

إنه يتبعنا لهفان أن يطوي صبانا

في ذراعيه ليسقينا الحنانا

لم يزل يتبعنا مبتسماً بسمة حب

قدماه الرطبتان
تركت آثارها الحمراء في كل مكان
إنه قد عاش في شرق وغرب
في حنان
أين نعدو وهو قد لفّ يديه
حول أكتاف المدينة؟
أنه يعمل في بطء وحزم وسكينة
ساكباً في شفتيه
قبلاً طينية غطت مراعينا الحزينة

إلى الشعر

من بخور المعابد في بابل الغابرة
من ضجيج النواعير في فلوات الجنوب
من هتافات قمرية ساهرة
وصدى الحاصدات يغنين لحن الغروب
ذلك الصوت، صوتك سوف يؤوب
لحياتي، لسمع السنين
مثخناً بعبير مساء حزين
أثقلته السنابل بالأرج النشوان،
بصدى شاعري غريب
من هتافات ضفدعة في الضحى النعسان
يملأ الليل والغدران
صوتها المتراخي الرتيب

ويبقى لنا البحر

وقفنا على البحر تحت الظهيرة طفلين منفعلين

وروحي يسبح، عبر مروجك

في نهر عينين مغدقتين

وقلبي يركض خلف سؤال

حملت براعمه عطر مرعى، على شفتيك

سؤالك فيه عذوبة ريح الشمال

وروعة أغنية سكبتها، كمنجات شوق مخبأة في يديك

سؤالك لون سماء على برك ودوالي

سألت عن البحر هل تتغير ألوانه؟

وهل تتلوّن أمواجه؟ هل ترى تتبدل شطآنه؟

السماء على غابة الصبير

الحب والعذاب أقبلا

تبسَّما في ولَه عذب، وذابا خجلا

يداً بيد

خداً لخد

الحب والعذاب في فناء قلبي نزلا

طفلين قادمين من مجاهل الأبد

يوزعان في الصباح أدمعا وقبلا

وهدب مقلتيهما أمس وغد

وعطر موجة ومد

الحب قال لي: صباح الخير

فقلت للحب: صباحي أغنيات

ضفتا نهر،

سماء،

طير!

وقال لي العذاب محزوناً: مساء الخير

فقلت للعذاب: قلبي قبرات رحلت

وأغنيات هطلت

وغابة يسكنها الطحلب والصبير

الأميرة النائمة

ماذا تقول الكلمة؟

في صفحة القاموس نمتُ طفلة مشتاقة متيمة

فمن ترى يوقظني لأكشف الأسرار؟

وأرفع الأستار

من عالم أبعاده المطلسمة

عميقة الأغوار

ماذا تقول الكلمة؟

إني أنا طرية وملهمة

جميلة وخصبة مثل ندى آذار

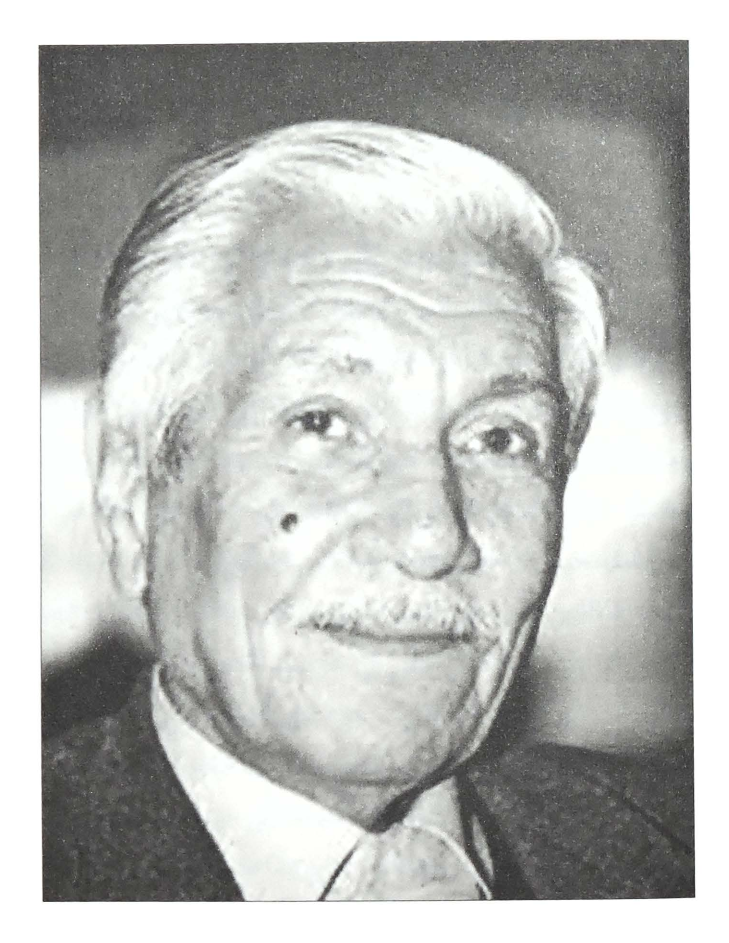
ومثل لون النار

إني أنا لذيذة مثل صلاة عذبة متمتمة

في الكعبة المكرمة

إني أنا عاطرة كالبرعمة

إني أضيء مثلما تشتعل الأقمار
أنير للثوار
درب الليالي المعتمة
أفتح في وجوههم نافذة النهار
أرش في أنغامهم طعم ضياء سائل
أذيب فيه نكهة البهار
ماذا تقول الكلمة؟
في عتمة القاموس أبقى طفلة دميتها محطمة
تاريخها مختبئ، أحرفها ميتمة
أبقى أنا أميرة مسحورة منومة
حتى يجيء شاعر يوقظني من غفوتي
يعيد لي حرارتي وفتنتي
يكتشف التاريخ في حروفي الولهى وفي أشعتى
يبعثني أغنية مغمغمة
يمطرني رشة خصب وشذى،
وفقرة من ملحمة
إعصاري؟
وصراخ دمي؟
أأصوّر شوقي أم أرقي؟
ورماد مسائي المحترق؟
أم أسقيها عبارات تنرف من قلمي؟
تذرو أنقاضي وخرائب روحي في أودية الورق؟



عبد الوهاب البياتي

عبد الوهاب البياتي
١٩٢٦ - ١٩٩٩

عبد الوهاب البياتي شاعر كبير. تجاوز في شهرته كشاعر وطنه العراق إلى أرجاء العالم العربي كافة. وانتقل منها إلى العالم. وصار في فترة زمنية قصيرة شاعراً عالمياً. وكان أول من أعلن للملأ بلوغه مستوى العالمية في كتاباته وفي رسائله إلى أصدقائه، وذلك في نرجسية مفرطة صارت، مع الزمن، سمة أساسية من سمات شخصيته. لكننا نظلم البياتي إذا لم نشر إلى أن عالميته كشاعر كانت قد دخلت حيز التحقق باعتراف كبار معاصريه من شعراء القرن العشرين، الذين كتبوا في تقدير شعره ما لا يحتمل الشك أو الجدل.

غير أن البياتي، الذي تنقَّل في عواصم البلدان العربية منذ أواسط الخمسينات من القرن الماضي، هرباً من القمع الذي كان يُضيَّق عليه وعلى المثقفين التقدميين وعلى شعب العراق أنفاسهم، قد حوَّل تلك التنقلات، أو قد حولته التنقلات ذاتها، إلى مسافر دائم في الأمكنة والأزمنة حاملاً معه، هنا وهناك، نتاج إبداعه واعتزازه بهذا الإبداع، وثقافة واسعة، وموقعاً سياسياً ديمقراطياً واضحاً لا التباس فيه وفي طابعه اليساري.

كتب البياتي الشعر مبكراً. لكنه لم يصبح نجماً متألقاً إلاَّ في منتصف الخمسينات من القرن الماضي. وكانت قصائده الأولى

تسابق الريح في انتمائها إلى الحداثة وإلى الجديد في الشعر. لكن ديوانه الأول «ملائكة وشياطين» الذي صدر في عام ١٩٥٠، كان لا يزال أسير التفعيلة الكلاسيكية، وأسير قافيتها. في حين أن ديوانه الثاني «أباريق مهمَّشة» الصادر في عام ١٩٥٤ هو الذي أدخل البياتي في حلقة شعراء الحداثة الجدد، الذين كان العراق أحد مهاد انطلاقتهم مع مصر، ومنهما امتدت الحداثة حتى بلغت لبنان وسوريا وفلسطين والسودان وبلدان المغرب العربي. ولا بد من الإقرار، وربما الإعلان عمَّا كان البياتي يتردد بالاعتراف به، بأن شعراء كباراً من جيله كانوا قد سبقوه إلى النجومية باسم الحداثة، وفي مقدمتهم بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وبلند الحيدري. ويقول البياتي إنه سرعان ما وجد نفسه، من دون أن يدري، في حالة تنافس مع السياب كبير شعراء الحداثة. ويضيف بأسف بأن شهرته المفاجئة تلك أثارت حفيظة السياب. لكنه لا يخفي اعتزازه بذلك التنافس وبردة فعل السياب على صعوده كشاعر معترف به بين كبار شعراء الحداثة بمثل تلك الفترة الزمنية القصيرة ليصل إلى مستوى قامة السياب.

وُلد عبد الوهاب البياتي عام ١٩٢٦ وتوفي عام ١٩٩٩. ويشير تاريخ ولادته إلى تقارب العمر بينه وبين زملائه الكبار السياب والملائكة والحيدري. وكان البياتي قد التقى لأول مرة مع السياب في دار المعلمين العالية في بغداد عندما كان الإثنان يتابعان دراستهما (١٩٤٧) ليصبحا بعد تخرجهما أستاذين للأدب في مدارس العراق، وينال كل منهما نصيبه من الفصل من التعليم، ومن الملاحقة من قبل الأجهزة الأمنية، بسبب أفكارهما التقدمية. وكان البياتي قد دخل إلى دار المعلمين في عام ١٩٤٤. وسبقه إليها السياب، وتخرَّج منها

قبله. وكان كلاهما يساريين. وإذا كان السياب قد انتسب إلى الحزب الشيوعي خلال دراسته في دار المعلمين العالية وصار مناضلاً معروفاً، وتنكَّر له أهله بسبب ذلك، فإن البياتي، كما يقول هو، لم ينتسب رسمياً إلى الحزب الشيوعي، رغم أن واحدة من قصائده كانت تحمل عنوان: «رسالة إلى حزبي». والمقصود بالحزب هنا الحزب الشيوعي. وقد نشر محمد دكروب هذه القصيدة للبياتي في مجلة «الثقافة الوطنية» وغيَّر لها عنوانها وجعلها «رسالة إلى شعبي»، حرصاً منه على البياتي من أن يقوده نشر القصيدة إلى الملاحقة ثم إلى السجن.

ويروي البياتي في سيرته الشعرية تفاصيل علاقته بالسياب، منذ أن تعرفا أحدهما إلى الآخر في دار المعلمين، في عام ١٩٤٧، بمبادرة من السياب. وكان البياتي قد بدأ بنشر بعض قصائده الأولى في صحف العراق وصحف مصر ولبنان «الرسالة والثقافة» و«الأديب» قبل أن تبدأ مجلة «الثقافة الوطنية» اللبنانية بالصدور، والتي صارت بالنسبة للبياتي مجلته الأولى، وصار يعتبر نفسه، في بغداد وفي كل مكان كان ينوجد فيه، معنياً بأن ينشر فيها قصائده وتعليقاته، ويحرِّض الكتَّاب والشعراء على نشر إبداعاتهم فيها. ثم صار ينشر قصائده في مجلة «الآداب».

كانت اللقاءات الأولى بين البياتي والسياب لقاءات صداقة حميمة. وكان الإثنان يتبادلان قراءة قصائدهما، ويمارسان الملاحظات النقدية بموضوعية على كل قصيدة يقرآنها لأي منهما. لكن البياتي سرعان ما بدأ يكتشف، بعد صدور ديوانه «أباريق مهمَّشة» الذي نقله إلى موقع متقدِّم بين الشعراء الجدد، أن موقف السياب منه قد تغيَّر، وأنَّ السياب بدأ يشعر بأنَّ منافساً حقيقياً له قد

بدأ يظهر. وبرز ذلك في اهتمام النقَّاد بالبياتي إلى الحد الذي جعله أحد كبار شعراء الحداثة. ويستطرد البياتي، بنرجسيته أنَّ السيَّاب، بعد تخرجه من دار المعلمين بوقت قصير، اختلف مع الحزب الشيوعي، وانتقل في مواقفه السياسية إلى النقيض. وظلَّ في مواقفه تلك حتى أيامه الأخيرة التي كان قد عاشها في لبنان. ومات في لبنان صريع مرض السل. ولم يجد من يودعه إلى مثواه الأخير إلاَّ عدد قليل من أصدقائه.

جاء البياتي إلى الحياة في بغداد، في حي يقع بالقرب من مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني وضريحه. والشيخ الكيلاني هو أحد كبار المتصوفين. وكان الحي يعج بالفقراء، كما يقول البياتي، وكذلك بالباعة والعمال والمهاجرين من الريف، وبالبرجوازيين الصغار. وكانت تلك المشاهد أول معرفته بالعالم، المعرفة التي شكلت مصدر ألمه الكبير الأول. وظلت ترافقه، بإضافة مشاهد أخرى مثيلة لها، على امتداد حياته كلها. ويعترف البياتي في سيرته الشعرية أن المظالم التي يعج بها العالم، إضافة إلى المظالم التي عانى منها شعبه العراقي منذ نشوء دولته في مطالع عشرينات القرن الماضي، هي التي جعلت منه يسارياً، من دون التزام بحزب يساري. وهي يسارية ظل يرى الأشياء والأحداث من منظارها، وبحسب فهمه لها وتحديده لمنطقها ولآفاقها. يتذكر البياتي في سيرته الشعرية بالنص، بعض تأملاته عندما كان لا يزال في الثانية عشرة من عمره، في ما يشبه التنبؤ في ما صار إليه عندما أصبح شاعراً كبيراً. يقول: «**لم تكن المدينة التي وُلدت فيها إلاَّ صورة لكل المدن العربية الأخرى في تلك السنوات. فبغداد كانت تعج بصور البؤس الإنساني الذي لازم المجتمعات الفقيرة منذ نشوء الحياة على هذه الأرض. وقد كنت أحس وأنا**

أتصفَّح وجه الألم، أنه لم يكن وجهاً للألم في الزمن الذي كنت أعيش فيه، بل إنه كان وجهاً للألم في كل العصور. ولهذا كنت أستنجد بالآلهة والأساطير وأضرحة الأولياء والكتب لكي أتساءل: لماذا كل هذا البؤس؟ وأين ذهب جهد الإنسان منذ بدء الخليقة حتى ذلك الزمان؟ كنت أتساءل وأنا طفل: متى يمكن للإنسان أن يبني وأن يناضل، وأن يحاول تغيير الحياة لكي يضيف إليها أشياء جديدة من غير أن يدع الفرصة للموت أو للهدم أو للخراب لكي يعود ويهدم ما بناه. وكانت حكايات جدتي وأمي والحكايات الأخرى التي كنت أقرؤها في الكتب العربية القديمة تغذي هذه الرؤية بالتفصيلات والروايات والقصص. وهذا ما جعلني أحسّ بأن الزمن الذي عاشته الإنسانية هو زمن دائري أكثر مما هو زمن أفقي، لأن الزمن الأفقي لا يمكن أن يعيد نفسه. وهذا ما جعلني أيضاً لا أكتفي بالحكاية أو القصة أو الحدث أو المثل، وإنما أبحث عما يختفي وراء كل منها، وأبحث عن القوى الدافعة أو الخالقة لهذا المنحى أو لهذه الرؤية أو لهذه الحكاية. ومن هنا صار علي ـ دون وعي ـ أن أبحث عن مخلص... إن الشك أخذ يساور نفسي، وأنا في تلك السنوات، بأن التغيير أو الثورة التي يقوم بها السياسي لا تلبث أن تنكص على عقبيها وتعود الأمور مثلما كانت في السابق، أي أن الرسالة أو الدعوة تصبح كذلك عندما تتحول إلى سلطة، وكذلك الأمر بالنسبة للثورة. فالسلطة دائماً، في كل زمان ومكان، تحاول أن تلجأ إلى العنف والإرهاب والجمود والقضاء على الإنجاز الإنساني الحقيقي للدعوة أو الثورة. وقد تأكَّد لي ذلك من حرب الذئاب المسماة بالحرب العالمية الثانية. فقد كانت حرب ذئاب أكثر مما كانت حرب دفاع عن الإنسان والديمقراطية والعدالة، بالرغم من الضوضاء التي

كنا نسمعها في أجهزة إعلام ذلك الزمان. ومن هنا أستطيع القول إنَّ بذرة التمرد والثورة قد وُلدت معي، وتغذَّت ببؤسي ودمي، وببؤس ودم معظم الناس الذين كانوا يضجون بالحياة في زمن الطفولة والشباب الأول الذي عشته».

كان جد البياتي يواكب بفرح ما يضج في صدر هذا الفتى من مشاعر تفوق عمره. لذلك كان يهتم به اهتماماً خاصاً. وكان يوصي والد الفتى بإيلاء الاهتمام به وبتوفير الفرص التي تقوده إلى المعرفة. وفرض الجد على الوالد أن يجعل من البياتي صديقاً له رغم أنه لم يكن الأكبر سناً بين الأولاد. ويذكر البياتي أن أول معرفته بالشعر كانت أبياتاً كررها جده أمام مسامعه. واكتشف فيما بعد أن تلك الأبيات كانت مقتطفات من شعر ابن عربي وابن الفارض والحلاج، أئمة الصوفية في تاريخ الإسلام.

حين كبر البياتي، وازداد نهمه إلى المعرفة، وازدادت قراءاته اتساعاً في مراحل دراسته المختلفة، قبل الدخول إلى دار المعلمين العالية، ثم بعد أن دخل إلى تلك الدار، اكتشف أنه شاعر بالفطرة. وكانت بدايات تعرفه إلى الشعر، أو كما يسميها هو زاده الشعري الأول، أغاني الفلاحين والحكايات الشرقية المنتشرة في الريف. ثم صارت له اختياراته الخاصة به وبذوقه الشعري، من بين الشعراء العرب. فكان أحبهم إليه طرفة بن العبد وأبو نواس والمعري والمتنبي والشريف الرضي. وكان هؤلاء، كما يقول البياتي، أكثر من أثَّر فيه في بدايات اهتمامه بالأدب وبالشعر خصوصاً. أما الكتب الأولى التي أشاعت الفرحة في نفسه ودفعته إلى الطريق المستقيم الذي يقود إلى طرق جديدة، فكانت كتاب «الأم» لمكسيم غوركي، والجزء الأول من كتاب «الأيام» لطه حسين، ومسرحيات توفيق

الحكيم، رغم أنها لم تكن تجيب عن أسئلته الكثيرة، لكنها كانت تبعث الطمأنينة في نفسه.

كان كبار شعراء تلك المرحلة من الرواد بالنسبة إلى البياتي ووفق ترتيبه لأسمائهم: محمود سامي البارودي وأحمد شوقي والجواهري ومحمد سعيد الحبوبي وبدوي الجبل وخليل مطران والأخطل الصغير وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي والياس أبو شبكة وسعيد عقل وأمين نخلة وعمر أبو ريشة. وكان الرواد في الدراسات الأدبية وفي كافة أنواع المعرفة من نقد وترجمة وبحث يتمثلون بالنسبة إليه بطه حسين وأحمد أمين وعباس محمود العقاد ومحمد مندور ومارون عبود وميخائيل نعيمة. وكانوا في مجال الرواية والمسرح يتمثلون بتوفيق الحكيم ويحيى حقي ونجيب محفوظ.

يتوقف البياتي في سيرته بعمق عند مرحلة دراسته الجامعية في دار المعلمين العالية. إذ هي كانت المرحلة التي أسست لشخصيته التي أصبحت مع الزمن شخصية الشاعر العربي الكبير، الذي بلغ العالمية في سنوات قليلة. تفتحت عيناه في دار المعلمين على أمور عديدة. وطرحت عليه مشاهداته والأحداث التي عرفتها تلك المرحلة أسئلة أساسية سرعان ما كانت إجاباته عنها بالتدريج تساهم في بناء عمارة شخصيته، كإنسان ذي سمات خاصة، وكشاعر، وكثائر متمرد. كل شيء في تلك المرحلة كان يقوده إلى التمرد والثورة. ولم يعد بحاجة إلى التفتيش عن مخلص، كما كان حاله في زمن الطفولة. بل هو اكتشف الطريق إلى النضال، بشعره وبمواقفه، لتغيير أوضاع بلاده. فانضمَّ، من دون التزام بحزب، إلى ثوار تلك المرحلة. وكان ديوانه «أباريق مهشمة» هو البداية في التعبير عن ثورته. والبداية في دخوله إلى عالم الحداثة الشعرية. والبداية في النجومية، والبداية، فوق كل

ذلك، بالتنقل بين بلد عربي وآخر، من دمشق إلى بيروت إلى القاهرة، ثم من هذه البلدان العربية إلى موسكو ومدريد وصولاً إلى الجانب الآخر من الكوكب الأرضي، إلى أميركا الجنوبية.

في عام ١٩٥٤ التقيت أول مرة بالبياتي في بغداد. واستمرت علاقتي به منذ ذلك التاريخ حتى وفاته. ومن غرائب الصدف أنه اتصل بي ذات يوم من دمشق يعلمني بأنه سيرسل لي بعض كتبه الجديدة ومن بينها سيرته الشعرية، وبعض الكتب التي تتحدث عنه. وفي اليوم الذي استلمت فيه تلك الكتب وصلني نبأ وفاته. فوقع عليَّ النبأ وقع الصاعقة. كان ذلك في عام ١٩٩٩.

كان الأديب اللبناني محمد دكروب من أحب أصدقاء البياتي إليه. وقد عبَّر البياتي عن ذلك بعدد كبير جداً من الرسائل، التي بعثها إليه من أماكن إقاماته المختلفة، من بغداد ودمشق والقاهرة وموسكو الخ. ويقدم دكروب نموذجاً طريفاً عن نرجسية البياتي في هذا المقطع من رسالة بعثها البياتي إليه. يقول البياتي في هذا المقطع من الرسالة: «. . **أكتب إليك هذه الرسالة بعد انتهائي من قصيدة طويلة كتبتها بعنوان «رسالة إلى حزبي». وقد وضعت في كل حرف من حروفها فلذة من روحي. . أنا شخصياً أعتقد أنني قد استعدت فيها «عافيتي الشعرية» إن صحَّ التعبير. ففيها تحفز وثورة وعفوية. صدقني إذا قلت لك إنني أنا شخصياً قد تأثرت بها وأنا أكتبها. وعلى كل حال أتمنى أن يسامحني الله لأنني استرسلت في مدح عمل من أعمالي دون أن أترك لغيري حرية إبداء الرأي. إنني أشعر بالخجل، وهذا يكفي. ولكن ما العمل إذا كنا لا نملك غير أن نحب. .**».

ومع ذلك فقد كان البياتي، برغم نرجسيته، شاعراً عربياً كبيراً. وكان أحد رواد النهضة الجديدة في الشعر منذ مطالع خمسينات القرن

الماضي. وقد اعترف به كشاعر كبير، إلى جانب النقاد العرب وزملائه من كبار شعراء المرحلة، شعراء كبار ممن تركوا بصماتهم على حقبة كاملة من القرن العشرين. وأقتطف، هنا، بضع كلمات قالها في البياتي صديقه الشاعر الكبير ناظم حكمت: «**عندما نتذكَّر القصائد الجيدة، تخطر عادة في مخيلتك أبيات الشعراء الكلاسيكيين لمختلف الشعوب ومختلف العصور. أما الآن فإني لا أعني هذه القصائد، وإنما أعني قصائد شعراء عصرنا. مما يبعث على السرور أن تفتح ديوان شاعر شاب جديد معاصر وتتعرَّف بأشعاره، خاصة إذا كانت نظرته إلى الحقيقة تتفق ونظرتك. إني أريد التحدث عن الفن الرائع عند واحد من معاصري، وأعني به عبد الوهاب البياتي الشاعر العراقي. لقد تعرفت إلى أشعار هذا الشاعر عن طريق اللغة الروسية. لقد أحببت كل الحب في أشعار البياتي متانة الحبكة والتآلف بين مختلف المعاني والمواضيع «الذاتية» مع المواضيع الوطنية والإنسانية العامة. وإني لأحب في هذا الشاعر عفويته وبساطته وصراحته وقابليته المدهشة على تركيز المعاني وبلورتها في قصائده**».

لكن ناظم حكمت لم يكن الصديق الوحيد للبياتي بين كبار شعراء وأدباء ومثقفي العصر. بل كانت له صداقات مع الكثيرين منهم. كما كانت له علاقات صداقة حميمة مع العديد من كبار شعراء وأدباء العالم العربي. وهو يروي بكثير من الحميمية تفاصيل هذه العلاقات في سيرته الشعرية، إلى الحد الذي يبدو فيه شاعرنا، بشعره المترجم إلى لغات عديدة، وبعد زيارات له إلى أماكن مختلفة في شتى أرجاء العالم، واحداً من كبار شعراء القرن العشرين. وأعترف أنني، كقارئ، وكصديق للبياتي، خلال ما يقرب من نصف قرن، من الذين يعتبرون البياتي واحداً من كبار شعرائنا، من دون أدنى مغالاة.

يبقى لديّ في ختام هذا الحديث السريع عن البياتي سؤال يتعلق بالبياتي وحده، هو سؤال العشق في حياة شاعرنا. وهو سؤال يجيب عنه بعض أصدقاء البياتي في أربعة مقالات تناولوا فيها حب البياتي الضائع، حبه لفرندوزة الإيرانية، التي كانت زميلته في الدراسة في بغداد، ثم عادت إلى طهران، ولم يعد يراها. لكنه ظل يحبها. وقد أهدى إليها ديوانه «بكائية إلى حافظ الشيرازي». وتطوَّع أحد هؤلاء الأصدقاء للبحث عنها فوجدها في طهران. لكن الشاعر لم يبحث عنها، ولم يلتحق بها بعد أن عرف أنها ما تزال على قيد الحياة. بل هو ظلَّ يحتفظ بها كذاكرة عشق لا تموت. هكذا الشعراء يفعلون. ويحق لهم ما لا يحق لسواهم، حتى في الحياة، خارج الشعر وخارج معاناتهم في عوالمه.

مختارات من شعره

الأحمر والأسود

لصّان اختبآ

في أكواخ الطين،

وفي قصب الأنهار

أنهكني هذا الزمن الدائر

في أجراس الماء

من يروي جسدي

لأطوف به حول الكعبة

أدفنه في جبل «التوباد»

فلعلّ نسور الفجر الدامي

تأكله،

وتبقي بعض عظامي

طلسماً لطفولة أعمى

ضيّع في باب الله

سحر الألوان

في ليل «معرة» أجدادي

ولدتني أمي أعمى

كنت أرى من بين أصابعها
سفناً ترحل نحو كوكب أخرى
ولصوصاً يحكم بعض منهم بغداد
وممالك أخرى
ماتت قبل ولادتها
كنت أرى أمي شاحبة
في الفجر تصلّي وتنادي أشباح الموتى في غرف الدار
من يدفن بعض عظامي
لأراها تخضرّ وتنمو
في طين الأنهار
لأصنع منها مزماراً
ينفخ فيه الرعيان

أوراق بغدادية مجهولة

إقرأ يا أبتي
كتباً منعت منذ عصور
منها كتب السحر
ومنها كتب السيمياء
ومنافي الموتى
وحفارات الماء
وأحاول تحويل رماد الحب
إلى ذهب أو كلمات

وأحاول ترميم الباقي منها

بدموعي

أو أكتب في الصفحات البيض

مراثي ملكات «الوركاء»

واحدة منهن

رأيت ضفائرها الذهبية

في متحف برلين

وأخرى صورتها

في ختم طيني

أفركه

فيضيء البرق أزقة «بغداد»

كانت أمي تتضرّع

خلف الباب

أن أشفى من هذا الداء

لكن جنوني طال

وعشقي زاد

بكائية إلى حافظ الشيرازي

ولدت في حدائق الآلهة

ومتّ في شيراز

كلّ عشيقاتك في منازل الموتى

في مقابر الرماد

أضاءهنّ الوجد، فاستفقن باكيات
لمّا فتحت كوة لهن في الجدار
ماذا أسمّيك؟ فأنت ملك الشعر
بعينيك رأيت الموت والخراب
ومشعلي الحرائق
وخدم الطغاة
بقدح الخمر الإلهيّ تداويت
صرخت باكياً في حانة الأقدار
رباه ماذا تركت في العالم الأرضيّ
هذي السحب الحمراء؟
غير قبور الشعراء، ها
هو المساء
يهبط في حدائق الآلهة / السماء
تنذر بالمطر
أحس بالبرد وقلبي صار من لوعته حجر

نصوص شرقية

١-

اليوم
حوّمت حول رأسي
سحب من الكلمات
لكنني طردتها
وجلست بانتظارك

٢- في حجرة «خوفو»
جلست تبكي
قالت: هل سيسرقنا
لصوص الآثار نحن أيضاً؟

٣- ضاجعتها في المرآة،
وكان قد مضى على موتها
أكثر من ثلاثين عاماً

٤- المرأة،
قادرة على الاحتفاظ
بحرارة جسدها،
وبطعم قبل عشاقها
وبرائحة الورد والياسمين،
حتى بعد موتها

٥- الشمس تجلس على الشاطئ،
وعلى رأسها قبعة من القش
-لا أستطيع أن أكتب مثل هذا الكلام-
فالشمس قد أحرقت قدمي،
وأنا أتسلّق هذا الجبل للوصول إليك.

صورة جانبية لعائشة

تخفي وراء قناعها وجه الملاك
وملامح الأنثى

التي نضجت على نار القصائد

أيقظت شهواتها ريح الشمال

فتجوهرت تفاحة/ خمراً

رغيفاً ساخناً

في معبد الحب المقدس

أدمنت طيب العناق

ظهرت بأحلامي، فقلت: فراشة

رفّت بصيف طفولتي

قبل الأوان

وتقمصت كل الوجوه

وسافرت/ بدمي تنام

قديسة تنسل في جوف الظلام

لتعانق الصنم المحطم

تنشد الأظفار في الحجر/ الحطام

ياقوتة/ فمها/ تشع طرية/

نار الحقول/

ضفائر معقودة/

عينان تضطرمان من فرط الحنان

وجه وراء قناعه، يخفي «مدائن صالح»|

وحدائق الليمون في أعلى الفرات

أمضيت صيف طفولتي

فيها، وأدركني الشتاء

وحملت في منفاي بعد رحيلها
ذهب القصائد والرماد

مجنون عائشة

أيقظني في الليل
قناع عصفور فأوغلت مع العصفور
في الغيهب المسحور
لم تستطع سجن الربيع في بستانها
رأيت غصناً مزهراً يطل في الديجور
عليّ من فوق جدار النور
بكيت، فالربيع مرّ ثمّ عاد
وأنا ما زلت في بوابة البستان
مصلياً لغصنه المزهر، للنور الذي يأتي من الداخل،
للألوان
وحاملاً نذري إلى عاصمة الخلافة
وحجر الحكمة والخرافة
لعلّ نجم القطب
يصير لي جسراً على نهر جحيم الحب
فأعبر الصحارى
أمشي وراء ناقتي والفجر قدامي إلى بخارى
أعود منها حاملاً نذري إلى دمشق
مطارداً وجائعاً للحب

أكتب فوق سورها معلقاتي العشر

أعقر في بوابة البستان ناقتي وأمضي هائماً في الفجر

ممرغاً وجهي بعطر الزهر

مخبئاً وراء قاسيون

موتي وموت المدن الأخرى التي أصابها الطاعون

وقمر الطفولة المجنون

قصائد حب إلى عشتار

تذرف السروة في الليل دموع العاشق

وتعرّي صدرها للصاعقة

وعلى أقدامها يسجد عرّاف الفصول

عارياً أنهكه البرد وغطى وجهه ثلج الحقول

يخدش الأرض، يعرّيها

يموت

تاركاً قطرة نور

بين نهديها الصغيرين وفي أحشائها رعشة بركان يثور

حيث تنشق البذور

ترضع الدفء من الأعماق تمتد جذور

لتعيد الدم للنبع وماء النهر للبحر الكبير

والفراشات إلى حقل الورود

فمتى عشتار للبيت مع العصفورِ والنور تعود؟

أولد وأحترق بحبي

تستيقظ «لارا» في ذاكرتي: قطاً تترياً، يتربص بي، يتمطى، يتثاءب، يخدش وجهي المحموم ويحرمني النوم. أراها في قاع جحيم المدن القطبية تشنقني بضفائرها وتعلّقني مثل الأرنب فوق الحائط مشدوداً في خيط دموعي. أصرخ: «لارا» فتجيب الريح المذعورة: «لارا»، أعدو خلف الريح وخلف قطارات الليل وأسأل عاملة المقهى. لا يدري أحد. أمضي تحت الثلج وحيداً، أبكي حبي العاثر في كل مقاهي العالم والحانات.

كتابة على قبر عائشة

يا راكباً نجران

بلّغ نداماي إذا ما طلع النهار

واقتحمت مدينة الموتى خيول النار

وشطت بي المزار

«أن لا تلاقياً» ولا لقاء

وابك على طفولتي أمام صمت القبر

وقف على أطلال هذا القلب

مصلّياً للرب

فمن هنا أقبلت

ومن هنا رحلت

في عربات الفجر
أحمل أسمالي معي للقبر
وحسرة الأرض التي لم يغسل المطر
جبينها الساحر في السحر
ولم تذق حلاوة القبل
في حمرة الطفل
ولم يضاجع عريها أحد
فهي هنا حارسة الموتى إلى الأبد
تنمو على صخورها الأعشاب
وينعب الغراب

حضارة الغرب

حضارة تنهار
قلب من الطين
وعينان بلا قرار
يجف في بئريهما النهار
عاهرة خلّفها القطار
في ليل أوروبا بلا دثار
تموت تحت البرد والأمطار
وددت
لو صحت بها :
أيتها العجوز

يا هتيكة الإزار
قد فاتك القطار

اعتذار عن خطبة قصيرة

سيداتي، سادتي
خطبتي كانت قصيرة
فأنا أكره أن يستغرق اللفظ زماني
ولساني
ليس سيفاً من خشب
كلماتي، سيداتي، من ذهب
كلماتي، سادتي، كانت عناقيد الغضب
وأنا لست بسكران، ولكني تَعِبْ
الشموع انطفأت
والليالي بردت
وأنا أحمل قلبي في حقيبة
مثل طفل جائع
أغرق بالدمع صليبه
عبر آلاف الخيانات وآلاف الأكاذيب الحقيرة
خطبتي كانت قصيرة
وأنا لست بسكران، ولكنيَ أسخرْ
من عذابي
وأنا ليس بقيصر

إن روما تحترق

إن روحي تختنق

عبر آلاف الخيانات وآلاف الأكاذيب الحقيرة

فوداعاً

سيداتي سادتي

كابوس الليل والنهار

تحلم الأرض بميلاد نبيّ يملأ الآفاق عدلاً

تحلم الأرض بميلاد الفصول

وأنا أحمل في الشارع جثة

لأواريها، إذا ما هبط الليل، بمبنى أو حديقة

وبمقهى أو بخمارة نور

مخفياً وجهي عن الله وعنك

خجلاً سكران أبكي

وتقول الأغنية

بعد أن عُبئ صوت العندليب

والمغني وهو للشمس يغني في أسطوانة

بعد أن بيعت ودبّ الشيب في رأس المغني

ودم الوردة فوق الأفق سال

ما الذي كانت تقول الأغنية؟

والعصافير على أرصفة الليل تموت

والنبي المنتظر

نائماً ما زال في الغار وما زال المطر
فوق جدران البيوت الهرمة
وسطوح المدن الحبلى وإعلانات سمساري البيوت
بدم يكتب ميلاد وموت الكلمة
وأنا أحمل في الشارع جثة مخفياً وجهي عن الله وعنك
لم تبكي؟
أيها النهر الخرافي الذي يرضع أثداء المدينة
حاملاً أوساخها نحو البحار
والخيول الميتة
وحطام العربات
وأنا أشهد ميلاد النهار
في عيون القطط المحتضرة
بعد أن عُبئ صوت العندليب
والمغني وهو للشمس يغني في أسطوانة
كانت الجثة تبكي
وأنا أبحث في الشارع عنك
والتقينا بعد أن مات النهار
ثمّ جاء الليل من بعد النهار
ونهار آخر بعد النهار
وتدور الأسطوانة
ومغنيها بصوت شرخته السنوات
لاهثاً يجري وراء الظلمات

ما الذي كانت تقول الإغنية؟

ما الذي كانت تقول الأغنية؟

السمفونية الغجرية

كان المغني الغجري يرشق العذراء بالوردة

والعذراء مثل ريشة تدور حول نفسها

تحاول اللحاق بالليل الذي كان على مشارف «الحمراء»

مقتولاً تغطي صدره الخناجر - الزنابق - النجوم

كان الغجري شاحباً يطرد في غنائه الأشباح

كانت يده ترسم في الهواء شارة الغريق - العاشق - المخدوع

والعذراء مثل ريشة تطير خلف يده الراجفة، الضارعة

«الحمراء» كان غارقاً كعهده بالصمت

صاح الغجري استيقظي أيتها الأعمدة - الهياكل - الأقواس

يا مكعبات النور في قصيدة المستقبل - النبوءة - الرحيل

صاح استيقظي أيتها الأسطورة - القبيلة

العذراء مدت يدها ليده وعانقتها

رقصا معاً وأصبحا لسان لهب

فاشتعلت في شعرها الوردة

صاح الغجري احترقي أيتها الصغيرة الحسناء

مال رأسها، تلاقت العيون والشفاه

هذا زمن الموت على وسادة الربيع

مال رأسه فاحتضنته وهو يبكي

يطرد الأشباح في غنائه الصاعد من قرارة
الأسطورة - القبيلة
«الحمراء» كان غارقاً كعهده بالصمت والفجر
على أبوابه يرسم أشجاراً وقبرات ليل راحل،
تلاقت العيون والشفاه
صاح الغجري خائفاً توقفي أيتها الريشة في
مدار هذي اللعبة - الفاجعة،
العذراء دارت دورتين
وقفت
تحاول اللحاق بالليل الذي كان على مشارف «الحمراء»
مقتولاً تغطي صدره الخناجر - الزنابق - النجوم

كتب صدرت للمؤلِّف
وكتب بالإشتراك مع آخرين

العنوان	السنة	الناشر
ماذا بعد حرب تشرين؟	١٩٧٤	دار الفارابي
كيف نواجه الأزمة **في حركة التحرر الوطني العربية**	١٩٧٤	دار الفارابي
المقاومة أفكار للنقاش حول الجذور والتجربة والآفاق قدم له جورج حاوي	١٩٨٥	دار الفارابي
حوارات مفكرون عرب يناقشون كريم مروة في القومية والاشتراكية والديمقراطية والدِّين والتراث والثورة	١٩٩٠	دار الفارابي
جدل الصراع مع إسرائيل **وجدل السلام معها**	١٩٩٤	دار الفارابي
الوطن الصعب.. الدولة المستحيلة حوار بين كريم مروة وكريم بقرادوني ساقه ودوَّنه طانيوس دعيبس	١٩٩٥	دار الجديد

حوار الإيديولوجيات بين أفكار ماركسية وأفكار دينية	**١٩٩٧**	دار الفارابي
نحو جمهورية ثالثة	**٢٠٠١**	دار الفارابي
كريم مروة يتذكَّر **في ما يشبه السيرة** حاوره صقر أبو فخر	**٢٠٠٢**	دار المدى
عشية أفول الأمبراطورية أسئلة حول موقعنا في عالم الغد	**٢٠٠٣**	دار الفارابي
جورج حاوي مواقف القائد وشهادات الرفاق بالاشتراك مع جورج البطل وسمير مراد وتقديم ميشال إده	**٢٠٠٥**	دار النهار
الفكر العربي وتحولا ت العصر رؤى وأفكار من وجهات نظر ماركسية مختلفة بمشاركة ستة عشر مفكراً عربياً قدم له جورج البطل	**٢٠٠٦**	دار الفارابي
Communism dans le Monde Arabe بالإشتراك مع سمير أمين وتقديم جورج لابيكا	**٢٠٠٦**	Les Temps des Ceries
أزمة النظام العربي **وإشكاليات النهضة** بالإشتراك مع برهان غليون وماهر الشريف وجيلبير الأشقر (وقائع ندوة برلين تكريماً للشهيد جورج حاوي)	**٢٠٠٦**	دار الإنتشار العربي

الظاهرة العراقية قدم له فالح عبد الجبار	٢٠٠٧	دار المدى
الشيوعيون الأربعة الكبار **في تاريخ لبنان الحديث** فؤاد الشمالي وفرج الله الحلو ونقولا شاوي وجورج حاوي	٢٠٠٨	دار الساقي
في البحث عن المستقبل حوار فكري وسياسي وشخصي أجرته الباحثة المغربية مريم سيدي حيدة	٢٠٠٨	دار الساقي
Un Demi Sciecle d'Utopie	٢٠٠٩	Teraedre
نحو نهضة جديدة **لليسار في العالم العربي**	٢٠٠٩	دار الساقي
قراءات معاصرة في قضايا فكرية	٢٠١٠	مكتبة مدبولي
حوارات مع أطروحات كريم مروة نحو نهوض جديد لليسار في العالم العربي مثقفاً عربياً شاركوا في النقاشات مع تعقيب المؤلف على النقاشات	٢٠١١	مكتبة جزيرة الورد
قادة تاريخيون كبار **في ثورات القرن العشرين** (في جزئين)	٢٠١٢	دار العربية للعلوم

العنوان	السنة	الناشر
فلسطين وقضية الحرية في سير وإبداعات المثقفين الفلسطينيين	**٢٠١٢**	دار العربية للعلوم
أفكار حول تحديث المشروع الاشتراكي	**٢٠١٣**	دار التنوير
وجوه مصرية مضيئة في الفكر والأدب والفن	**٢٠١٤**	دار سجال - مصر
إعترافات نهاية القرن	**٢٠١٤**	دار التنوير
نزار مروة في عوالمه الثقافية ودروب حياته سيرة ومختارات من كتاباته	**٢٠١٤**	دار الفارابي
الرواد اللبنانيون في مصر في الصحافة والفكر والأدب والفن	**٢٠١٥**	الهيئة العامة للكتاب في مصر
ملامح الشخصية اللبنانية في سير وإبداعات المثقفين اللبنانيين	**٢٠١٥**	الدار العربية للعلوم
فصول من تجربتي في الفكر وفي السياسة	**٢٠١٥**	الدار العربية للعلوم

المحتويات



هذا الكتاب

وبعد، فقد اخترت هؤلاء الثمانية من كبار شعراء العراق على امتداد القرن العشرين، الكلاسيكيين منهم والحداثيين، لأنني أعرف ستة منهم معرفة شخصية منذ مطالع شبابي عندما كنت أقيم في العراق في أواخر أربعينات القرن الماضي لمتابعة دراستي في معاهده، ثمّ في زيارات متكررة له بعد عودتي منه في عام ١٩٤٩. فقد مكّنتني تلك الظروف من معرفة هؤلاء الشعراء الستة ومعرفتي الدقيقة بشعرهم وبسيرهم. أما الشاعران الآخران جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي فقد قرأت في تلك الفترة بالذات من وجودي في العراق الكثير من أشعارهما وتابعت بعد ذلك التاريخ اهتمامي بسيرتيهما وبمواقفهما الأدبية والسياسية والفكرية.

كريم مروة

ISBN 978-993335300-1



